Texto ! Textes et cultures, Vol. XXVII, n° 1-2 (2022).

فرانسوا راستيي

سوسير ومستقبل اللسانيات

ترجمة ادريس الخطاب

Copyright : Institut Ferdinand de Saussure, avril 2022.

Résumé

Inclassable, illustre et méconnu, Ferdinand de Saussure reste à découvrir, un siècle après sa mort. Ce petit livre poursuit un but modeste : donner envie de lire ou de relire les écrits originaux de Saussure, pour mesurer la singularité de sa pensée. La découverte en 1996 de manuscrits inédits a favorisé un courant international de réflexion qui permet de réévaluer le statut et les perspectives de la linguistique, notamment dans ses rapports avec la sémiotique et les sciences de la culture. Les recherches de Saussure éclairent d'un jour nouveau les rapports entre le langage et la pensée, les signes et les objets culturels. Ainsi, elles revêtent une portée générale, qui intéresse la conception de la scientificité elle-même.

Après la crise de l'identité des sciences de la culture, elles aident à concevoir un projet refondateur. Ce livre entend prendre la mesure de cette situation nouvelle pour engager la réflexion à venir.

Les mots clés : texte, sens, signe, signifiant, signifié, langue, parole, sémiosis, déontologie, dualité, sémiotique, sciences de la culture.

صفحة ظهر الغلاف

فرديناند دي سوسير مفكر غير قابل للتصنيف، ودائع الصيت، وغير معروف، وبعد قرن على وفاته، يظل من الشخصيات التي يجب اكتشافها. يتابع هذا الكتيب هدفا متواضعا: جعل الناس يرغبون في قراءة أو إعادة قراءة كتابات سوسير الأصلية من أجل تقييم التفرد الذي طبع فكره. وقد ساهم اكتشاف المخطوطات الحديثة سنة 1996 في ظهور تيار دولي للتفكير والبحث مهمته إعادة تقييم وضع وتوقعات اللسانيات في علاقتها على الخصوص بالسيميائيات وعلوم الثقافة.

قادت أبحاث سوسير إلى تسليط ضوء جديد على العلاقة بين اللغة والفكر من جهة وبين العلامات والموضوعات الثقافية من جهة ثانية. وبناء عليه، تتسم هذه الأبحاث بالبعد العام الذي يهم تصور النزعة العلمية.

وبعد أزمة هوية علوم الثقافة، تساعد كتابات سوسير على تصور مشروع توحيدي، ويهدف هذا الكتاب إلى قياس مدى هذا الوضع الجديد، على أمل بلورة تفكير مستقبلي في هذا الشأن.

الكلمات المفاتيح: نص، معنى، علامة، دال، مدلول، لسان، كلام، سيميوزيس، ديانطولوجيا، ثنائية، سيميائيات، علوم الثقافة.

Avant-propos

J'ai plaisir à remercier ici le Professeur Driss El Khattab pour le soin qu'il a apporté à la traduction de *Saussure au futur* et pour les échanges que j'ai eus avec lui à cette occasion. La présente traduction est la seule à avoir reçu mon agrément.

François Rastier, le 7 avril 2022.

توطئة

أنا سعيد بتقديم الشكر للدكتور ادريس الخطاب على العناية الفائقة التي أولاها لترجمة *Saussure au futur*، كما أشكره على المراسلات التي جمعتني به للتدقيق في العمل الترجمي. وأنبه على أن هذه الترجمة هي الوحيدة التي حظيت بموافقتي.

فرانسوا راستيي، 7 أبريل 2022

مقدمة المترجم

أكاد أجزم أن أهم الأعمال التي أغنت الحقل السيميائي وعلوم النص بعد وفاة گريماس تعود إلى جهود تلميذه فرانسوا راستيي، الذي يتميز بكتاباته الرصينة المطبوعة بالبعد الموسوعي والفلسفي. والترجمة المقدمة في هذا الكتاب تعكس حصيلة أبحاثه حول الإرث العلمي لفرديناند دي سوسير (1857-1913) الذي لم يتقادم بفعل الزمن، بل إن كتاباته ومخطوطاته ما زالت تثير الجدل. ونرى أن كتاب *Saussure au futur* (2015)، موضوع هذه الترجمة، من الأبحاث الجادة في مجال تحقيق النصوص، إذ يروم من خلاله فرانسوا راستيي تسليط الضوء على الجوانب الغامضة في كتابات سوسير وتوضيح الأفكار والنظريات والمقاربات التي ظلت لعقود محط نقاش بين اللسانيين والفلاسفة على حد سواء.

في أواخر سنة 2017 اتصل بي فرانسوا راستيي وطلب مني ترجمة كتابه *Saussure au futur* الصادربدار Belles Lettres سنة 2015 . فرحبت بالفكرة بما أنني أعرفه منذ عشرين سنة وقد سبق لي أن ترجمت كتابه **فنون النص وعلومه (2010)** وعدة مقالات. وتأخذ هذه الترجمة العربية لمؤلف - **سوسير ومستقبل اللسانيات-** بعين الاعتبار عدة مراسلات مع الكاتب حول التدقيق في المصطلحات التي يستعملها**.** وأتوخى من هذه الترجمة اطلاع القارئ العربي على خلاصة الأبحاث ذات الطابع الفيلولوجي والفلسفي والتاريخي بخصوص أعمال سوسير ومخطوطاته من جهة، واستشراف مستقبل اللسانيات من خلال ما توصل إليه المؤلف في ميدان السيميائيات واللسانيات العامة وعلوم النص والدلالة من جهة ثانية. ولا بد من التذكير بأن هذا الكتاب يحتوي على كثير من الأفكار الجديدة والطروحات الجريئة.

1. **سيرة المؤلف**. ولد فرانسوا راستيي (François Rastier) سنة 1945 في مدينة تولوز (فرنسا)، وبدأ أبحاثه في سبعينيات القرن الماضي على يد كل من بوتيي وگريماس، واهتم بقضايا المعنى في اللغات الطبيعية، الأمر الذي قاده إلى طرح نظرية دلالية هي نظرية الدلالة الاختلافية؛ وفي خضمها وضع أسس نظرية الدلالة التأويلية، وهي نظرية موحدة، أي أنها تلامس مستوى الكلمة والنص على حد سواء. وتعود أصول مقاربته إلى أعمال بريال وسوسير، ثم هيلمسليڤ وگريماس وكوسيريو وبوتيي. لكن هؤلاء لم يتطرقوا إلى تحليل نسقي للدلالة بمعية علوم النص. وهكذا فكتابات راستيي أسست لمبحث معرفي جديد هو "دلالة النصوص" التي أصبحت تُدرَّس في عشرات الجامعات في العالم. واعتمد الكاتب في جلِّ أعماله على مفهومي السمة الدلالية والتشاكل، وقام بإعادة تشكيل هذه المفاهيم في إطار الأشكال الدلالية التي تستند إلى فرضية الإدراك الدلالي.

أما المشروع العام لراستيي فيتمثل في طرح نظرة جديدة لعلوم الثقافة التي تسعى إلى توحيد العلوم الإنسانية والاجتماعية حول مفهوم الثقافة، مستندة في ذلك إلى الدور المركزي الذي تلعبه اللغة والسيميائيات. ورغم تخصصه في مجال الدلالة، فإن الحقول المعرفية التي يشتغل عليها الكاتب متنوعة ومتشعبة، نذكر منها الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا واللسانيات ودلالة المتون والعلوم المعرفية وقراءة المتن السوسيري وفلسفة هايدگر، وما إلى ذلك من المعارف التي تدخل في إطار العلوم الإنسانية. وتعود إصداراته الأولي إلى سنة 1971 في حقل السيميائيات، تتويجا للحلقات الدراسية التي كان

يديرها گريماس، فأصدر كتابه الأول *Idéologie et théorie des signes*، وتلاه مؤلف بعنوان *Essais de sémiotique discursive* (1974)، ثم عقد العزم على تعميق البحث في علم الدلالة بالرغم من قلة الأبحاث في هذا الميدان العصي على التقعيد والنمذجة. وتوجت مجهوداته ببحث لنيل دكتوراه الدولة سنة 1984حول التشاكل الدلالي وعنوان البحث هو *L'isotopie sémantique : du mot au texte*.

وبعد ذلك أصدر راستيي كتابه *Sémantique interprétative* (1987) الذي ترجم إلى الروسية والإسبانية، ولاقت نظريته واقتراحاته إقبالا في الأوساط الجامعية في أوروبا وأمريكا، وهذا ما يفسر الترجمات المتعددة لأعماله، إذ سيترجم مؤلفه *Sens et textualité* (1989) إلى الإنجليزية. ونظرا لارتباط الدلالة بالمعرفة والعلوم المعرفية في حقبة الثمانينيات، تبنى الكاتب فرضية الإدراك الدلالي التي تذهب إلى التمييز بين الخلفيات والأشكال الدلالية، ويعتبر كتابه *Sémantique et recherches cognitives* الصادر سنة 1991خير معبر على هذا التيار في البحث الدلالي. وفي بداية العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين، أصدر سنة2001 كتابه الموسوعي *Arts et sciences du texte* **(فنون النص وعلومه)** الذي أوضح فيه العوامل الداخلية والخارجية المساعدة على المقاربة الدلالية للنصوص بجميع أنماطها. وبعد ذلك قام بتعضيد نظريته بلسانيات المتن، الأمر الذي سمح بدراسة النصوص من خلال المتون، وعلى الخصوص المتون الرقمية، مستندا في ذلك إلى الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا المادية. واتضحت أهمية هذا المؤلف الموسوعي من خلال ترجمته إلى البلغارية والإيطالية والعربية (دار توبقال، 2010) والإسبانية.

أما المؤلفات التي صدرت تحت إشرافه، فإنها تهم مجالات متنوعة في العلوم الإنسانية، إذ ينتمي معظمها بطبيعة الحال إلى الدلالة (*Sémiotique narrative et textuelle*, 1973) والسيميائيات (*Sémantique pour l'analyse* (1994) [1] وعلوم النص (*Textes et sens*, 1996) ويتميز أيضا بمحاولة تطوير منهجية العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال ما يسميه "إبستيمولوجيا علوم الثقافة"، إذ أشرف مع زميله سيمون بوكي على إصدار مؤلف في هذا الموضوع سنة 2002 وعنوانه *Une introduction aux sciences de la culture*. وقد خصصتُ لهذا المشروع كتابا تحت عنوان **علوم الثقافة** (2017). وهناك إشارات عديدة لإبستيمولوجيا علوم الثقافة في المؤلف الذي أقدم ترجمته إلى العربية، فأطروحة الكاتب تتمثل في افتراض أن تعميق البحث في إرث سوسير يقود إلى بلورة نظرة جديدة لعلوم الثقافة.

يتميز راستيي بعقده لعدة مناظرات جمعته بثلة من اللسانيين والفلاسفة وعلماء المعرفة، وهذه المناظرات موثقة في المجلة الإلكترونية texto.net التي يديرها منذ 1996؛ وفيها يدافع عن مدرسته القاضية بارتكاز التأويل في علوم الثقافة على النصوص وليس على الجمل الفاقدة للسياق، بل إن مواقفه أثارت حفيظة بعض الجماعات المتطرفة، فقد تعرض للتهديد بالقتل إثر صدور بحثه حول الشاعر اليهودي بريمو ليفي وعنوانه *Ulysse : Auschwitz, Primo Levi, le survivant* (2005). ولم تثنه الضجة التي واكبت هذا المؤلف عن مواصلة البحث في مسألة التيارات المعادية للسامية، إذ سيتطرق في كتابه (2018) *Heidegger : Messie antisémite* إلى دراسة الدفاتر السوداء عند هايدگر موضحا بذلك النزعة المضادة للسامية عند هذا المفكر الذي طبعت أعماله الفلسفة في القرن العشرين. ومؤخرا أبدى الكاتب اهتماما متزايدا للقضايا التقنية والإشكاليات التي تطرحها النصوص الرقمية ودورها في تجديد مناهج علوم الثقافة، وتماشيا مع الفرضية القائلة إن المعنى لا يمكن دراسته إلا من خلال المتون، سيعمل على تطوير دلالة المتن في كتابه (2011) *La mesure et le grain*.

كما أثار قضية الإبداع في اللغة والأدب في كتابه (2016) *Créer : image, langage, virtuel*. وسيأتي عمله *Faire sens : de la cognition à la culture* (دار گارنيي كلاسيك، 2018) استكمالا لعمله الأول الذي درس فيه تطور الدلالة من وجهة نظر العلوم المعرفية، أي مؤلفه *Sémantique et recherches cognitives*. ويتطرق العمل الصادر سنة 2018 (*Faire*

sens...) للمقاربات الكلاسيكية التي عالجت العلامة والدلالة اللفظية ويطرح تصورا حديثا يقضي بوضع الأسس لمقاربة بديلة مفادها الاستناد إلى البراكسيولوجيا التاريخية والمقارنة لمعالجة الممارسات السيميائية الحقيقية، وذلك من أجل وصف بلورة المعنى بواسطة سلسلة من التحولات داخل النصوص وباقي الإنجازات السيميائية.

2.قراءة الإرث السوسيري

إن موضوع كتاب راستيي (2015) هو قراءة المتن السوسيري في ضوء البحث اللساني والسيميائي المعاصر. وعلى الرغم من القيمة العلمية والشهرة التي حظي بها دي سوسيرفي عدة حقول معرفية، فإنه لم يصدر قيد حياته إلا كتابين هما :

- *Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes*
- *L'emploi du génitif absolu en sanskrit*

أما مقالاته فلا تتعدي 600 صفحة، وهذا قليل بالنظر إلى 35 سنة من البحث والتدريس في الجامعة. وإذا نظرنا إلى متن الكتاب الذي لقي إقبالا كبيرا من بداية القرن العشرين إلى يومنا هذا، فإنه يتكون من مخطوطات ومحاضرات ورسائل وشذرات. والغريب في الأمر أن النظرية السوسيرية حول اللغة والعلامات لا تستند إلى كتاب محفوظ الحقوق في إحدى دور النشر، وإنما إلى مجموعة من التدوينات المعدة للدروس أو المحاضرات.

ينقسم المتن الذي عكف راستيي على دراسته إلى نوعين:

أ. التدوينات التي أنجزها طلبة سوسير، وتطرح هذه الوثائق مشكل نقل المسموع إلى المخطوط وكيفية التعامل مع الإضافات التي قدمها السامعون. وتنطبق هذه الحالة على كتاب **دروس في اللسانيات العامة؛**

ب. المخطوطات التي عثر عليها سنة 1996وتكمن أهميتها في تصحيح ما كان منتسبا إلى سوسير والتحقق من سلامة الفكر والنظرية من خلال المقارنة بالتدوينات الكامنة في الكتاب الأول.

درس راستيي الإرث العلمي السوسيري وأبدى حياله عناية خاصة تتضح من خلال المقالات والندوات التي شارك فيها في عدة عواصم أوروبية. ويفترض الكاتب أن لسانيات سوسير جديرة بالمراجعة، وهذا ما جعله يترأس معهد فرديناند دي سوسير بباريس للإشراف على بحوث قيّمة في هذا المجال. وتوجت أعماله بهذا المؤلف الذي يتطرق فيه لمشكل تحقيق كتابات سوسير وعلى الخصوص كتاب **دروس في اللسانيات العامة**، وكتاب **الجوهر المزدوج للغة** ، كما يقدم الكتاب خلاصة مجهودات جماعة من المتخصصين في فكر سوسير، وأغلبهم من فرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا واليابان. وتجدر الإشارة إلى أن للكتاب طابع لساني-فيلولوجي وفلسفي ويتكون من 7 فصول، ومقدمة وخاتمة، كما يضم ملحقا مكونا من 36 صفحة. وأثناء العرض والتنقيب عن الصحيح والخاطئ أو الشائع في فكر سوسير، يقدم الكاتب تصوره الخاص حيال مجموعة من القضايا اللسانية والفلسفية والهيرمينوطيقية والفيلولوجية، مع التركيز على فرضية القطيعة مع الأنطولوجيا ودور اللسانيات التاريخية والمقارنة في تطوير البحث اللساني والدعوة إلى نبد الصورنة في اللسانيات، ويقصد بذلك رفضه للنماذج اللسانية الصورية مثل نظرية النحو التوليدي عند شومسكي.

يتميز الكتاب بالدقة في المعلومات التاريخية المتعلقة بمسار سوسير وفكره، وبمراجعة العديد من الأفكار المسبقة حول هذا اللساني الذي احتل عمله مكانة مرموقة في جلِّ حقول العلوم الإنسانية، مثل علم النفس والنقد الأدبي والسيميائيات والأنثروبولوجيا. وتتمثل أقوى لحظات الكتاب في الدفاع عن الأطروحة التي تذهب إلى أن فكر سوسير كان متأثرا بالفلسفة الفيدية (الهندوسية).

اختار راستيي في هذا المؤلَّف طريقة عرض تجمع بين تحقيق النصوص السوسيرية والبحث المستقبلي في السيميائيات واللسانيات، وللوصول إلى هذا الهدف، عمل جاهدا على الاستفادة من نظرية سوسير لطرح مفهوم جديد للسيميائيات ولتصور اللغة. وهكذا قاده البحث الفيلولوجي والهيرمينوطيقي في إرث سوسير إلى طرق جوانب فلسفية (الفلسفة الغربية والشرقية) ودينية (آراء فلسفية ولاهوتية عند المسيحيين واليهود) وتاريخية ولغوية. وكان واضحا من أسلوب المرافعة أن راستيي يود نفض الغبار عن تركة سوسير العلمية. وما يميز الكتاب هو طابع البحث والتنقيب عن آثار الكاتب، مما يضفي عليه طابع التشويق أثناء عرضه لقصة الكتاب الشهير**"دروس في اللسانيات العامة".**

3.قصة كتاب "دروس في اللسانيات العامة"

تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه من أكثر الأعمال إثارة للجدل في القرن العشرين ويحتوي على متن اختلف في تفسيره اللسانيون وعلماء الفيلولوجيا؛ إذ إن الكتاب الذي يعتمد عليه جلُّ دارسي الإرث العلمي السوسيري لم يحرره سوسير، فقد توفي وعمره يناهز الخمسة والخمسين سنة. ومن المعلوم أن زملائه شارل بالي وألبير سيشيي هما من قاما بجمع المادة العلمية وطبع الكتاب.

أما ما يخص الكيفية التي تمت بها عملية الطبع، فيجب العودة إلى سنة 1906، حينما أسندت لسوسير مهمة تدريس مادة اللسانيات العامة، لكنه لم يكن متحمسا لهذا الدرس، لأنه لا يدخل ضمن اهتماماته الفكرية آنذاك. ونعلم أنه كان في أواخر سنة 1880على وشك التخلي عن ميدان اللسانيات لكي يتجه إلى دراسة الملحمة الجرمانية، فاستغل الفرصة لتطوير أفكار لم تكن رائجة في زمانه، وقدم لطلبته ثلاثة دروس: ألقى الدرس الأول سنة 1906-1907، والدرس الثاني سنة 1908 والثالث في الفترة الممتدة من سنة 1910إلى سنة 1911. وبعد ذلك، لم يقم بإلقاء أي درس سنة 1912، لأنه كان مريضا، وكما نعلم فقد توفي سنة 1913. أما طلبته وزملاءه، فقد انبهروا بدروس لم يألفوها، وقرروا طبعها ليستفيد منها الجميع. ولتحقيق الهدف، اتصلوا بزوجته لكي تمنحهم الإذن بطبع الكتاب.وبعد ذلك قام شارل بالي (1865-1947) وألبير سيشيي (1870-1946) بتوليف المادة الشفوية، انطلاقا من الدرس الثالث واستنادا إلى المواد الأخرى التي كانت بحوزتهم، لكنهما لم يحضرا «الدروس». ولا بد من الإشارة إلى أنهما استندا إلى تدوينات باحث ثالث هو ألبير ريدلانجي وهو أستاذ بكوليج جنيف، أما توليو دي ماورو، فقد كان له الفضل في توضيب الطبعة النقدية الصادرة سنة 1916.

وما إن صدر المؤلَّف حتى بدأت الانتقادات تنهال على أصحابه، فركز غالبية المنتقدين على الخلل الملاحظ في تنظيم فصول الكتاب وترتيبها، إذ لاحظوا أن مواده لم تكن مرتبة بصورة منطقية ولم تتبع أية منهجية. فأصبح من الضروري القيام بعمل ما لتصحيح ما ورد في الكتاب على مستوى الشكل، أما على مستوى المضمون، فإن اللسانيين قد لمسوا عدة تناقضات في الصيغة التي ظهر بها الكتاب، ولم يجرؤ أحد على إثارة الشكوك حولها، واستمر الوضع على ما هو عليه، لأن البحث الفيلولوجي ظل غائبا عن الساحة الأكاديمية. وأخذ البحث منعطفا جديدا على يد روبير گوديل الذي أنجز بحثا سنة 1957 لنيل دكتوراه الدولة وعنوانه *Les sources manuscrits du cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure*، وكان الهدف الرئيس من الأطروحة الجامعية هو توضيح ما كان غامضا ومشوشا في كتاب **دروس في اللسانيات العامة** الصادر سنة 1916. واعتمد الباحث على إعادة ترتيب عمل الناشرين، وذلك بوضع المصدر الأصلي بجانب كل فصل، وبجانب كل فقرة في النص المطبوع سلفا من قبل بالي وسيشيي؛ ثم عمد إلى دراسة مجموع المصادر المخطوطة، واستخلاص التغييرات التي تطرأ على الفكر والعبارة في حالة عدم التناسق.

وفي القاعة التي قدم فيها روبير گوديل أطروحته القيّمة، كان أحد طلبة سوسير يتتبع أطوار المناقشة، وهو إميل قسطنطين الذي حضر «الدروس» التي ألقاها سوسير. فأعجب بالأطروحة ولم يتردد في مساعدة گوديل على مواصلة أبحاثه، فأقدم على تزويده بتدويناته القيمة، وهذا ما غير من طريقة قراءة المتن السوسيري. ولم تقتصر المراجعات على هذا العمل، إذ سيقوم رودولف إنگلر، باحث سويسري، بمراجعة متن سوسير، مركزا عمله على مقارنة كتاب **دروس في اللسانيات العامة** بالمصادر المخطوطة؛ وهكذا أصدر في سنة 1968 الجزء الأول من الطبعة النقدية لكتاب **دروس في اللسانيات العامة** بفيسبادن بألمانيا ويحتوي هذا الجزء على ستة أعمدة، تُقرَأ من اليسار إلى اليمين، بحيث يوجد في العمود الأول نص سوسير (1916) ويليه أربعة أعمدة تحتوي على تدوينات المستمعين الذي حضروا «الدروس» الثلاث، وفي الأخير نجد في القائمة السادسة تدوينات تحضيرية لسوسير نفسه، لكنها قليلة. واعتبر الباحث أن ما أقدم عليه هو عبارة عن توليف وليس أطروحة مضادة للكتاب. وأصدر الجزء الثاني سنة 1970عند الناشر نفسه. ولم ينته الأمر عند هذه المرحلة، بل سيتجدد النقاش ذو الطابع الفيلولوجي إثر اكتشاف مخطوطات سوسير سنة 1996في حديقة منزله بجنيف.

4.مخطوطات 1996

ينبغي التنبيه إلى أن اللسانيات السوسيرية كانت سباقة إلى إثارة قضية الفرد والجماعة في البحث الأكاديمي. لكنها- وهذه مفارقة- أولت الأهمية القصوى للسان الجامد والعشيرة أو الجماعة واستثنت الكلام المرتبط بالفرد. وهذا أمر يثير الشك والريبة في نفس الباحثين الذين عمقوا دراساتهم في متن سوسير. وعند قراءتنا لمؤلَّف سوسير (1916)، نستغرب من طرح الجانب الفردي في اللغة واعتبار الكلام مفهوما مؤسسا للسانيات المعاصرة والتخلي عنه في سائر الفصول المكونة للكتاب. وكونت الشكوك التي حامت حول كل الثنائيات منعطفا كبيرا في تاريخ اللسانيات، ولم تفقد في المرحلة الراهنة من أهميتها، والدليل على ذلك العدد الكبير من المقالات التي أصدرها معهد فرديناند دي سوسير في مجلة *Cahiers Ferdinand de Saussure*، وهذا ما دفعني إلى ترجمة كتاب فرانسوا راستيي.

في سنة 1996، تم اكتشاف مخطوطات منسوبة إلى سوسير، وقام سيمون بوكي ورودولف إنگلر بطبع مضمونها في كتاب بعنوان *Ecrits de linguistique générale* الصادر سنة 2002 بدار النشر گاليمار. وما يمكن استخلاصه من هذا المؤلَّف هو أن بعض الفرضيات التي توجد في كتاب **دروس في اللسانيات العامة** قد خضعت لبعض التعديل، بل إن البعض منها قد تم التخلي عنه، ويتعلق الأمر بالفرضية القائلة بأن الموضوع الحقيقي والوحيد لعلم اللغة هو "اللغة التي تدرس لذاتها " وأن هدفها هو دراسة "اللسان" بمعزل عن "الكلام". أما في المؤلف الجديد، فإن سوسير يعتبر أن موضوعها **مزدوج**، لأنه يتضمن لسانيات اللسان ولسانيات الكلام. وبعد الاطلاع على النصين (1916 و2002) يحق لنا طرح أسئلة من قبيل:

أ- كيف أمكن بلورة نظرية لغوية غير مستندة إلى البعد الاجتماعي والتاريخي في اللغة، وقد لمسنا في كتاب **«الدروس»** إشارات عديدة لهذه الأبعاد؟

ب- في نظرية سوسير(2002)، الكلام مفهوم متساو مع اللسان، ولكن ما الداعي إلى التركيز على مفهوم اللسان في العمل الأول؟

ت- هل التقابل بين السانكرونيا والدياكرونيا من جهة والتقابل بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية من جهة أخرى قطعي؟ هناك مجموعة من الباحثين الذين شككوا في قطعية هذه الثنائيات، ويقدم مؤلف راستيي إشارات عديدة لهذه الإشكالات المنهجية والإبستيمولوجية.

لا يسمح هذا التقديم بطرح ومناقشة جميع الثنائيات المنهجية في الكتاب الأول، وسنكتفي بثنائية اللسان والكلام، التي كانت لها تداعيات كثيرة في مختلف الحقول المعرفية المكونة للعلوم الإنسانية.

5. تعميق البحث في إرث سوسير: ثنائية اللسان والكلام مثالا

تثير مقابلة السانكروني والدياكروني، واللسان والكلام، وثنائية اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية قراءات مختلفة، تظهر تباينا على مستوى الفهم والتفسير. ويتميز هذا الكتاب الذي قمنا بترجمته بالتركيز على الاختلافات في تأويل كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. ومن بين الأمور التي استأثرت باهتمام المتخصصين في إرث سوسير العلمي الإشكالية التي تدور حول ما إذا كانت التقابلات السالفة الذكر منهجية تدخل في إطار علوم اللغة أو مصطلحات توصيفية موضوعية تدخل في نطاق البحث الفلسفي. كما أن طبيعة الكتاب أثارت تساؤلات: هل هو كتاب في منهج البحث اللساني، أي في الإبستيمولوجيا، أم بحث في فلسفة اللغة؟ يجيب راستيي بأنه من الخطإ الإبستيمولوجي اعتبار سوسير فيلسوف لغة، ومن الأفضل قراءته في علاقته بويتني وكروزيڤسكي، على أن يقرأ في علاقته بڤتگنشتاين أو شومسكي.

صرح سوسير في الكتاب الأول بأن اللسانيات حقل مستقل عن باقي الحقول المنتمية إلى العلوم الإنسانية، وبأنها تدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها؛ وهذه هي الصيغة الفكرية التي اعتمدها جُلّ المفكرين في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الخمسينيات والستينيات، فقد اعتبروا مؤلف **دروس في اللسانيات العامة** نقطة الدخول المفضلة، بل والشبه حصرية، في عمل سوسير. ولم يقتصر هذا التوجه على اللسانيين فقط، بل امتد وبصورة أقوى، إلى المؤلفين المنتمين إلى التخصصات الأخرى، من أمثال لاكان وديريدا وليڤي-ستروس وگريماس وبارط، وهؤلاء يتمسكون بهذا المؤلَف، باعتباره مدخلا لفكره المطروح بطريقة يصعب تجاوزها.

إن القراءة المتأنية للإرث السوسيري تقتضي إبداء مجموعة من الملاحظات إن على مستوى المنهج أو على مستوى المضمون، وسنكتفي بإبراز نقطتين هامتين :

أولا: أقر سوسير بالجزء الاجتماعي في اللسان، لكنه لم يخصص بحثا أو فصلا متعلقا بهذا المحور، وخصص فصلا للسانيات اللسان ولسانيات الكلام، لكن مضمون الفصل لا يشير إلى لسانيات الكلام. فهذه الأمور وغيرها جعلت بعض المتخصصين في أعمال سوسير (جاكبسون وأريڤي وبوكي وإنگلر وراستيي) يشككون في مصداقية نقل طلبته للمحاضرات التي طبعت في الكتاب الأول (1916). ومن ناحية أخرى، اعتنى سوسيركثيرا بالكلام على مستوى الوصف، وهذا أمر غير عادي بالنسبة لمن يصرح بوضعه الثانوي، كما ركز على عدم البحث في أمور لغوية منتسبة إلى مجالين مختلفين أشد الاختلاف، وهما لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، ولهذا تعين عليه أن يسلكهما مفترقين. أما في الكتاب الثاني (2002)، فإنه يقدِّم أطروحة مناقضة لما جاء في الجملة الأخيرة من الكتاب الأول، إذ سيفترض أنه من الممكن السير فيهما معا، وسيعتبر موضوع اللسانيات مزدوجا، قائما على دراسة اللسان **و**الكلام.

ثانيا: في نظرية سوسير، اصطدم اللسانيون بمشكل التعدد اللغوي على المستوى السانكروني ومحدودية منهجية الوصف على المستوى الدياكروني. وفي هذا السياق، لاحظ بنڤنست، وهو من أهم الشارحين لنظرية سوسير، أن للسانيات موضوعا مزدوجا، فهي علم اللسان وعلم اللغات. ويركز راستيي على هذا التمييز، إذ إن اللسان الذي يعد ملكة فطرية عند الإنسان، هو خاصية كونية وثابتة، غير أن اللسان (بصيغة المفرد) ليس هو اللغات التي تتميز بالتعدد والتنوع. ففي كتاب **"الدروس"**، أعطى الناشران أهمية قصوى للسان، الموضوع المجرد والمتجانس، واعتبراه، بوصفه نسقا، الموضوع العلمي الوحيد لمجال اللسانيات. لقد أهمل الناشران في **"الدروس"** التمييز بين

اللسان واللغة الفطرية واللغات (أو الألسن). ولفهم طبيعة وأهداف الركائز التي اعتمدها سوسير في وضع أسس اللسانيات الحديثة، يجب التدقيق في هذه المصطلحات الثلاث، وهذا ما تم توضيحه في كتاب **الجوهر المزدوج للغة**.

وما يهمنا هنا هو ثنائية اللسان والكلام في كتاب **الدروس** والمصادر والأصول. ولا شك أن هذه الثنائية من أكثر الموضوعات إثارة للجدل، ولهذا أولاها راستيي عناية خاصة، نظرا لما لها من أهمية نظرية ومنهجية بالغة في قيام اللسانيات الحديثة، ولما لها من تأثير قوي في ترسيخ اللسانيات البنيوية في أوروبا.

في الكتاب الأول (1916)، نلاحظ أن الكلام موضوع ثانوي، وأن نشاط الفرد المتكلم يجب أن يخضع للبحث في مجالات غير مرتبطة باللسانيات، غير أننا في الكتاب الثاني (2002)، نكتشف التوازن المنهجي المفقود في المؤلف الأول، إذ يقول سوسير ما يلي: "تحتوي اللسانيات على شقين: الشق الأول قريب من اللسان، وهو مخزون ساكن، والآخر قريب من الكلام، وهو قوة نشيطة ومصدر حقيقي للظواهر التي تلاحظ تدريجيا في النصف الآخر من اللغة" (انظر سوسير،2002، ص 273). وهكذا أصبح الكلام معطى ديناميكيا وقوة حية داخل العشيرة اللغوية. ولما كان اللسان والكلام مختلفين، فإنه من المفروض وجود علمين مختلفين أطلق عليهما سوسير "لسانيات اللسان" و"لسانيات الكلام". وهكذا، كان لاكتشاف كتاب "الجوهر" (2002) الفضل في توضيح أن الفصل بين اللسان والكلام يعود إلى المرحلة الأولى من دروس سوسير الأولى، أي في سنة 1907.

غير أنه في كتاب الد**روس**، أقام الناشران سلمية صارمة بين اللسانيتين السالفتين، وأصبحت مسلَّمة مركزية في اللسانيات الحديثة، والحقيقة أن بالي وسيشيي هما من كانا وراء ترسيخ أهمية اللسان واعتبار الكلام ثانويا. فالعناية باللسان تعتبر بحسب مجموعة من المحققين هي زيادة من الناشرَيْن. ولهذا جاز للباحثين من أمثال ميشيل أريڤي (2007) وآخرون أن ينبهوا بأنه من الخطإ تحميل سوسير مسؤولية موقف نظري لم يصرح به في طبعة 1916. وعلى هذا الأساس، لم يعد من المجدي توجيه الانتقاد إلى لسانيات سوسير(1916) القائمة على إبعاد الكلام من حقل اللسانيات، وقد أوضحت لسانيات النصوص واللسانيات الخطابية فيما بعد دور الكلام في إنتاج النصوص. وللتذكير، فقد قدم راستيي في هذا الكتاب الحجج التي تفيد أن سوسير كان يولي عناية خاصة للسانيات النصوص.

واتضح في الكتاب الثاني الصادر سنة (2002) أن العلامة مرتبطة بالكلام وليس باللسان كما سبق عرضه في الكتاب الأول. ولفهم هذا الأمر، يتعين دراسة ثنائية اللسان والكلام في علاقتها بثنائية الدال والمدلول. والملاحظ أن ثنائية الدال والمدلول تأتي، على الأقل في العرض، سابقة على ثنائية اللسان والكلام. واستنادا إلى ما جاء في الكتاب الثاني، استنتج راستيي أن الكلام يتحكم في اللسان، وأن العلامة تكون أولا وقبل كل شيء قطعة من الكلام؛ واستدل على ذلك بكون سوسير استعمل بشكل ملحوظ عبارة **علامة كلامية** (signe de parole) وليس علامة لسانية (signe de langue). وبذلك يمكن القول إن إعادة النظر في الثنائية قامت على أطروحة الأسبقية المنهجية للكلام على اللسان.

لقد قادت بلورة ثنائية اللسان والكلام سوسير إلى تجاوز التصور القبلي للواقع المؤسس على الأنطولوجيا الأرسطية، وتعويضها بمنهجية التخلي عن الأنطولوجيا وهي المنهجية المناسبة لعلوم الثقافة. وهذا التوجه هو الذي يفسر، على وجه الاحتمال، عدم اهتمامه بالدلالة، التي كانت في القرن التاسع عشر مرتبطة بقضايا المرجع وقضايا ميتافيزيقية تبعد الباحث عن الدرس اللغوي كما هو مطروح في اللسانيات السوسيرية. أما الدلالة التي حظيت بالبحث والتقعيد، فهي دلالة العلامة غير اللغوية، التي خصص لها علما حديثا سماه "السيميولوجيا".

6.إضاءات حول الترجمة

لم تكن ترجمة عمل بهذا الحجم عملا هينا، إذ تتطلب الاطلاع على أغلب كتب ومقالات راستيي، من جهة وعلى البحوث التي تناولت بالدرس والتحليل المتن السوسيري، من جهة ثانية. فكانت المنهجية تعتمد على الشواهد أسفل الصفحة قدمنا فيها المعلومات والتوضيحات الضرورية لفهم الأفكار الواردة في النص الفرنسي، ولاستكمال المعلومات البيبليوغرافية المتعلقة بالكاتب أو بالمؤلفين المحال عليهم.

ومن المشاكل التي واجهتها الترجمة، المزاوجة بين البحث التوثيقي الفيلولوجي والبحث اللساني الأكاديمي، وكثرة الإحالات في مجال اللسانيات والفلسفة والعلوم المعرفية وفلسفة اللغة، ونهج الكاتب أسلوب التلميح، والمزج بين البحث اللساني والتفكير الفلسفي. ولتسهيل قراءة هذه الترجمة، اتبعتُ منهجية توضيحية أوجز خصائصها في الآتي:

أولا: العمل على فك أسلوب التلميح، واعتماد الأسلوب المباشر ، فاقتضت المنهجية استرجاع جمل تستند إلى الإيضاح بدل الإيحاء والتلخيص، وتقديم معلومات حول الأعمال التي أشار إليها الكاتب بإيجاز شديد، كأن يذكر المؤلِّف دون ذكر عنوان الكتاب، أوالاكتفاء بالإشارة إلى عناوين مؤلفاته ذات الطابع التخصصي مثل *Sémantique et recherches cognitives*، لذا يلاحظ القارئ أن الترجمة تحتوي على نوعين من الهوامش: هوامش المؤلِّف وهوامش المترجم التي تنتهي بكلمة "المترجم" بين قوسين، وهي هوامش مفاهيمية شارحة الغرض منها تقديم تعليقات وشروحات ضرورية لتوضيح كثير من الأفكار والمفاهيم ولتقديم ما أراه مفيدا في تيسير قراءة الكتاب؛

ثانيا: تعريب المصطلحات وتعريفها، وأقصد المصطلحات المنتمية إلى نظرية الكاتب أي "دلالة النصوص". فبالإضافة إلى فهرس المصطلحات، قدمت هوامش تعطي تعريفا مقتضبا لأهم عناصر الجهاز المفاهيمي لدلالة النصوص، مثل البراكسيولوجيا، والإشكالية المنطقية-النحوية، والتكتيك، والجدلية، والحوارية، والسمات الدلالية، والاتساق البلاغي، وعلوم الثقافة، الخ. أما المصطلحات المنتمية إلى اللسانيات (التركيب والفونيتيقا والدلالة والتداوليات) والفلسفة (قديمها وحديثها) والسيميائيات (بجميع فروعها)، فإنها تتميز بالصرامة والدقة، وكان من الواجب احترام هذه الصرامة بصوغ مصطلحات لسانية وفلسفية عربية منسجمة مع قصد الكاتب.

ثالثا: التعريف بالمؤلفين الذين أحال عليهم الكاتب، وينقسمون إلى فئتين: فئة تتكون من كتاب قدامى وأغلبهم فلاسفة إغريق من أمثال أفلاطون، وبارمنيدس، وكزينوفاكس وغيرهم، وعلماء اللاهوت المنتسبين إلى القرون الوسطى من أمثال أنسيلم وأوغوسطين وهليل الأكبر وغيرهم. والفئة الثانية تتكون من لسانيين معاصرين، يُدرّسون في الجامعات الفرنسية والألمانية والسويسرية على وجه الخصوص. كانت لأبحاث هؤلاء أثر كبير على تطوير البحث الأكاديمي بخصوص المتن السوسيري، وأخص بالذكر روبير گوديل، وأريلد أوتاكير، ولوديگ جيگور وبيتر ڤوندرلي، وسيمون بوكي، وفرانسوا راستيي، وبياتريس ترابان، وآخرون. ولم يكن بالإمكان التعريف بكل الأعلام، لأنه أحال على ما يزيد على 270 مفكر وشخصية.

رابعا: استخدمت في هذا الكتاب حروفا تراعي نطق الأصوات اللغوية التي لا تتوفر عليها العربية لكتابة أسماء الأعلام. فكتبت حرف "گ" في مقابل الحرف اللاتيني " g "، و " ڤ" في مقابل الحرف اللاتيني " v " و"پ" في مقابل "p" نظرا لكثرة الأسماء التي تحتوي على هذه الحروف. وتجدر الإشارة إلى أن كل اسم علم يأتي مكتوبا بالحروف اللاتينية أمام كتابته بالأبجدية العربية في المرة الأولى لوروده، ليتبين القارئ طريقة نطقه في لغة الأصل. غير أن بعضها يستدعي التدقيق في كتابته، بحيث إن الاسم العجمي « Sechehaye" مثلا ينطق "سيشْيي" وليس "سيشْهاي" كما لاحظت في العديد من الترجمات التي اطلعت عليها. وهناك من الأسماء ما

أجبرني على استشارة الأجانب أو المؤلِّف نفسه لكتابتها بالعربية، مثل فير (Fehr) وجيگور(Jäger) وكوسيريو (Coseriu) وشطاينطال (Steinthal) ولا فاوتشي (La Fauci) وغيرهم.

خامسا: قمتُ باسترجاع العلامات المنطقية بين الجمل والفقرات وذلك باستعمال الروابط الدلالية لإعطاء الجمل السلاسة والمزيد من الوضوح، كما قمت بالتخلي ما أمكن عن الترقيم الأصلي الذي يمنح النص الفرنسي طابعه التقريري؛ لذا اعتمدت الترجمة تعويض النقطتين بالفاصلة المنقوطة والفاصلة، مع الحرص على الاحتفاظ بجوهر المعنى ونقل قصد الكاتب.

سادسا: عمدتُ إلى عدم تقديم ترجمة عربية لعناوين المؤلفات التي لم تترجم بعد إلى العربية أو التي لا نعلم بأنها مترجمة، لذا احتفظت بالعنوان الأصلي لمعظم المؤلفات. أما الكتب التي يحيل عليها الكاتب بكثرة، فقد اعتمدت المختصرات التالية: **كتاب «الدروس»** حين ورود مؤلف سوسير (1916) في النص و*CLG* عندما يتعلق الأمر بالإحالة البيبليوغرافية، وكتاب **الجوهر** بالنسبة **للجوهر المزدوح للغة**، كما اعتمدت على المختصر اللاتيني *ELG* في النص والإحالة البيبليوغرافية، بالنسبة لكتاب *Ecrits de linguistique générale* الصادر سنة 2002.

هذه بعض الإضاءات التي تسعف القارئ في قراءة كتاب راستيي شديد التدقيق في المفاهيم والمعلومات التاريخية المرتبطة بسوسير، والنظريات والتوجهات الفلسفية والسيميائية واللسانية المعاصرة. وحاولت طيلة هذه المدة أن يكون العمل في لغة عربية سليمة تراعي دقة الفلسفة وصرامة اللسانيات وعمق المنطق السوسيري.

وأتقدم بشكري الخالص للأساتذة الذين تفضلوا بقراءة هذه الترجمة وإبداء ملاحظات قيّمة على مستوى الشكل والمضمون، وأخص بالذكر الأستاذ الباحث أحمد نصري وحسن أميلي ومصطفى عطية جمعة، واعتبر نفسي المسؤول الوحيد عن الأخطاء التي قد تظهر في هذا العمل، كما أنني ممتن لمعهد فرديناند دي سوسير بباريس الذي قدم لي الدعم الضروري لإتمام البحث البيبليوغرافي.

ادريس الخطاب

الرباط ، 23 أبريل 2020

تمهيد

مضى قرن على وفاة سوسير، فقد كانت وفاته سنة 1913، تاركا وراءه بحثا طلابيا في منتهى العبقرية، وبعض المقالات. وبعد ثلاث سنوات على رحيله، ظهر باسمه درس قام زميلان له بجمع مواده، انطلاقا من التدوينات التي كانت بحوزة الطلاب، ونتيجة لذلك منح هذا الدرس لسوسير شهرة عالمية، تعدت أصداؤها حدود اللسانيات وعلم النفس، لتصل إلى الدراسات الأدبية والأنثروبولوجيا.

ومنذ نصف قرن، سمح الصدور الجزئي للمخطوطات بتعميق المعرفة بفكره. وفي سنة 1996 على وجه التحديد، كان لاكتشاف مخطوط تم نشره سنة 2002 في كتاب بعنوان *De l'essence double du langage* (**الجوهر المزدوج للغة**)، الأثر الكبير على الانكباب الدولي على الدراسات السوسيرية. وقد هَم هذا النشاط بطبيعة الحال النشر وتأويل أعمال سوسير، كما هَم اللسانيات السوسيرية والسيميائيات أيضا.

لا ينحصر إذن هذا المؤلف في المجال التأريخي، ولكنه يصبو إلى تقديم دراسة ذات منحى مستقبلي. وإذا لم يكن هذا العمل يحط من قيمة الفيلولوجيا السوسيرية، فإنه يعمل حاليا على بلورة المقترحات التي تم اكتشافها مؤخرا، كما يروم المساهمة في إقامة توليف بين اللسانيات وعلوم الثقافة.

إن ظهور هذا الكتاب بعد قرن من وفاة سوسير لا يعني أنه يتخذ صفة التكريم، إذ كان التطور، وفي بعض الأحيان التعثر الذي عرفته اللسانيات، في غاية الأهمية، غير أن السوسيرية لم تفقد قوتها، بل ينبغي لها في الوقت الحاضر أن تستجيب للطلبات الاجتماعية الجديدة، وأن تعمل على تحدي الظواهر الجديدة التي أوضحتها لسانيات المتن.

كانت هناك سلسلة من الأسئلة وراء تأليف هذا الكتاب، ذلك أن السؤال الأول تمحور حول قراءة نصوص سوسير، وتمحور الثاني حول نظرية النصوص عنده، وبصورة ثانوية في السوسيرية. وسنقوم بتفصيل هذه المحاور في الفصلين الأول والسادس على وجه الخصوص.

ومنذ تأسيس معهد فرديناند دي سوسير قرابة خمسة عشر عاما، قمتُ بمهمة التنسيق بخصوص العديد من برامج البحث التي يقدم هذا الكتاب خلاصاتها؛ وقبل هذا العمل، نشرتُ عدة مقالات أعدتُ صياغتها هنا. ويطيب لي أن أشكر إنريك-بالون أگير (Enrique-Ballon Aguire)، وسيمون بوكي (Simon Bouquet)، وجان بول برونكار (Jean-Paul Bronkart)، وإيڤلين بوريون (Evelyne Bourion)، ويان-هو شواي (Yan-Ho Choi)، وكارين دوطوي-موجيل (Carine Duteuil-Mogel)، وكوليط فويار (Colette Feuillard)، وهرجيت سينگ جيل (Harjet Singh Gill)، وكازوهيرو ماتسوزاوا (Kazuhiro Matsuzawa)، وأريلد أوتاكير (Arild Utaker).

وأنا مدين لماري-جوزي ريشلين-بيگلان (Marie-José Reichler-Béguelin) لأنني أقحمت خِلسة في هذا الكتاب العديد من ملاحظاتها الثاقبة، كما لا أنسى الفقيد رودولف إنگلير (Rudolf Engler) ، وهو بطبيعة الحال من بين الملهمين لهذا الكتاب الذي أهديه إلى روحه.

مقدمة

مُؤسِّس غامض

هل يجب البوح بفكرنا المتسم بكثير من الحميمية؟
المخيف في الأمر أن النظرة الدقيقة لماهية
اللغة قد تقود إلى التشكيك في مستقبل اللسانيات

Ferdinand de Saussure, *ELG,* p. 87.

في القرن العشرين استمتعنا بتأسيس السيميائيات، وتعتبر أعمال بورس (Peirce) وهيلمسليف (Hjelmslev) وگريماس (Greimas) خير شاهد على هذا الإنجاز؛ وقد أخذت حركة التأسيس المسماة سيميولوجيا [2]عند سوسير صورة إحالية، لأنه اقتصر على الإشارة إليها عوض وصفها وذكر تمفصلاتها.

ويعد سوسير مؤلِفا مشهورا لكونه وضع أسس اللسانيات، ولكنه إذا كان قد جمع مواد اللسانيات التاريخية والمقارنة من أجل توطيد أركانها، فإنه لم يكن ينوي بطبيعة الحال تأسيسها، في وقت كانت قد تطورت منذ قرن من الزمن. وفي الوقت الراهن، فإن المعرفة الطلائعية لكتاباته المنشورة بعد وفاته تُمكِّن من صياغة فرضيات جديدة حول مشروعه، وحول أسباب عدم اكتماله.

كتب أحد الزملاء في ما مضى مصنفا يضم العديد من المقالات، وضع له العنوان الآتي : **"البحث عن فرديناند دي سوسير"**، وختم، وهو مستاء، بأن بحثه ظل دون جدوى. وعلى منوال العنوان البروستي- ولكن بصيغة متفائلة- نقترح هذا العنوان: **"العثور على سوسير"**، ومن الأرجح أن يكون مناسبا لهذا الكتاب؛ ثم إن ورود العنوان لا يعود إلى نصوص سوسير الهامة التي اكتشفت منذ عشرين سنة، ولكن إلى معانقة فكره مجددا، بما يمثله من أهمية بالنسبة لحاضر الأبحاث ومن توجيه جديد لمستقبل اللسانيات، ومستقبل السيميائيات على وجه العموم.

[2] . أعطى سوسير هذا الاسم للعلم الذي يدرس حياة العلامات داخل المجتمعات. وكان مصطلح« semiotics » في الماضي مستعملا في العالم الأنجلوساكسوني منذ لوك (Locke) إلى بورس، للإشارة إلى جزء من المنطق الذي كان مخصصا للعلامات. ومنذ تأسيس الجمعية الدولية للسيميائيات سنة 1969، أصبح مصطلح « sémiotique » (سيميائيات) هو المهيمن بحكم التعميم.

لا يشتهر سوسير فقط بكونه أحد مؤسسي اللسانيات الحديثة، وإنما يعتبر مؤسسا للبنيوية والسيميولوجيا والمنهج المقارن في العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ وقد تمت الإشارة إلى اسمه حتى في علم النفس من قبل جاك لاكان ومن قبل معارضيه الأكثر شراسة مثل أندري گرين (André Green) على حد سواء. غير أن كتاباته تظل قليلة التناول بالدراسة، كما يظل مشروعه الثقافي والعلمي عرضة للغموض ليس فقط نتيجة الشروط المعقدة للنشر بعد الوفاة، الناجمة أحيانا عن اليد الثانية أو الثالثة، ولكن أيضا نتيجة جملة من الأحكام المسبقة والأحكام السريعة التي أمتنعُ عن التذكير بمقتطفاتها القوية.

ولا يسعى هذا الكتاب إلى الإسهام في جعل سوسير أيقونة، ولكنه يوضح ضرورة الاهتداء إلى الأبحاث الفيلولوجية، والتحريات الهيرمينوطيقية، والتفكير اللساني القاضي باسترجاع المشروع السوسيري؛ وبطبيعة الحال، يعد بالنسبة للسانيات رهانا مستقبليا، علاوة على قدرته على وصف وفهم عمل معترف به على أنه تأسيسي.

يبدو سوسير، باعتباره عاش عزلة بفعل شخصيته المتميزة ، وكأنه اللساني الوحيد الذي عاش في الفترة ما بين 1880-1914، وظل معروفا بصورة كبيرة؛ أما الآخرون، فلا يتم وضعهم إلا في خانة تاريخ الأفكار (فمن الذي لا زال يتحدث عن ويتني (Whitney) وبواس (Boas) وميي(Meillet)؟ إنه ظلم بحق معاصريه، بما أنه كان يحتل مكانة فريدة؛ ولكن هذا الوضع مثَّل حظا سعيدا بالنسبة للسانيات التاريخية والمقارنة التي اعتبرت بأنه تم تجاوزها، وهذا ظلم في حقها.

وفي وقتنا الحالي، يعتبر سوسير، إلى جانب شومسكي، اللساني الوحيد الذي تجاوز الدائرة التخصصية لكي يمثل (بصورة ضبابية في بعض الأحيان) تخصصه أمام أعين الآخرين. ومع ذلك، يظل حتى من بين اللسانيين مفهوما بصورة سيئة، بل وغير مفهوم؛ ومن دون الادعاء بامتلاك الحقيقة بخصوص الكاتب، يحاول هذا الكتاب الإحاطة بالأسباب الكامنة وراء العديد من المغالطات، التي تصاحبه، والتي جعلته بالرغم من كل هذا ذائع الصيت.

وقد يقود كل هذا إلى اعتباره عبقريا غير معروف، وهذا صحيح من دون شك؛ والأكثر من ذلك أنه يظل عبقريا مبتذلا، إذ كان نونزيو لافاوتشي (Nunzio La Fauci) يوضح في ما مضى كيف أن فرديناند، وهو العبقري المألوف، الممثِل لنوع من الشيطنة الإبستيمولوجية، يحذره، مشخصا بذلك الضروريات الثابتة للبحث.

بدون سوسير سيكون مصير اللسانيات، من دون شك، مرتبطا بالعودة إلى الحالة التي كانت عليها قبل تأسيسها، أي عبارة عن نحو محدود، مدرسي ومتوسط المستوى؛ وسيكون أيضا مكونا من الاعتبارات المتوافق عليها حول اللغة، وهي اعتبارات منحدرة من التقليد السكولائي، وجذابة ولكنها فاقدة للقاعدة الأمبريقية (انظر الفصل السابع).

إن الاستقبال الجزئي أو غير العادل لسوسير لا يبرَّرمن لدن اللسانيين فقط بالرفاهية التي يتضمنها العديد من الحقائق؛ فعلى المستوى الإبستيمولوجي، وجدت الوضعية العادية التي طبعت القراءات التقليدية لكتاب **دروس في اللسانيات العامة** (كتاب **"الدروس"** اختصارا) صعوبة في الإمساك بالبعد التأويلي المبرر بكتاب **الجوهر المزدوج للغة** (كتاب **"الجوهر"** اختصارا). ولكونها اصطدمت بنفس المغالطات، فإن العِلم السوسيري المرتبط بالنصوص وعلم النصوص السوسيرية أصبحا يتوفران على جزء مشترك. وستكون دراسة اللسانيين لنصوص سوسير مفيدة إذا ما أقدمت على النهل من دراسات النصوص الخاصة بها.

لن أتناول هذه القضايا من وجهة نظر تاريخية، ولكنني سأستعين بالمعلومات التاريخية، سواء كانت ذات أثر رجعي أو مستقبلي، ونعني بها لسانيات المتن المبنية في تقديرنا على أبحاث اللسانيين السوسيريين من أمثال هيلمسليف وكوسيريو أو لافاوتشي، أكثر من استعانتي بأبحاث مؤرخي اللسانيات. ولا يتعلق الأمر إذن، وبصورة موازية، بسرد مغامرة هذا الكاتب وإضافة حلقات أو على الأقل أحداث، مع المجازفة بإضافة فصل حول هذه الأسطورة.

إذا قلنا بأنه لا يوجد سوسير من أجله ولذاته، فهذا أمر يظل محط نقاش إلى حين تأكيده من جديد، في حين أنه قد أصبح أيقونة[3]. وباستبعاده عن فكرة تأسيس اللسانيات الحديثة، مثلما أكد ذلك دجون لاينز(John Lyons) وآخرون، يتموضع سوسير كلية في حقل اللسانيات التاريخية والمقارنة التي كانت مثار اهتمامه، لكي يمنحها إبستيمولوجيا خاصة بها. أما إذا أقدمنا على قطع مساره عن سياقه التاريخي، فهذا أمر يقود إلى الامتناع عن إدراك أصالته، والمساهمة في تنصيبه كأيقونة. ونتذكر زمنا كانت فيه "القطيعة السوسيرية"، بوصفها صيغة في اللسانيات، قاب قوسين أو أدنى من علمنتها إزاء الفكر الصادر عن جريدة المساء الكبير (le Grand Soir).

وفي غالب الأحيان، يعرض النجاح صاحبه لضروب من المغالطات. فسوسير الرسمي يظل أيضا أسطوريا مثل سوسير المتخفي، وهو الوجه الآخر المشارك في الخطيئة. لقد بدأ الاختزال بمجموعة من التبسيطات التي همت كتاب «**الدروس**»، وهو الكتاب الذي أسهم في تعريف الجمهور به، والذي يعتبر نقطة الولوج العادية لفكره؛ واستمر الاختزال في ما يسمى البنيوية، على الأقل في صيغة جاكبسون (Jakobson) الذي منحها طابعه الخاص به من خلال مثنوية (binarisme) الفونولوجيا؛ واستحوذ عليها ليڤي-ستروس في مؤلفه *Anthropologie structurale* ، ثم ظهر بعد ذلك في حلة قللت من حمولته الإبستيمولوجية.

وعند نهاية الستينيات، فضحت "ردة فعل" تيار ما بعد البنيوية الفكر السوسيري، وذلك بمخالفة الأحكام المسبقة التي كان يسندها إلى "البنيويين". إن الرأي الرائج بين اللسانيين يحبذ فكرة أن سوسير هو من أسس اللسانيات الحديثة، وهو من قوض تطويرها عندما قام بالتشجيع الحصري للسانيات اللسان، وهي لسانيات داخلية خالصة، وحرص على تهميش الذات والتاريخ. وكان هذا الخطأ المطرد ممزوجا بأفول أطروحاته الأكثر أصالة[4].

لذا يظل قدر الفكر السوسيري فريدا من نوعه، إذ كان تجريديا ولكنه كان مفهوما بصورة خاطئة؛ وكانت الأخطاء المحيطة به بمقدار درجة جرأته، واتسم فكره بالظرفية ولكنه كان ثوريا، وصيغ على شاكلة الكثير من التيارات البحثية التي اخترقت الفكر المعاصر. ومن جهة أخرى، كان الاكتشاف الأخير للمخطوطات الجديدة فرصة للعديد من الدول لكي تقدم على إعادة قراءته، وتجديد التصور العام المتعلق بمتنه.

ولم تعد اللسانيات، بوصفها مؤشرا على الصعوبات الإبستيمولوجية، قادرة على سرد تاريخها. ففي جاللسانيات المعرفية لا يحال على سوسير إلا من قبل لانگاكير(Langacker) الذي اقترض منه رسما يعبر عن صورة ذهنية. وفي الواقع، كانت البنيوية مرتبطة باسم سوسير، غير أنه وقع خلط في هذا الشأن، بحيث كانُ يدر تحت هذا المفهوم كلا من اللسانيات البنيوية التي سادت إبان الفترة ما بين الحربين والتوزيعية الأمريكية، وبعض

---

[3] . وهذا المعنى غير بعيد عما قصده اللساني الأمريكي الذي قال لي ذات يوم: "سوسير؟ فلان صاحب العلامة؟ وقد ارتبط بمجموعة الروك Destroy-Chic magnetic filds التي سجلت أغنية "موت فرديناند دي سوسير" ضمن ألبوم 69 المعنون *Love songs* ، وباع قميصا قصيرا، باعتباره منتوجا مشتقا يخلد سوسير.

[4]. نجد عدة مقاربات دلالية تنتسب إلى النظرية السوسيرية، مع أنها تدافع عن مواقف مرتبطة بالنظرية المرجعية أو التصورية.

المظاهر الإعلامية التي كانت رائجة في ستينيات القرن الماضي[5]. إن اللعنة الشومسكية وبعدها المعرفية التي حلت بسوسير المرتبط بالبنيوية، تنتمي إلى الإستوغرافيا القطعية، بمعنى أن كل "مدرسة" جديدة تنزع الصلاحية عن المدارس الأخرى [6].

وإذا كنا في الماضي القريب نستمع إلى من يتحدث عن "عودة سوسير"[7]، فإن وضع اللسانيات كان مختلفا عن الوضع الذي كان سائدا منذ خمسين سنة، عندما كتب گريماس مؤلفه *L'actualité du Saussurisme* (1954)، كما أصدر سنة 1963 المؤلف الذي يخلد لذكرى وفاة سوسير وعنوانه *Saussure après un demi-siècle*. وفي واقع الأمر، اغتنى المتن السوسيري بمخطوطات ودفاتر طلبة مكنت من تقديم قراءات جديدة مبنية على عدة قواعد فيلولوجية[8].

درسنا هذه المخطوطات في جو من الحسرة، واعتبرناها موادا تمهيدية للولوج إلى كتاب **دروس في اللسانيات العامة**، كما لو أنه تركيب لفكر سوسير الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ومن دون إعادة تصوره انطلاقا من المخطوطات السالفة الذكر. وهكذا فإن الولوج إلى فكر كاتبنا كان متاحا ومقوضا في الآن نفسه، من خلال كتاب «**الدروس**»، المؤلَّف الذي يملك كل خصائص النسخة الشائعة [9]، بمعنى أنها نسخة ضرورية يستشهد بها في كل مكان، وليست لها أية قيمة علمية؛ ولم تساهم فقط في إهمال التطورات الإبستيمولوجية التي ابتدأ بها الدرس الثاني في جامعة جنيف، ولكنها وعلى الخصوص قللت من مساهمة الكاتب في تطوير لسانيات الكلام. ومجمل القول وبغضّ النظر عن الدراسات النادرة المنشورة حول سوسير، فإن المخطوطات هي الكتابات الوحيدة الأصلية التي نستند إليها لمباشرة العمل، أما دفاتر الطلبة وكتاب «**الدروس**» فلا تعدو أن تكون وثائق ملحقة وتكميلية[10].

---

[5]. في فرنسا وفي منتصف الستينيات، كانت المجلات الثقافية تجمع تحت اسم **البنيوية** كُتابا مثل گريماس وليڤي-ستروس وبارط (قبل انشقاقه عن التيار) الذين تبنوا، على اختلاف ميولاتهم، التيار السوسيري كما قدمه هيلمسليڤ وجاكبسون، أما الكُتاب الآخرون، من أمثال ألتوسير ولاكان، الذين لم يساهموا في مشروع السيميائيات العامة، فقد تم تبريزهم. غير أنه بعد خمس سنوات، صرحوا بأن البنيوية أصبحت متجاوزة، مستنكرين الادعاء القائل بأنها ساكنة ومجردة، وأن طبيعتها المحايثة مضادة لعلم الاجتماع، بل ومضادة للماركسية، وذلك من أجل تشجيع اللاعقلانية الصاعدة، والقوالب الفكرية الجديدة.

[6] . مثلا، اقترح ديك گيريتس (Dik Geeraerts) التحقيب الآتي: انقرضت على ما يبدو الدلالة التاريخية-الفيلولوجية حوالي سنة 1930، وهي سنة ظهور الدلالة البنيوية التي اختفت بدورها سنة 1975 ،وهي سنة ظهور الدلالة المعرفية. وهذا يفترض أن بزوغ تيار بحثي يصاحبه اختفاء ما قبله.

[7] . يستشهد بوكي في هذا الصدد بعدة مقالات، مثل مقال جان كلود ميلنر (Jean-Claude Milner) المعنون " Retour à Saussure" (1994)، وجان كلود شوڤاليي (Jean-Claude Chevalier) بمقاله "De nouveau Saussure" (1997)، وكريستيان ستيتر (Christian Stetter) بخصوص مقاله "Am Ende des Chomsky-Paradigms : zurück zu Saussure" (2001). وبحلول 1985، أصبح بالإمكان إضافة مقال كلود زيلبربرگ (Claude Zilberberg) بعنوان " Retour à Saussure".

[8]. لم تكن هذه الكتابات منشورة سنة 1965 عندما كتب گريماس *L'actualité du Saussurisme* الذي تمت إعادة طبعه في *La mode en 1830*, Paris, PUF ,2000. وكان لزاما علينا انتظار توليفات سيمون بوكي (1997) وأريلد أوتاكر (2002) لكي نقيس ونقيم حجم النظرية السوسيرية، من دون التقيد بالصورة المتعارف عليها، والمتسمة بقليل من الروتينية المجحفة والموروثة عن التقاليد الأكاديمية.

[9] . النسخة الشائعة (la vulgate) هي النسخة الشعبية التي تعد ترجمة للصيغة الأصلية (المترجم).

[10] . انظر إنگلر الذي قال : "عندما ظهرت "المصادر"، كان من الواضح والضروري الاشتغال على النصوص الأصلية" (ضمن بوكي، 2003، ص 18).

ومن دون شك، بإمكاننا تعميق تاريخ فكر سوسير ونظريته عندما ستفطن اللسانيات إلى قدرتها على الشروع في غزو جديد لتاريخها وقراءة نصوصها. ونلاحظ أن النزوع نحو التفعيل المتباطئ للأيقونة يقابله بالضرورة إعادة بدء القراءة، خاصة من لدن نقد المصادر التي لم تنشر بعد، مع العلم أن المعرفة قد تطورت منذ عشرات السنين بعد اكتشاف مخطوط كتاب اللسانيات العامة، وهو الكتاب الذي يحمل عنوان: **الجوهر المزدوج للغة**[11].

يجب بذل مجهود لكي نفهم فكرا يثير نقدا نهائيا إزاء الطوبوس الكلاسيكي المرتبط بفلسفة اللغة الغربية، إذ إن المرجع، وفلسفة الجوهر المرتبطة به، والتعريف الأنطولوجي لأقسام الكلام، ومشكل الحقيقة والذهنية، وفلسفة الثنائية، كل هذا يوجد في علاقة مقابلة مع الفكر وتعبيره، وجاذبية علم الأسباب، والتفسير الميكانيكي للأشياء، الخ.

وبغض النظر عن الفضول الذي أحدثته التيمة الرومانسية للمخطوط الذي عثر عليه، فإن نشر مائة صفحة من التدوينات المكتشفة سنة 1996 في حديقة المنزل الخاص بآل سوسير بجنيف، لا يفسر إلا جزئيا شهرة كتاب *Ecrits de linguistique générale*.[12]

وباعتبارها أمورا مفارقة للمتن الموسع وللقراءة المتأخرة، فإن النصوص المنشورة سنة 2002، ولاسيما المخطوطات الجديدة المكتشفة في الحديقة، تنتمي إلى قرننا؛ فنحن الذين يتوجب عليهم قراءتها وتأويلها وتقييم مضمونها، سواء مقارنة بتاريخ تحريرها (السنوات 1890 على وجه التقدير) أو مقارنة بالمتن السوسيري وبتاريخ النظرية السوسيرية وبمستقبل اللسانيات.

[11]. علمنا مؤخرا أن هذا الكتاب في طور الترجمة إلى اللغة العربية (المترجم).

[12] Paris, Gallimard, 2002, éd. Simon Bouquet et Rudolf Engler.
إن هذا الكتاب الذي ترجم إلى أربع عشرة لغة ستليه طبعة جديدة لكتاب «**الدروس**» الذي تم تحقيقه انطلاقا من دفاتر الطلبة.

القسم الأول

العثور على سوسير

تهم السلسلة الأولى من الأسئلة مشكل تلقي أعمال سوسير. ونطرح السؤال الآتي: لماذا لم تغير حقيقة المخطوطات المنشورة منذ الخمسينيات، والتي صاغ مقدماتها وعلق عليها كبار علماء الفيلولوجيا من أمثال گوديل (Godel) وإنگلر ودي ماورو(De Mauro) ، صورة النظرية السوسيرية، وإلى حدود التسعينيات، لم تحدث تغييرات في الفكر السوسيري المعاصر؟

لقد تمت إعادة بناء المشروع السوسيري على يد مؤلفين مرموقين مثل هيلمسليڤ، غير أن المشروع ظهر في صورة استشكالية. وكان لزاما انتظار سنة 1959، وهي السنة التي شهدت إصدار مؤلف گوديل وعنوانه *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale*، لكي نتمكن من تجاوز التناقضات الصارخة الموجودة في كتاب «**الدروس**». ونتيجة ذلك أن مشروع سوسير أصبح مفهوما. غير أنه، وكأن شيئا لم يحدث، استمر العديد من اللسانيين من اتخاذ هذا الكتاب مركز أعمال سوسير ونقطة الدخول الضرورية لهذا المتن[13].

ولتعميق البحث في الأسئلة، سندرس أولا المشاكل الفيلولوجية والهيرمينوطيقية التي يطرحها تحقيق وتأويل المتن السوسيري.

وبما أن تاريخ اللسانيات وترسيخ منحاها الإبستيمولوجي متكاملان، فإن دراسة المخطوطات السوسيرية تفترض تعميق البحث النظري وتسمح به. وسنوضح على الخصوص، من دون تفصيل المشاكل الهيرمينوطيقية المطروحة، كيف أنها تمكن من إعادة الاعتبار للأفكار المسبقة بخصوص الثنائيتين، وهما ثنائية اللسان والكلام وثنائية الدال والمدلول. وسيمكّن هذا العمل لاحقا من توضيح المنهج "المختزل" الخاص بالنظرية السوسيرية. وسنعالج فيما بعد الدراسات النصية التي قادها الكاتب لنؤكد على الرهانات المنهجية والإبستيمولوجية.

ولا نحتاج إلى الوقوف على المسلَّمة القاضية بقراءة مجموع المتن السوسيري من أجل فهم فكر كاتبنا، إذ سنشدد في هذا البحث على الطريقة التي بموجبها أوضحت الممارسة التأويلية عند سوسير نظريته اللسانية، وللإشارة فقد صاحب هذا البحث تأسيسها؛ وبربط لسانيات العلامة بلسانيات النص، سنتمكن من تصور الكيفية التي بموجبها تندمج وتعاد بلورة الإشكالية المنطقية-النحوية في الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية، بل إننا نسعى إلى طرح تصور الثنائية القائمة بين اللسان والكلام، من خلال التوسيط المكون من معايير الأساليب، والأجناس، والخطابات.

[13] . كانت الحجة التي طرحتها الندوة الدولية تحت عنوان *Saussure aujourd'hui* المنظمة سنة 1992بسريزي، من قبل ميشيل أريڤي (Michel Arrivé) وكلودين نورمان (Claudine Normand) كالآتي: "تتجسد اللسانيات، من إحدى وجهات النظر، في اسمها وفي العنوان المشهور للكتاب أي *Cours de linguistique générale*، وبدأ هذا النص الذي ظل يقرأ وتعاد قراءته يكشف عن غنى مادته"، انظر تربان (Trabant) ، 2005 ولويس سوسير، 2006.

الفصل الأول

كتابات سوسير والمشكلات الفيلولوجية

ليس لعدم فهم الكتابات الأصلية وفهم غير الأصلية أي جدوى

Friedrich Schlegel, *Philosophie de la philologie*, 1797, 46.

1. اللغزالمحيط بكتاب سوسير "دروس في اللسانيات العامة "[14]

التحريف .- صرح ناشرا ومحررا كتاب «**الدروس**»[15]، بالي (Bally) وسيشيي (Séchehaye)، بعدم العثور على ما يفيد في المخطوطات: " لم نجد شيئا، أو لنقل لم نعثر على ما هو مطابق للدفاتر الموجودة في حوزة طلبته" (1972، ص7)، ومن ثم استكانا إلى "استحالة استعمالها" (ص8). وبما أنهما لم يحضرا دروس اللسانيات العامة "نظرا للالتزامات المهنية" (ص8)، فقد قاما بتحرير الدرس الثالث، مستعينين بدفاتر الطلبة، وبنهج طريقة "إعادة التشكيل"، بل و"إعادة الإبداع". غير أن بالي وسيشيي لم يحذفا فقط نقطا مهمة من الدرس الثالث، بل أضافا فقرات من نسج خيالهما، مما تسبب في خلط مربك، نورد في شأنه بعض الأمثلة:

-أولا: يكمن الخلط المعروف في الجملة المزيفة التي ينتهي بها كتاب سوسير، إذ تعتبر الصيغة القائلة بـ "دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها" صنيعة بوب (Bopp) ولا علاقة لها بسوسير. ويعود أصل هذه العبارة الشهيرة التي كثيرا ما رددها بالي إلى النحو المقارن الذي أرسى بوب (1833) قواعده. وتبدو هذه الصيغة مناقضة لفكر سوسير الذي ركز في دروسه كما في كتاباته المخطوطة على الثنائية الصلبة بين اللسان والكلام، حيث يتعذر وصف المفهوم الأول دون الإشارة إلى الثاني؛ وأكسبته هذه الصيغة التي وضعها في آخر صفحات الكتاب تميزا غير مستحق، وحددت نمط القراءة. ونتيجة لذلك، منح هذا التصرف المصداقية للحكم المسبق العادي والقائل إن سوسير، بوصفه لسانيا، ركز على اللسان وأهمل الكلام.

- ثانيا: وبصورة موازية، جرى تقديم الكلام في كتاب «**الدروس**» على أنه موضوع ثانوي، غير أن الكلام يظل متساويا مع اللسان عند سوسير؛ وفي إمكانه، بهذه المناسبة، أن يصبح العامل الحاسم في الثنائية. وقال سوسير في

---

[14] . وعنوانه بالفرنسية *Cours de linguistique générale* ويحيل عليه الكاتب، من باب الاختصار، بالحروف اللاتينية *CLG* (المترجم).

[15] . كتاب «**الدروس**» صيغة عربية مختصرة للعنوان سالف الذكر لفرديناند دي سوسير، والصادر سنة 1916. وترجمة cours بالجمع هي " دروس " وليس "محاضرات"، فلو كان الناشران يريدان الحديث عن المحاضرات لأشارا إلى ذلك بكلمة « conférences » (المترجم).

خطابه بمناسبة إنشاء كرسي جامعي على شرف بالي، وهو ما لا يمكنه إنكاره بطبيعة الحال، ما يلي: "تحتوي اللسانيات على قسمين: أولهما قريب جدا من اللسان، وهو مخزون ساكن، وثانيهما، قريب جدا من الكلام، و**يعتبر قوة نشيطة ومنبعا حقيقيا للظواهر التي تلاحظ لاحقا بصفة تدريجية في النصف الآخر المُكون للغة**. وإذا أخذنا بعين الاعتبار القسمين معا، فإن ذلك لن يعتبر استكثارا في حق اللغة (*ELG*، ص273، التسويد من عندنا).

- ثالثا: عندما كتب الناشرون بأن "لفظة mouton الفرنسية تشير إلى المعنى نفسه الموجود في لفظة sheep لة الإنجليزية، ولكنهما لا يملكان القيمة نفسها"(*CLG*, p.160)، فقد أجازوا بذلك فكرة التمييز بين الدلالة اللفظية المرجعية (دلالة الإشارة) والقيمة، على الرغم من رفض سوسير الصريح للتصور المرجعي المرتبط بالدلا اللفظية. وقد لطَّفت هذه الزيادة المقصودة، وغير المشار إليها بأنها كذلك، من الموقف السوسيري، كما أدت إلى إحداث تشويش على الفكر. وتجدر الإشارة إلى أن الزيادة في النص الأصلي كانت المصدر الذي أتاح بلورة دلالة مرجعية "سوسيرية" غريبة.

- رابعا: إن مصدر نموذج التواصل (*CLG*, p.27) الذي تم تقديمه في شكل رسم حول دائرة الكلام، أمر مؤكد، ولكن وقع تغييره، لأن الرسم الأولي للطلبة لا يظهر رابطا بين الأذن والدماغ[16]. أما الفقرة اللاحقة، والتي تشغل ثلثي الصفحة 28، فمصدرها غير معروف، لأن التعابير التي تحيل على الفيزيولوجيا والتي لم تكن مدعمة بالأمثلة، لا تمت بصلة إلى سوسير، ثم إنها تعكس حقيقة التزييف. ومع ذلك، مثلت هذه الفقرة الأساس الذي أتاح بلورة كثير من النظريات ذات التوجه التلفظي والمعرفي.

وهكذا،هناك فقرات أساسية في كتاب «**الدروس**» لا وجود لها في دفاتر الطلبة، ولا نظير لها في مخطوطات سوسير؛ ومن ثم، فهي صنيعة الناشرين الذين حرسوا على الإشارة إليها كما هي، وهذا أمر مناف للأخلاقيات الأولية. وبناء عليه، نفهم إذن مقولة جاكبسون في إحدى محاضراتة بالكوليج دو فرانس، ومفادها أن **دروس في اللسانيات العامة** هو عبارة عن كتاب وقع تحريفه (انظر فير (Fehr)،2000، ص18).

ولم تؤثر التلاعبات المطبعية التي ظهرت بعد وفاة سوسير في سمعة المؤلفين، إذ يتمتع بالي وسيشيي بالمصداقية الأكاديمية المفترضة؛ وتبرز فرضية إضافتهما فقرات من نسج خياليهما، دون عناء الإشارة إلى ذلك، أن مفهوم الأصالة الفيلولوجي أصبح غريبا عندهما؛ وبهذا أحدثا قطيعة بين اللسانيات المعاصرة والمستلزمات الفيلولوجية، في وقت كانا يؤلفان فيه الكتاب الذي أصبح فيما بعد أساس اللسانيات المعاصرة. وتفسر هذه القطيعة المفتقرة إلى التبريرات مدى استخفاف مجموعة من اللسانيين بالمتن السوسيري.

ودون الإطالة في مسألة تركيب كتاب «**الدروس**»، لم تفت بالي وسيشيي الإشارة إلى الثغرات دون التدقيق في إمكانية تأثيرها على الدرس الثالث، أو على الفكر السوسيري عامة. لقد أغدقا كثيرا من المديح على سوسير، لكنه مديح ممزوج بالغدر الخفي؛ وفي هذا السياق، اعتقدا أن الكتاب يحوي "إشارة طفيفة إلى الدلالة"، وأبديا أسفهما على"غياب لسانيات الكلام" (مع أنها موجودة في دفاتر الطلبة وحصل تطويرها في المخطوطات- ولكن بالي أبدى تحفظا في شأن تخصصه في هذا الميدان). وفي نهاية المطاف، عرَّفا الفكر السوسيري بأنه "نسق اللسانيات الساكنة" (ص 10)، في حين أنه مبني على أساس التفكير في موضوع التحول الدائم لكل مظاهر اللغات على مدار الزمن (انظر شواي، 2002).

[16] . ومع ذلك، فإن الرسم الموجود في كتاب «**الدروس**» قد استنسخ بوصفه طبعة نهائية (انظر مثلا نورمان ، 2000، ص161).

وفي رسالة لم تنشر إلا سنة 2002، خلص ريدلانجي (Riedlinger) الذي مثلت تدويناته المصدر الرئيس لبالي وسيشيي، إلى ما يلي:" لقد حرَّف بالي اللسانيات العامة" (بوكي، 2006، ص1043). ونأسف على عدم احتفاظ ناشري كتاب «**الدروس**» بالعرض الإبستيمولوجي المتعلق بحالة اللسانيات، مع العلم أن هذا العرض يقدم توضيحات عن مشروع سوسير. وتقود «الدروس»، منزوعة السياق، والمفتقرة إلى المقدمات الضرورية والمحيطة برهاناتها، إلى نقاشات فارغة.

2. بحث حول المحاكمات

-محاكمة خاطئة- سطر بالي وسيشيي في التمهيد كما في منهجية النشر، برنامج محاكمات مستقبلية خاطئة، فارتكزت المرافعة على أربعة محاور:

(أ) يُفترض أن يكون كتاب «**الدروس**» المصدر الوحيد القابل فعليا للنشر، في حين وقع إهمال للمصادر الأخرى[17].

(ب) تسنَد إلى سوسير نظرية لغوية مجردة، مثالية و"ساكنة"[18].

(ج) لم يتوقف الباحثون عن **تجاوز** هذه النظرية التي أصبحت مختصرة بفعل ظهور نظريات الكلام "الديناميكية"، لأنها مرتبطة بالمتكلمين وبالحياة الاجتماعية[19].

(د) يقدم بعض اللسانيين أنفسهم في مقام المكمِلين الأصليين لمشروع سوسير ويحاولون التباهي بحظوته، وذلك بالتقليل من شأن أعماله.

مثلا، يوصف سوسير جزافا على هذه الشاكلة: "إنه أول من أعطى للسانيات **موضوعها الدقيق**، ألا وهو اللسان (مقابل الكلام)، ومنحها إطارا فضائيا وزمنيا يدرس فيه اللسان بصرامة، وهذا الإطار هو السانكرونيا" (نورمان، 2000، ظهر الغلاف). غير أن النحو في التقليد الألفي (منذ تقسيم المعارف إلى تخصصات، كما هو موضح عند دوني لوطراس (Denys le Thrace)، كان يدرس اللغة في شكلها السانكروني؛ وفي المقابل، حين كانت اللسانيات التاريخية والمقارنة في طور التكوين خلال القرن التاسع عشر، كانت مواضيعها الدقيقة هي اللغات (وليس اللسان). وللتذكير، فإن اللغات كانت تدرس من زاوية التنوع المكاني والزماني، مع أخذ إشكالية العلاقة المفصلية بين السانكرونيا والدياكرونيا بعين الاعتبار، بغية استرجاع البعد التاريخي الذي لم يحظ إلى حد الآن ببرنامج علمي خاص به. وفي هذا السياق، كان سوسير ينوي القيام بالتأسيس الإبستيمولوجي لهذا البرنامج.

---

[17] . في المحاضرة الافتتاحية الخاصة بذكرى تخليد نصف قرن على وفاة سوسير، أحال بنفنست (Benveniste) على مؤلف گوديل، وعنوانه « *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale* » ولكن بغية إضافة ملاحظة سريعة، بخصوص دراسة المتن السوسيري وكتب ما يلي: "هذا غير مطابق لما نعتقده" *Eléments de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 1966, p.32.

[18] . وهكذا، كتب فوكس ولوگوفيك (Fuchs et Le Goffic) بأن سوسير كان يود "فيما يتعلق بموضوع الدراسة، منح اللسانيات شفرة مثالية، ومحايدة، تصبح فيها العلاقة بالواقع علاقة مستشكلة، ومن جهة أخرى، لا يتم تصور علاقة المتكلمين باللغة إلا من الزاوية الفردية [...]. ومن هذا المنظور، فإن الخاصية العلمية للإضافة السوسيرية مشكوك في أمرها" (1992، ص17؛ في النص الأصلي، كُتبت كلمة "**مثالي**" بالحرف الثخين.

[19] . أحال لويس سوسير على بنفنست الذي "أعطى تفسيرا بنيويا للظواهر المتعلقة بالكلام، سالكا هنا أيضا مسارا مناقضا للمعتقد السوسيري الذي يؤكد على أولوية اللسان، وهو نسق مجرد مكون من الترابطات الداخلية" (مقال بنفنست، *Dictionnaire des sciences sociales*, Paris, PUF, 2006, pp. 84-85).

كان المديح المزيف لشخص سوسير مصحوبا بنقد لم يكن أقل تزييفا. وفي سنة 1975، توصل ل.ج. كالفي (L.J. Calvet) في كتابه **مع وضد سوسير، من أجل اللسانيات الاجتماعية**[20] إلى ما يفيد بأن "الحدود المفروضة على اللغة من قبل اللسانيات السوسيرية مزدوجة [...]، إذ تكمن في رفض اللسانيات "الخارجية" واستكانة اللسانيات الداخلية إلى نموذج فقير (ص79). وبعد ذلك، في ملحق الطبعة المعادة **لكتاب «الدروس»** وعنوانها **"قراءة سوسير اليوم"**، نراه ينتقد "اللسانيات التي ولدت مع سوسير جملة وتفصيلا، رافضا على الأقل عنصرين أساسيين في التواصل [...] هما **الفرد والمجتمع** (1985، ص512)[21]. ولم يبق لنا والحالة هذه سوى إبداء الحسرة على فشل النظرية السوسيرية: "في اللسانيات [...] لم تستطع النظرية المفعمة بالقيود تفادي العقم" (ميلنر 1994، ضمن نورمان، 2000، ص158).

واعتبارا لما سبق، صاغت الفرويدية-الماركسية الألتوسيرية في فرنسا على الأقل في بداية السبعينيات، عناصر الاتهام ضد سوسير، زاعمة أنه أهمل المجتمع والمتكلم والتاريخ، وهو التقسيم الثلاثي المتعالي للمعارف في هذا التيار الفلسفي الذي هيمن وقتئذ في الأوساط اللسانية الفرنسية، كما توضحه استشهادات الباحثين المذكورين أعلاه؛ بمعنى أنه كان من الواجب إزاحة لسانيات الكلام واللسانيات الدياكرونية عن فكر سوسير، وفي الوقت نفسه تكرار الحركات التي تسببت فيما مضى في سوء استقبال أعماله الفكرية في الاتحاد السوفياتي.

ومع ذلك، ظلت المحاكمة دون موضوع ولم تحتفظ إلا بالإدانة، وهذا ما يستشف مما كتبه سوسير: " يتمثل الغزو إبان السنين الأخيرة في وضع كل ما يمت إلى اللغة (le langage) واللسان (la langue) بصلة في مكانه الحقيقي، وفي المتكلم حصريا، سواء باعتباره كائنا بشريا أو اجتماعيا" (كتاب **«الدروس»**، ص130 ، وثائق جديدة).

ومن جهة أخرى، فإن وضع رابط بين الفردي والاجتماعي قد مثل إحدى الإضافات التي يتميز بها التفكير السوسيري، بما في ذلك الدرس الثالث الذي كون المادة الأساسية للكتاب [أي كتاب **«الدروس»**]؛ ومثال ذلك ما ورد في النص الآتي: "يبقى[...] أن نهتم بالفردي [...] . وينبغي النظر إلى مسألة اللعب باللغة عند الفرد. وُتظِهر عملية تنفيذ الإنتاج الجماعي من قبل الفرد [...] خفايا الأمور، والميكانيزم الفردي الذي لا يمكنه، في الأخير بطريقة أو بأخرى، أن لا ينعكس على المنتوج العام، غير أنه لا ينبغي خلطه من حيث الدراسة مع المنتوج العام" (Engler, éd. *CLG*, I, 1.515.429.5 Cours III, Constantin). ومع ذلك، فإن سوسير لا يقيم مقابلة بين الفردي والاجتماعي، وهما المكونان للثنائية الأساسية الثانية؛ إذ يسلم بأن " اللسان واقع اجتماعي[...] ولا يعتبر الإنسان مكتملا إلا نتيجة للاقتراض من محيطه"(*CLG*, p.146).

وتتطلب قراءة مؤلف يتسم بوضع نصي غير متجانس تفكيرا مزدوجا، قائما على البحث الفيلولوجي والهيرمينوطيقي. وهكذا ضاعف الاستخفاف الفيلولوجي من قبل ناشري الكتاب من حدة الصعوبات الهيرمينوطيقية التي تواجهنا عند قراءة سوسير، وسنحاول إعطاء توضيحات لقياس هذه الصعوبات.

---

[20] العنوان الأصلي هو *Pour et contre Saussure, pour une linguistique sociale ,* Payot, (1975)

[21] . بعد التمهيد المغرض، نصادف إذن كتاب **«الدروس»** وقد لفق له ملحق قاتل. فعبارة au moins (على الأقل) تطفح بالبلاغة المستعملة في مجال القضاء، وأكملت الرقابة عبارة "رافضا" (refoulant) المرتبطة بعلم النفس. انظر أيضا ريجين روبان (Régine Robin) التي كتبت ما يلي: " تسببت الثنائية السوسيرية في عزل المتكلم" (1979، ص70، ضمن فير، 2000، ص148). بل إن لوترنجي (Lotringer) اتهم سوسير بالقمع حين قال: "تخفي المزاوجة بين المصطلحات بصورة معيبة رسما ينم عن القمع. ومن سلبيات النزعة الثنائية أنها ترفض إحدى المصطلحات المتقابلة خارج العلم، ذلك أن النسق يطرد التحول، واللغة تُسكت الكلام، والعلامة تزيح المرجع" (1974، ص91).

عملية تحقيق المتن-. وبغض النظر عن الكتابات المنشورة من قبل سوسير، لم ينشر من متونه الأصلية سوى الثلث تقريبا، وقد ظلت غير متاحة للجميع، بخلاف المتون الثانوية (دفاتر الطلبة)، ومتون الدرجة الثالثة (**«الدروس»**).

ونعثر من بين المخطوطات، بطبيعة الحال، على عدد كبير من الأنواع، وعلى عدة مسودات مسترسلة شبه نهائية تحتوي على تصاميم وهوامش مختلفة. وينبغي التمييز داخل المخطوطات بين النص الكامل، والمدمجات، والفقرات المشطب عليها، والكلمات، والمركبات غير المكتوبة والقابلة للتصويب[22]. ويصبح وضع نسخة رقمية كاملة على الويب أمرا ضروريا.

سُلَّمية المصادر-. تظل دفاتر الطلبة أكثر مصداقية من كتاب **«الدروس»** عندما تُدرس من وجهة نظر فيلولوجية. وبالمناسبة، كان ميي يود نشر كتاب روگار (Regard)، لولا أن بالي أثنى عزمه عن تحقيق ذلك. والمثير للانتباه أن كلا من بالي وسيشيي لم يكتب لهما حضور دروس سوسير في اللسانيات العامة. وتطرح مفارقات المتن السوسيري على هذا النحو، إذ من الصعب فك رموز الكتابات الأصلية وتأويلها، وغالبا ما يطرح تأريخها ووضعها إشكالا؛ أما الدفاتر الموجودة بحوزتنا، فإن محتوياتها متجانسة وعالية الجودة، لكنها لا تعكس سوى الجزء المحدود من فكر سوسير.

ومن وجهة نظر فيلولوجية، يتفوق معيار الأصالة على المعايير الأخرى، ويقود بالتالي إلى قلب السلمية الجاري بها العمل، وذلك بالتمييز بين مصدرين أولين، وآخر ثانوي، ثم مصدر من الدرجة الثالثة (وهو كتاب **«الدروس»**)؛ وعلى هذا الأساس، يمكن تقديم السلَّمية كما يلي:

الأعمال المنشورة >المخطوطات > دفاتر الطلبة >كتاب «الدروس»

إن سمة النقص في المخطوطات ودفاتر الطلبة ليست لها صفة البطلان، بما أن الأمر يعتبر عاديا في هذه الأنواع. وللتعرف على مؤلِف ما يُفضَّل المخطوط الناقص على الوثيقة المزيفة والكاملة[23].

ومنذ وقت طويل، كان مؤلف **دروس في اللسانيات العامة** نقطة الدخول المفضلة، بل والشبه حصرية، في عمل سوسير، بالنسبة للسانيين أولا، ولكن، وبصورة أقوى، بالنسبة للمؤلفين المنتمين إلى التخصصات الأخرى، من أمثال لاكان وديريدا وليڤي- ستروس. ويتمسك هؤلاء جميعهم تقريبا بهذا المؤلَف، باعتباره مدخلا لفكره المطروح بطريقة يصعب تجاوزها. وتجدر الإشارة إلى أن مؤلفات سوسير المكتوبة بخط اليد، مثل *Mémoire sur le système primitif des voyelles indo-européennes* (1878) أو مصنف الدراسات التي صدرت بعد وفاته والمنشور سنة 1922، لم تكن تحظى بمجرد الإشارة إليها[24]. وإذا كان للبحث الأول [**الرسالة الجامعية**]أهمية تاريخية في أوساط اللسانيات الهند-أوروبية، فإن مصنف الكتابات قد نشر بعد وفاته، أما دكتوراه، التي كانت قليلة التداول، فإن أهميتها قد تقلصت بصورة لافتة للنظر.

---

[22] . في غياب الحواشي النقدية والتصويبات، وبالنظر إلى عدم الإشارة إلى المدمجات والفقرات المشطب عليها، فإن الطبعة النافعة لل**كتابات** [أي مؤلف **كتابات في اللسانيات العامة**] التي أصدرها بوكي وإنگلر لا تستجيب للمستلزمات النقدية، على الرغم من كونها تساهم في تبريرها.

[23]. وهكذا لا نستسيغ جيدا دعابة ترابان (Trabant) عندما تحدث عن "الخاصية الطفيلية " في كتابات "سوسير الحقيقي" (2005، ص117).

[24]. استنادا إلى القياسات البيبليومترية التي قمت بها، أحيلَ على كتاب **«الدروس»** 160 مرة مقارنة مع كتاب **"البحث".**

وفي الأخير، فإن التناقض الظاهر بين كتاب **"البحث الأول"**من جهة، وكتاب «**الدروس**» من جهة ثانية، يستحق توجيه الانتباه إليه. وللتذكير، فإن رسالة سوسير الجامعية عمل عبقري، جد متخصص (وهو أول دراسة حول مورفو-فونولوجيا اللغات الهند- أوروبية، في الإطار الإجمالي والوظيفي المرتكز على المعنى، وفي الإطار الاختلافي- الذي يتم فيه تعريف الفونيمات بالنفي-). أما كتاب «الدروس»، فيعتبر نصا تقديميا قام بتأليفه آخرون ، بغية نشره بعد وفاة الكاتب.

التحدي-. اكتُشف سنة 1996 مخطوط لمؤلَف غير مكتمل، غير أن المستوى المقبول للمحتوى أفضى إلى نشره سنة 2002 تحت عنوان **الجوهر المزدوج للغة**. ويضطلع هذا التأليف بصياغة برنامج اللسانيات العامة، انطلاقا من تدوينات الطلبة التي جمعها كل من بالي وسيشيي في كتاب «**الدروس**»، والملاحظ أن هذه التدوينات لا تعكس اللسانيات العامة إلا بصورة جزئية ومشوهة.

ويبدو أن هذا الاكتشاف جاء في الوقت المناسب، نظرا للضعف الذي لحق بالنحو الكلي وخصوصا نحو شومسكي، ولوجود حاجة اجتماعية إلى تطوير السيميائيات، استجابة للطلبات الخاصة بلسانيات المتن المتعددة الوسائط. ونتيجة لذلك، أصبح سوسير والسوسيرية موضع أبحاث جديدة في تسعينيات القرن العشرين، والدليل على ذلك إصدار ثلاث توليفات هامة تقدم نظرة عامة عن المشروع السوسيري، هي توليفات بوكي (1997)، وفير (2001)، وأوتاكر (2002)، وقد حررت في وقت لم يكن كُتابها على علم بوجود المخطوطات الجديدة. ومن حسنات هذا الاكتشاف المفاجئ تحفيز إعادة النشر على المستوى الدولي (تُرجم كتاب *Ecrits de linguistique générale* إلى أربع عشرة لغة إلى حدود اليوم) وتقديم تأويلات جديدة للفكر السوسيري.

وبطبيعة الحال، طرح نشر هذه المخطوطات مشاكل فيلولوجية كثيرة، لم تقدم بشأنها حلول إلى يومنا هذا. وفي هذا السياق، عرفت طبعة گاليمار سنة 2002 لصاحبيها رودولف إنگلر وسيمون بوكي ، نجاحا مستحقا، ولم تدَّع هذه الطبعة تقديم عمل نقدي، لأنها جاءت في شكل مصنف كتابات حول اللسانيات العامة، يتبوأ فيها كتاب **"الجوهر"** مكانة أساسية؛ غير أن العمل يضم أيضا بعض الكتابات التي نشرت متفرقة من قبل، مثل **"الملحوظة حول الخطاب"**. ويبدو أن لهذا الاختيار مشروعيته، لكن عليه تحمل مسؤولية النتائج، لأنه اكتفى بالمخطوطات المحفوظة في الخزانة العمومية بجنيف. وبالفعل، لا نعثر في الطبعة المذكورة على فقرات اللسانيات العامة الموجودة في مخطوطات هارفارد التي نشرها هيرمان باري مجزأة. وفي الأخير، تظل كثير من الدراسات المتعلقة باللسانيات العامة مشتتة بين مخطوطات اللسانيات الوصفية، وفي اللسانيات السنسكريتية والقوطية على وجه التحديد، والتي لم يقع جردها بعد.

وفيما يتعلق بمؤلف **الجوهر المزدوج للغة**، فإن حقبة الجزء الثاني من تسعينيات القرن التاسع عشر تظل مقبولة على العموم. وفي المقابل، لم يتم الاحتفاظ برتبة الوثائق التي عثر عليها؛ ذلك أن رودولف إنگلرصنفها ورتبها قبل إيداعها في الخزانة العمومية بجنيف، وكانت عناوين الأقسام المطابقة لكثير من الأظرفة مكتوبة بخط يده؛ وحتى العنوان اختاره الناشرون، من بين عدة عناوين محتملة، كان سوسير قد استعملها مثل *Sciences du langage* أو *De l'essence double du langage*. غير أن التعبير الفرنسي الذي يستعمل الحرف De قبل الاسم في العنوان (De l'essence) يشير إلى نوع الكتابة، بمعنى أنه يشير إلى الدراسة الأكاديمية ذات المصداقية، ويلاحظ هذا الأمر في عدة كتابات منذ أرسطو في كتابه *De Anima* وصولا إلى گريماس في كتابه *Du sens*. ونأسف

لكون طبعة گاليمار لم تقم بإعادة إقحام النص الكامل (نسجل غياب سلسلة كبيرة من الوريقات دون معرفة السبب)[25].

ومن جهة أخرى، يظل وضع النص مثار نقاش بالنسبة للفرنسية أحيانا، وفي غالب الأحيان بالنسبة للسنسكريتية المشكوك في نَسخ أصواتها. وعلى عكس الطبعات العلمية للمخطوطات، لا تشير طبعة گاليمار إلى إعادة الصياغة، ولا إلى المدمجات والسطور المشطب عليها. وتكتسي بعض هذه العناصر المحفوظة في الطبعة الإيطالية التي أشرف عليها دي ماورو أهمية كبيرة. ويحفز هذا الاختيار المطبعي بطبيعة الحال على القراءة الجارية، ولكنه يعطي الانطباع للعين بأن النص شبه نهائي، وهو الأمر الذي تنكره دراسة المصادر.

وفي واقع الأمر، هيأ رودولف إنگلر نسخة مطابقة لنص المخطوط، تتوفر فيها جميع خصائص المخطوطات، من حيث السطور وإخراج الصفحات. غير أن وفاته حالت دون وضع تقديم للطبعة النهائية، على الرغم من قيامي شخصيا بوضع هذا التدوين على الويب[26]؛ وكان علينا انتظار خمسة عشر عاما لكي تظهر طبعة نقدية في سنة 2011 لصاحبها روني أماكير (René Amaker)[27]. والملاحظ أن الطبعتين مختلفتان من حيث التصميم، ولكنهما متكاملتان. ويساعد غياب الهوامش ومسح التعديلات في الطبعة الأولى على منح النص الطاقة الراديكالية والاقتضاب الفكري؛ وعلاوة على ذلك، تصيب هذه العناصر القارئ بالذهول، لأن المفاجأة، كما نعلم، هي المحرك الأول للتأويلات الخلاقة. وفي الطبعة الثانية، تؤدي التفاصيل الأكثر دقة إلى التفكير في نوعية النص النظري، وتستدعي القراءة الموسوعية.

لن نطيل في مناقشة الآراء المتضاربة بين الأورثودوكسيين ممن يتمسكون بكتاب «**الدروس**»، والمؤيدين "للسوسيرية الجديدة"، لذا نفضل هنا قراءة كتاب " **الجوهر**"، بهدف المساهمة في إعادة قراءة مجموع المتن السوسيري.

يقدم كتاب "**الجوهر**" في الواقع تحديا ذي ثلاثة أبعاد، أولها البعد **الفيلولوجي**، وتكمن أهميته في كون اللسانيات ابتعدت كثيرا عن الفيلولوجيا؛ وثانيها **البعد الهيرمينوطيقي** الذي يفرض نفسه،لأن الإشكالية المنطقية-النحوية- تظل مهيمنة في الحقل اللساني؛ وثالثها **البعد الإبستيمولوجي** الذي برز في وقت ما زلنا نشهد فيه ارتباط النظريات المسيطرة على الساحة اللسانية بالوضعية المنطقية، وعلى الخصوص بالثنائية المعرفية الرابطة بين الفكر واللغة، وبالثلاثي الرابط بين النحو والدلالة والتداوليات؛ وعلى النقيض من هذا التوجه، لا يطرح سوسير خطابا إبستيمولوجيا، ولكنه يعتمد خطابا معرفيا ومنهجيا.

---

[25] . لم تدون الصفحات 201-215، 217-237، 265-275 الموجودة في ملف *Science du langage*، كما لم يشر إليها في **كتابات في اللسانيات العامة** (انظر Matsuzawa,2012, p. 42, n. 4).

[26]. سوسير، ف. دو (2004) ,*De l'essence double du langage*، تدوينة توضيحية مكتوبة انطلاقا من مخطوط موضوع في مكتبة جنيف سنة 1996 وقد نشرها ر.إنگلر، انظر
Texto ! [en ligne], URL :http://www.revue-texto.net /index.php ?id=1749

[27]. Saussure, F. de (2011), *Science du langage. De la double essence du langage et autres documents du ms* BGE Arch. *De Saussure* 372. طبعة جزئية لمؤلَف **كتابات في اللسانيات العامة**، ولكنها مزيدة ومنقحة ، وقد نشرها ر. أماكير تحت عنوان
Publications du Cercle Ferdinand de Saussure VII, Genève, Droz.

الفصل الثاني

تأويل سوسير:المشكلات الهيرمينوطيقية

يظل سوسير مؤلفا أسطوريا. وتحتوي أسطورته، مثل كل الأساطير، على قراءات مختلفة وتأويلات متباينة. إن تأويل كتاباته التي ظهرت بعد وفاته تفترض طرح **هيرمينوطيقا المخطط الإجمالي للمخطوطات**، إذ ينبغي دراسة نقط الحالات التسلسلية لنفس النصوص على كامل امتدادها مثل ما هو ملاحظ عند بورس، ولكن يجب دراسة المكتوب الذي يعادل حجم الفقرة، والذي غالبا ما يكون معزولا.

وفي مقابل مفهوم قبل-النص (avant-texte)، المقترح سابقا في علم الوراثة الأدبية[28] التي تفترض فلسفة الغائية، نود تعويضه بمفهوم النص الداخلي (intertexte) (انظر الكاتب، 1997)؛ وهنا تبرز وظيفة المسودات بوصفها متنا، وبوصفها "مادة" مكوَّنة من حالات محتملة للنظرية. وفي غياب نص نهائي يسمح بترتيب المسودات ووضعها في الأفق المستقبلي، لا يمكن لكتاب **دروس في اللسانيات العامة** أن يتحمل هذا الوضع (تكتسي هذه الحالات المحتملة أهمية متساوية) ويمكن أن تعتبر نتيجة معلقة للنظرية السوسيرية.

وفي واقع الأمر ، نطلب بإلحاح على سبيل التوافق من الكاتب أن يكون مسؤولا عن كتاباته المنشورة، وأن يتجنب التناقض، ولكن نظام الافتراض الخاص بالمقتطفات الحديثة يطرح إشكالية. ومن جهة أخرى، لا توجد تقاليد خاصة بوراثة النصوص النظرية، غير أنه، على الأقل في المسودات السوسيرية، تترجم الجرأة الخاصة بالكتابات الحميمية والمستلزمات الإبداعية المعطَّلة بأطروحات قوية، ولكنها ناقصة، وتبدو وكأنها محمومة، كما تظهر في بعض الأحيان بدون ضبط الخط، وفي غالب الأحيان، تكون بعيدة عن الأسلوب الأكاديمي. ويبدو أن المؤلف لم يختر بعد نوع الكتابة[29]، أو أنه ظل متمسكا بنوع الوساطة، ذلك أن موضوعاته هي المفاهيم، التي يقدم على إخراجها في بعض الأحيان على هيئة شخصيات دراما مجردة.

---

[28] . علم الوراثة الأدبية (la génétique littéraire) هو منهجية تحليل الوثائق أو الكتابات، ويهدف إلى دراسة السيرورة الإبداعية التي أوجدت الأعمال الأدبية والنصوص في العلوم الإنسانية. وتقوم هذه المقاربة الحديثة على تحليل النصوص استنادا إلى المخطوطات والمسودات التي اعتمدها الكاتب قبل إيداع المؤلَف لدى الناشر (المترجم).

[29]. تبدي المسودات الأدبية، أو على الأقل تلك التي درسناها (فلوبير، بروطون) ، ترددا بخصوص النوع، بل وتفصح عن اللاتمييز النوعي. وباعتباره عملا غير ناقص، يسمح اللاتمييز بتوليد الاختلافات، إن على مستوى اللغة أو الأسلوب، وبإنتاج المتن الذي يختار فيه الكاتب عناصر البلورة المستقبلية. وعند بناء النص انطلاقا من المقتطفات وليس انطلاقا من فكر غير مجسد، يتمثل عمل الوراثة في توحيد المقتطفات الموجودة قبلا بواسطة معايير النوع، كما يعمل على تسلسل المقاطع التي تتبع من العلاقة الانعكاسية بين عناصرها. والملاحظ أنه في بعض الأحيان تتسم المسودات العلمية باللا-التمييز النوعي، وهي في ذلك متشابهة، وقد تكون متماثلة، هذا إذا افترضنا أن التوسيط الفني والتوسيط العلمي يعرفان نظاما مشتركا، ألا وهو نظام فكر غير مجسد واستكفائي، مثل ما تدعي النظرية الأداتية للغة؛ بمعنى أن سبب وحدتها المتناقضة هو أنها تتموقع داخل اللغة، ولكنها توجد في وضع لا يسمح لها بتحديد النوع

تأويل المتن-. تنضاف عدة مشكلات هيرمينوطيقية إلى تلك المشكلات الفيلولوجية ، وتهم عدم إتمام النص ونوعه ومكانه داخل المتن السوسيري. أما مشكلات التأويل، فيمكن حصرها فيما يأتي:

1) تطرح قراءة النصوص غير المكتملة مشكلا من نوع خاص، ذلك أنها إذا عكست وجهة نظر المؤلِف إبان تحريرها، فإنه لم يمنحها ضمانة الموافقة بالنشر؛ وبعبارة أخرى، تحمل هذه النصوص "توقيعه"، ولكنها تفتقد "لطابعه".

غير أنه إذا نظرنا إلى كتاب **الجوهر المزدوج للغة**، فإن سوسير كان ينوي تحرير كتاب وليس تدوين أفكار فقط، مثل تدوينات إيتيم(Notes Item)، بما أنه كتب **تمهيدا** واستعمل أيضا مصطلح **توطئة**، وعلاوة على ذلك، كان يشير إلى المخطوط بعبارات من قبيل **هذه الوثيقة** أو **هذا الكتاب**.

2) يتطلب تأويل هذا النص دراسة نوعه. لقد تحدثنا عن المسودات، ولكن المسودات لا تعدو أن تكون صنفا من الوثائق، ولا تعد صنفا من النصوص. وأشرنا كذلك إلى المقتطف، غير أنه ينبغي التمييز بين هذا المفهوم باعتباره نوعا[30]، والحالة المقطعية الخاصة بجزء من التدوين.

لقد ورثنا عن سوسير تدوينات على شكل مقتطفات، ولكن من الواجب علينا تعيين نوعه. هل هي بالفعل مقتطفات ؟ والحقيقة أنها ليست كلها كذلك. ويضاف إلى تدوينات الباحث الجامعي نوعان تقليديان مرتبطان بالمفكر، هما الوساطة والمقتطف، وقد يقع الخلط بينهما.

كان المقتطف عند شليگل في فترة شبابه، وهو رائد النوع، يترجم أنطولوجيا التناقض؛ وبعد ترسيخه على يد شوبنهاور وكييركيگارد ونيتشه أصبحت مهنة المقتطف في مأمن، وأضحت تمارس دورها النقدي حتى وصلت إلى الماركسية المفارقة عند كل من بنيامين أو أدورنو (Adorno)، بل ووصلت إلى شِعر شار (Char). ومن خلال بنيته يمتنع المقتطف عن ميميزس الكمالية، الذي يجعل منه نوعا مناوئا للدوغمائية بامتياز، ومنافيا للحِكم العتيقة التي انحدر منها[31] .

وبالأحرى، ليس للصياغات السوسيرية أي قاسم مشترك مع القواعد التقليدية في النحو، ولا مع سوترات بانيني وصياغات دوني لوطراس أو بريسيان. ويتعلق الأمر بالفعل بدراسة في اللسانيات التي تعرض بواسطة تحرير مسترسل مبادئ نظرية، ومنهجية مؤطَّرَة بمشروع موحد. وتدل كثرة التصحيحات والمدمجات على درجة عالية من البلورة، مع وجود العديد من الحملات التحريرية. ويضم الملف عدة أقسام متتالية ومحررة بعناية، وموجهة إلى القراء، وبالتالي فقد تجاوزت مرحلة التدوين الشخصي. وفي الوضع المعرفي الراهن، يتعلق الأمر بالمسودة الأولى التي لم تكن متبوعة بمرحلة كتابة النص النهائي.

بشكل قطعي. وباختصار، نحن لا نضع مقابلة بين سوسير العمومي وسوسير الجديد، ولا بين كتاب «الدروس» من جهة والتدوينات والمقتطفات من جهة أخرى، لأن هذه النصوص ليس لها نفس الوضع، ولا تنتسب إلى نفس الوضع الهيرمينوطيقي؛ وعلاوة على ذلك، يجب الاحتراس من الافتراض القائل بأنها تمثل وحدة متينة.

[30]. انظر على سبيل المثال، نيتشه أو فتگنشتاين؛ وأيضا في الأقوال السوسيرية المأثورة التي كتبها نونزيو لا فاوتشي (انظر *Facettes de linguistique rationnelle*, Pise, EST, 2009, réed. http://www.revue-texto.net)

[31].فكّر سوسير في العلاقات التي تجمع بين نمط المحاكاة والأنطولوجيا؛ وعلى الأقل فقد كتب بخصوص نوع السوترا ما يلي :" لا يمكن للسوترا، سواء كان من أصل فلسفي أم من أصل مغاير، أن يملك قيمة عليا إلا إذا كان أولا مكتوبا بأسلوب مقتضب، وثانيا يتعين عليه أن يكون ما أمكن مستقلا عن الحقيقة الجانبية، ولكنه يظهر بمظهر أطروحة مغلقة، غير قابلة للاعتراض، ومقبولة خارج الأطروحات المتجاورة (Parret, éd. 1993,p. 219, §89).

تقود هذه الإشارات إلى القراءة المسترسلة والممنهجة والانعكاسية، وهي القراءة التي تستدعي انسجاما عاما بين أقسام النص، ولا يستلزم هذا مصنفا بسيطا مكونا من التدوين النظري، مثل **الدفاتر** أو **أبحاث**[32] فتگنشتاين.

3) قدمت كتب گوديل المعتادة على التجديد ومجمل إنگلر في حقيقة الأمر عدة مواد من أجل المراجعة النقدية لكتاب «**الدروس**»، ولكن المفارقة ظلت ماثلة، بحيث إن سوسير معروف بكتاب لم يقم بكتابته فحسب، بل لا يكفي درس جامعي لترجمة الفكر الاطرادي والفريد لأي مؤلِف. وبما أنه يتعين بحسب البرامج و"الدروس" الجامعية تقديم مصطلحات عامة خاصة بالحقل المعرفي إلى طلبة ليسوا بالضرورة على دراية كافية ومتقدمة بالمقرر، فإنه من غير اللائق خلط درس بسلسلة من العروض البحثية؛ وعلاوة على ذلك، لم يكن سوسير معتادا على البوح بالأفكار النظرية، حتى في المراسلات مع زملائه المقربين أو أثناء المحادثات مع الأصدقاء، وكان يراكم المستحدثات التي كان يعتبرها غير ناضجة.

إن كتاب «**الدروس**» المنشور بعد وفاته، والذي قام كل من بالي وسيشيي بجمعه، يتيح في أحسن الأحوال رزمة من التعليمات، ولهذا نرى أن الكتاب يفرض تصميما ويقحم شكلا من التدرج الذي يوصف بأنه مدرسي بشكل مفرط. وإذا ما عمدنا إلى قليل من السخرية، فإننا نميل إلى إدانة هؤلاء المؤلفين لكونهم سكتوا عما بقي في كل الأحوال غير مفهوم من قبل الجميع، بل ومن قبلهم ، ولكونهم مع ذلك دفعوا فئة عريضة من الجامعيين، على الرغم من كل هذا، إلى التنبؤ بأهمية الفكر السوسيري.

إلى حد الآن يعتبر كتاب «الدروس»، وهو في واقع مؤلف نابع من اليد الثالثة، نقطة دخول إلى المتن السوسيري، إلى درجة أن بعض الباحثين، على سبيل المثال، يقدمون سوسير على أنه مؤلِف متناقض، بل وصعب الإدراك. وبالفعل، يتجرأ كتاب "**الجوهر**"، وهو كتاب أصلي، على طرح أفكار متناقضة مع كتاب «**الدروس**» بخصوص عدة نقط أساسية، مع العلم أن هذا الأخير كتاب مزيَّف. وهكذا، تستحق مكانة "**الجوهر**" في المتن السوسيري التوضيح[33]، لأن اكتشافه يغير من طابعه الاختزالي.

لقد كان هذا المتن مقيدا بكتابين متناقضين، إن على مستوى المضمون أو على مستوى الأصالة، وهما كتاب "**البحث**"[34] وكتاب «**الدروس**»، بينما يتمتع كتاب "**الجوهر**" بمكانة وسطية: فهو كتاب لسانيات عامة، ويستمد خلاصته النظرية من كتاب "**البحث**"، وذلك ببلورة مفهوم جديد للغات ولوصفها؛ ومن جهة أخرى، يصوغ الكتاب الأخير بوضوح المبادئ التي تظهر في ثنايا كتاب «**الدروس**»، على الرغم من التبسيطات التي أقدم عليها المستمعون والتشويش أو تلاعبات الناشرين.

وبناء عليه، يمكن القول إن هذا المكتوب يعتبر الحلقة المفقودة التي تسمح بالربط بين كتاب "**البحث**" وكتاب «**الدروس**»؛ إذ، من جهة يمَكن من الفهم الموحد لتدوينات ومقتطفات اللسانيات العامة المنشورة سنة 1974 من قبل إنگلر والمكتشفة سنة 1996، سنة اكتشاف كتاب "**الجوهر**"، ولكنها لم تقحم في الملف المعد للنشر. ومن جهة أخرى، فإن هذا المؤلف، أي كتاب "**الجوهر**"، يحتوي على مفاهيم جديدة وجذرية، وعلى الخصوص مفهوم الثنائيات، وأولها ثنائية السانكرونيا والدياكرونيا، وثنائية اللسان والكلام، وثنائية الدال والمدلول،

---

[32] . يعطي الكاتب المقابل الألماني لكلمة أبحاث وهو " *Untersuchungen* (المترجم).

[33] . بخصوص الأبحاث التي تناولت كتاب "**الجوهر**" بالدرس والتحليل، انظر على سبيل المثال، أماكير (2011)، وماتسوزاوا (2012) (المترجم).

[34] . وهو في الأصل رسالة جامعية (المترجم).

التي تداولتها الأبحاث الحديثة في العشرية الممتدة من سنة 1900إلى سنة 1910، والتي كانت تتناول موضوع الأساطير الجرمانية وقلب الحروف (anagrammes).

نعلم أن لنقطة الدخول إلى المتن أهمية قصوى في سيرورة التأويل، بمعنى أنه حينما نوفر نقطة دخول جديدة إلى المتن السوسيري، فإن كتاب **"الجوهر"** يفتح بالتالي آفاقا جديدة للتأويل، وهي الآفاق التي تبرر التطور الحالي للسانيات السوسيرية.

يفترض المبدأ السليم في الهيرمينوطيقا وضع النص في متن الكتابة والقراءة الأولية، وهو الأمر الذي يَسّر تحديد التداخل النصي الذي كان وراء عملية البلورة والقراءة؛ وهذا شرط أساسي من أجل إعادة بناء مشروعه من دون الاكتفاء بأفق الانتظار المكون من التقليد (فالملاحظ أن كتاب **"الجوهر"** لا ينطبق على أي أفق انتظار)، ولكن، وفي هذه الحالة ، يتعين القيام بالبحث الهيرمينوطيقي من أجل اكتشاف أفق غير منتظر، الأفق الذي كان مرتبطا بسوسير[35].

كان منظرو ما بعد الحداثة من أمثال دريدا، ومناصرو تحليل الخطاب، يرددون ضرورة تجاوز سوسير، لأنهم يصنفونه، على عجل، في تيار لسانيات اللسان. وإذا كانوا لا يعلمون أو يريدون تجاهل ما مفاده أن سوسير قد سبقهم في هذا المسلك، فإنه من الواضح حاليا أن سوسير الأصلي المنبثق من كتاب **"الجوهر"** يتجاوز سوسير المدرسي المتضمن في كتاب **«الدروس»**.

- **تصميم كتاب «الدروس»**.- إن الخيانة الأساسية في هذا الكتاب تتمثل من دون شك في تصميمه، وهو مجزأ بحسب التقسيمات الكلاسيكية المنحدرة من التقليد المدرسي، أو بالأحرى التقليد السكولائي. غير أن تصميم مصنف ما لا يرتكز فقط على الأشكال البلاغية، ولكن على نظرية المعرفة ونظرية التعلم، وهما نظريتان ضروريتان لتأليف نص يسمى **دروسا**. ومن جهة أخرى، فإن التصميم يحدد النظام الهيرمينوطيقي.

كان الربط بين الأقسام أساسيا بالنسبة لسوسير الذي صرح لريدلانجي بأن "على النظرية أن تكون نسقا صارما مثل اللغة" (انظر *CLG*، 1972،ص385)؛ غير أن تجزيء النظرية السوسيرية إلى مقاطع متقنة من حيث الأسلوب، بل وإلى أدوات تسليط الضوء (مثل العلامة، الثنائيات، الخ.) يعود بصورة عريضة إلى كتاب **«الدروس»** الذي يحتوي [كما قال دي ماورو بأسلوب رائع]على روابط انعكاسية بين مختلف الطروحات، وهي الروابط التي كلفت سوسير كل حياته لتحديدها، وقد تعرضت للتشويش من جراء التفكك والانصهار في مختلف الأقسام الناجمة عما قام به الناشرون (1972، ص 422).

في الواقع، اعترف سوسير بالاستحالة النظرية لكل تصميم ينطلق من البسيط ليصل إلى المعقد، واستنتج قائلا: "في الحقيقة،هناك إذن غياب ضروري لكل نقطة بداية". وهو يقترح إذن "إعادة الفكرة نفسها ثلاث أو أربع مرات تحت أشكال مختلفة أمام أعين القراء، لأنه لا توجد حقيقة أية نقطة بداية أكثر إحالة من الأخرى لكي يتأتى لنا تأسيس البرهان" (أنظر ماتسوزاوا ،2003، ص322). ومع كل هذا، عندما سعى هيلمسليف لبناء الأكسيوماتيك السوسيري، باءت محاولته بالفشل.

[35] . مفهوم أفق الانتظار الگداميري هو مفهوم يحيل على الفكر المحافظ، بما أنه يجعل للتقليد التأويلي المقبول بطريقة غير نقدية قيمة عليا أكثر من المؤلَّف. وهكذا فكتاب **«الدروس»** رسم أفق انتظار المؤلَّف السوسيري، وذلك بتقييد تأويله بشكل مبالغ فيه.

لنُقر بأن فهم النظرية مرتبط بالمسار الذي تسطره في ثناياها، وعلى وجه الخصوص بالنظر إلى أنماط العرض التي لا تخوّل لها التجريد، ذلك أن العرض والنظام الهيرمينوطيقي المفترض يستدعيان نظرية ضمنية للتأويل، وتضعان قيودا على التأويلات المشروعة دون تحديدها.

- نقطة الدخول إلى المتن.- نقطة الدخول إلى المتن مسألة أساسية في كل تحليل هيرمينوطيقي، لأنها تحدد المسارات اللاحقة. وبحكم الواقع وليس بحكم القانون، اعتُبر كتاب **«الدروس»** لمدة ستين سنة نقطة دخول إلى المتن السوسيري، إلى أن أقدم گوديل على نشر تدوينات سوسير الحديثة (*CFS*, 1957, nº12) ، وأتبعها بمقدمة الدرس الثاني استنادا إلى تدوينات الطلبة (*CFS*, 1957, nº15)، وبعد ذلك، نشر إنگلر، بصورة متفرقة، مخطوطات اللسانيات العامة في الجزء الثاني من طبعته لكتاب **«الدروس»** (1974)[36].

وتجدر الإشارة إلى أن گوديل أصدر كتابه بهدف توضيح كتاب **«الدروس»**، وأصبح كتاب هذا الباحث مرجعا، إذ قام إنگلر بدراسته وتمحيصه، لينتهي به الأمر إلى إصدار طبعته الضخمة والجامعة؛ كما أصدر دي ماورو طبعة كتاب **«الدروس»** المفسرة (غير أنها لا تعتبر نقدية بالمفهوم التقني)، وشكَّلت الركيزة التي اعتمدها منذ أربعين سنة، ساعيا في ذلك إلى تلخيص المكتسبات الرئيسة للدراسات السوسيرية.

ولكن، إذا كان لكتاب **«الدروس»** مصادر مخطوطة، فإن قسما صغيرا من الوثائق المكتوبة باليد يمكن أن ينسب إليه، إذ بالنظر إلى كل ما يعرض، لم تُدرس الوثائق بعد بطريقة نسقية. وانطلاقا من هذا الكتاب، لا يمكننا أن نقرأ سوى دفاتر الطلبة وبعض التدوينات الخاصة باللسانيات العامة، وبالطبع تكون هذه القراءة منحرفة، غير أنه لا يمكننا فهم مختلف الوثائق التي تعد مجرد ملاحظات، الغرض منها تهيئ «الدروس».

إن خلق أصل موثوق به يقود إلى تفضيل نقطة الدخول، كما هو حال الهيرمينوطيقا الدينية؛ أما بالنسبة للهيرمينوطيقا الفلسفية، فإن المتن لا يملك نقطة دخول محددة مسبقا، ولا يعتبر النص كيفما كان نوعه وبطريقة قبلية مركزيا. وعلى الرغم من كونه يمثِّل مشروعا عاما، فإن فكر سوسير لا يملك مركزا دوغمائيا ، وإن كان كتابا غائبا.

إذا لم يكن للمتن تصميم، فعندئذ يمكن مع ذلك تمييز عدة دوائر مركزية؛ فعلى المسار التأويلي الموجود في ثنايا المتن أن يحترم السُّلمية الفيلولوجية الخاصة بالمصادر، وذلك بمراعاة درجات النجاعة. وانطلاقا من كتابات سوسير المنشورة (وهي عادة مهملة، ما عدا كتاب **"البحث"**، الذي غالبا ما تتم الإحالة عليه، ولكنه لا يقرأ إلا نادرا) يتعين الأخذ بعين الاعتبار السلَّمية التي تتطلب التمحيص في الأعمال المنشورة والمكتوبة بخط اليد، ثم النظر في دفاتر الطلبة، وأخيرا دراسة كتاب **«الدروس»** من أجل معاينة مجموع المتن السوسيري، مع أن انتماء كتاب **«الدروس»** إلى هذا المتن أمر مشكوك فيه.

واعتبارا لما سبق، يمكن التسليم بأنه لا بد لكل تأويل مشروع من اللجوء إلى كتاب **«الدروس»** بوصفه قاعدة تأويلية؛ غير أن ترابان [37]صاغ هذه المستلزمة حينما كتب ما يلي: "لا أحد يجد من خلال الاكتفاء بقراءة مؤلف **"كتابات في اللسانيات العامة"** (أو الجزأين الألمانيين المطابقين له) مؤلِفا مفهوما أو متناسقا، ولكننا نجد فقط مقتطفات عصية على الفهم، وهي المقتطفات التي تتمتع بالقليل من التناسق، وتطرح بعض المعاني في حالة

[36] . قام الأول، مستندا إلى طريقة مقارنة النصوص المتشابهة، بكتابة كل جملة من كتاب **«الدروس»** مع ما يقابلها في دفاتر الطلبة؛ ولكنه استكان إلى التصميم الموجود في الكتاب الأول، وليس إلى ما هو مفصَّل في **«الدروس»** والوارد في هذه الدفاتر.

[37] . يورگين ترابان (Jürgen Trabant) أستاذ باحث في اللسانيات في معهد الفيلولوجيا الرومانية بالجامعة الحرة في برلين. وتركز جل أبحاثه على قضايا اللسانيات الفرنسية والإيطالية، وعلى الخصوص لسانيات سوسير(المترجم).

ما إذا ما ربطناها بكتاب «**الدروس**»[38]. وهكذا جعل ترابان من هذا الكتاب **مرجعا أصليا**، وللإشارة فقد قارنه صراحة بالأناجيل[39].

يمَكَّن كتاب **الجوهر المزدوج للغة** من العثور على نقطة دخول أخرى إلى متن كتابات سوسير. وبالمناسبة يمكن افتراض أن هذا المخطوط النسقي، ذي الحمولة الإبستيمولوجية والغاية التأسيسية، لا يُمثل فكر سوسير بصورة أقل مما تمثَّله تدوينات الطلبة التي جمعها الزملاء بعد وفاة الكاتب. ولكن وعلى وجه الخصوص، يتعلق الأمر من دون شك بكتاب لسانيات عامة أشار إليها سوسير سنة1891 أثناء إلقاء الدرس الافتتاحي المتعلق بكرسي جامعة جنيف. وقد أتى بعد فترة الشك، أو على الأقل فترة الرفض، التي كان فيها سوسير على وشك التخلي عن اللسانيات. فسطر برنامجا يهم اللسانيات العامة، إلا أن دروسه لم تكشف إلا على القليل من مظاهرها. وإبان العشريتين اللاحقتين وصولا إلى موته سنة 1913، اتسع فكره وتطور انطلاقا من هذا التوليف حول البرنامج المسطر.

لا يتعلق الأمر مع ذلك بجعل هذا المخطوط وثيقة أصلية، واعتباره نقطة الولوج الوحيدة للمتن؛ ولكن فرضية طابعه التحديدي تتأكد مع التطور الذي عرفته إعادة قراءة وتقييم الكتابات السوسيرية.

- **النظام الهيرمينوطيقي**.- لن نستطيع التوسع هنا في مسألة هيرمينوطيقا المخطوطات السوسيرية (أنظر راستيي، 2003)، وسنُسلم بعدم إمكانية اعتبار صعوبة هذا المتن حجة ضده. وفي هذل الصدد، تقول كلودين نورمان[40]: "هل يجب اختيار طريق التيه في جاذبية االتدوينات المتفرقة، والمتكررة، والمتَّسمة بالبياضات التي تظهر في بعض الأحيان مرقمة، وهذا أمر يثير الاستغراب (...) ؟ وفي كل الأحوال، ليس بوسعنا إلا السعي إلى عملية إعادة التشكيل، ومن ثم الإقدام على التأويل." (نورمان، 2000، ص156). ولكن ما مصير القراءة بدون تأويل؟ إن الفهم لا يتحقق البتة بالاعتماد على نمط البداهة، إنه يصدر بالضرورة حُكما على كل تأويل، ويظل رهان كل تحليل هيرمينوطيقي قائما، ولو تحت نظام الوضوح؛ فقد رأينا أن مشاكل القراءة التي يثيرها الموضوع الظاهر لكتاب «**الدروس**» ليست بأقل خطورة من تلك التي تطرحها المخطوطات.

انفصلت اللسانيات الحديثة عن الفيلولوجيا الغائبة عند الشكلانيين والتداوليين، عندما أدارت ظهرها للنصوص وللدياكرونيا؛ ونسيت من جهة أخرى مسألة الأصالة الفيلولوجية، مفضِّلة الحقيقة المنطقية، أو "السعادة" الرائجة عند التداوليين. وهكذا، لا يمكن لعدم الفهم المحيط بالنصوص التأسيسية إلا أن يتسع، لأن الكثير من اللسانيين لا يكترثون للمشاكل الفيلولوجية الهادفة إلى تصويب النصوص، ولا يتوفرون على منهجية لتحليلها، والكشف عن المفاهيم الكامنة وراء أبسط المصطلحات، كما أنهم لا يعيرون أي اعتبار إلى ضبط الفروقات بين الأنواع الموجودة في المتون، وفي الأخير يجهلون أخلاقيات الهيرمينوطيقا الكفيلة بقيادة المسارات بين النصوص في ثنايا المتن؛ ولهذا تراهم يقفون حائرين أمام المتن السوسيري، ويكتفون بالحلول السهلة، مثل ملاحظة التصميم

---

[38] . انظر طبعة 2005، ص214. واستخلص ترابان ما يلي: "وهكذا، لم تكن للصيغة التفكيكية لسوسير، أي سوسير الأصلي، والأثالي، والحقيقي، القوة اللازمة لإزاحة قوة المؤلَف الكلاسيكي الكبير، على الرغم من كونه مغتصب وغير حقيقي. إن سوسير "الأصلي" محكوم عليه، بصورة مأساوية، بأن يظل بهلوان «الدروس»" (المرجع نفسه). ومن ثم ، تصبح القراءة الامتثالية غير معرضة للاحتجاج، وذلك باللجوء إلى القدر. ويرجع سبب مشكل التأويل الذي يطرحه بالخصوص كتاب **الجوهر المزدوج للغة** إلى تغيير الخلفية الثقافية، التي تذهب إلى أن الربط بين القول النظري والأمثلة أصبح غامضا.

[39] . "وعلى أية حال، ما يقال عن الإنجيل يصدق أيضا على كتاب **دروس في اللسانيات العامة**؛ إذ يعتبر هذا النص مقدسا بوصفه ضعيف الأصالة " (2005، ص 117).

[40] . كلودين نورمان أستاذة باحثة في جامعة باريس 10، وهي متخصصة في تاريخ اللسانيات، وفي إبستيمولوجيا البحث اللساني (المترجم).

الغامض في كتاب «**الدروس**»، من دون محاولة الاعتماد على فحوى التحليلات النصية التي تهدف إلى دراسة ما أنتجه سوسير.

وإذا أرادت اللسانيات ترسيخ مشروعها العلمي وتجنب رؤية تركّتها منقسمة بين العلوم المعرفية ومباحث التواصل، فإنه لا يمكنها تجنب المهمة الموكلة إليها والمتمثلة في قراءة نصوص هؤلاء المؤلفين المرموقين. وأمام هذا التحدي ذي الصبغة النظرية والتطبيقية، كيف للسانيات أن تتطور بهدف فهم سوسير يوما ما؟ بإمكان سوسير أن يعلّمنا كيف نقرأه ، وهذا يقودنا إلى التوفيق بين الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا تحت إطار التفكير اللساني القاضي بالربط بين هذين الحقلين المعرفيين؛ وفي هذه الحالة، تعتبر قراءة سوسير بمثابة دراسة تمهيدية لعلوم النص.

وبصورة مفارقة، يمكننا قراءته عندما نتوصل إلى فهمه، بمعنى أنه لكي نتصفح متنه، علينا تبني تصوره الهيرمينوطيقي، إذ يتعين قراءته بحسب الفهم الذي يعطيه هو لنفسه، أو بصورة أدق، بحسب ما تسمح به النظرية نفسها. ويمكننا على وجه الخصوص دراسة المخطوطات لنتوصل إلى معرفة الكيفية التي ستعاد بها صياغة النظرية التي ستؤول نفسها بتصحيح عناصرها.

وعندما تفهم اللسانيات سوسير، ستعمد إلى التطور بهدف امتلاك البعد الانعكاسي والنقدي. ولم يكن بالإمكان تحقيق الثورة في شكل أكبر حفل ليلي على شرف سوسير، أو في شكل "قطيعة" متخيلة، ولكن على الأقل سيمكّن المشروع النقدي القاضي بإعادة قراءة عامة للمتن السوسيري من معانقة التفكير النظري، وإيجاد فضاء نقي للتفكير، دون الاكتراث باللوبيات الأكاديمية التي تتنافس على مستوى البحث الدوغمائي.

إن القفزة التي عرفتها دلالة النصوص[41]، وتيارات الفيلولوجيا الحديثة المصاحبة للتطور الذي عرفته لسانيات المتن، قد بادرت إلى إعادة قراءة المتن السوسيري، واستعادة البعد النصي للنظرية السوسيرية ؛ ولكن هذا العمل غير كاف، إذ يتعين طرح برنامج مقارناتي لتحليل واستخراج التباينات النسقية التي تهم النصوص الرقمية الخاصة بالكتابات المنشورة، والمخطوطات، ودفاتر الطلبة، أما كتاب «**الدروس**» فلن يكون سوى وثيقة أرشيف.

سوسير وفلسفة السؤال.- قال جاكبسون عن كاتبنا ما يلي:" [...] كان هذا المشكّك الكبير[...] يرى دائما أن هناك مظهرَين لكل مشكل. [...] فهذا الموقف هو ما جعلني أرى عظمة سوسير" (فير، 2000، ص81). بالفعل، يطرح الفكر السوسيري إشكالية لأنه يستشكل الأمور؛ ذلك أنه بتفضيل طرح المشاكل على الإجابات المتسرعة، يظل هذا الفكر غير مفهوم من قبل مجموعة من التيارات الدوغمائية.

وللتذكير فإن الفكر السوسيري ينتمي من دون شك إلى التقليد الاستكشافي القديم. فالعرض الاستكشافي يعرف على أنه نظام حواري[42] (والحوار الأفلاطوني هو إحدى الأمثلة في هذا الباب)، لأن الوقائع التي يقوم بتشكيلها هي بمثابة ثنائيات تنفلت من اليقينيات ومن الديداكتيك بوصفها تعلّما للعقيدة. وقد انمحى هذا البعد النقدي من كتاب «**الدروس**». وبالمناسبة، لاحظ جاكبسون ما يلي : "هناك تغيير في الأسلوب. ففي الموضع الذي وضع فيه سوسير علامة استفهام وضع الناشرون نقطة. والمسألة أصبحت عقيدة [...] " (أنظر فير،2000، ص81).

---

[41] . دلالة النصوص هي النظرية التي اقترحها راستيي (2001) بهدف التحليل الدلالي للنصوص، معتمدا بالأساس على الدلالة الاختلافية. ودلالة النصوص هي الصيغة الثانية للدلالة التأويلية وهي تيار لساني معترف به اليوم ضمن الأبحاث المعاصرة، وقد استفادت من التراكمات التحليلية في بعض التخصصات مثل الدلالة المعجمية، واللسانيات النصية، والهيرمينوطيقا، والفيلولوجيا. للمزيد من التفاصيل، انظر الخطاب ،2017، الفصل الثامن (المترجم).

[42] . يمكن لبعض النقائص في المخطوطات أن تقرأ على أنها أمارات الحوار المتعلق بالفكر النظري، وقد استطاع دي ماورو أن يعيدها ببراعة في طبعته الإيطالية لكتاب "**الجوهر المزدوج للغة**".

ومن دون شك، فإن رفض العقيدة مرتبط بصعوبة تأسيس إبستيمولوجيا غير وضعية لعلوم الثقافة، وبصعوبة الاكتفاء بنقطة بداية وحيدة وبنقطة نهاية محددة، وعلى سبيل التخمين، كان هذا الرفض هو السبب الذي قاد سوسير إلى التصريح سنة 1909 إلى أحد تلاميذه قائلا:" أما بخصوص كتاب حول هذا الموضوع فلا يمكن التفكير في ذلك، لأن الكِتاب يفرض على الكاتب تقديم فكر نهائي"[43].

تبدو المخطوطات إذن كمتن يشمل مجموعة من الحالات الممكنة للنظرية. وفي غياب نص نهائي يمَكّن من تنظيمها ووضعها لاحقا في إطار توقعي، فإن كتاب «**الدروس**» لا يسعف في تحمل هذا الوضع،فهذه الحالات الممكنة تحظى بالأهمية نفسها، ويمكن اعتبارها نتيجةً للنظرية السوسيرية، لكنها ظلت عالقة. وبقيت ملتصقةً بشكلها الناقص، واستدعى الأمر قرنا من الزمن لتقييم مداها.

وعلى الرغم من صلابة مبادئه، فإن الفكر السوسيري ينم عن تباين من حيث النوع، وفي بعض الأحيان، تفتح المخطوطات طرقا مهجورة، وباختصار، تشهد بوجود أبحاث تنَظر بشكل ما، للضرورة أوعلى الأقل لحتمية طابعها الناقص. ومثل كل الكلاسيكيات، لا يمكن لسوسير أن يكون مفهوما على أكمل وجه، ولكن هذا الوضع هو ربما ما يفسر أن كتاباته تظل مصدرا لا ينفد للبحث والاستكشاف.

تأويل الصمت.- وفي الأخير، يتعين تعضيد هيرمينوطيقا المتن بهيرمينوطيقا الصمت، أو على الأقل هيرمينوطيقا اللانشر. ويجب تأويل صمت سوسير، بغض النظر عن الفرضيات السيكولوجية التي جعلت منه "إلاها شابا" (بنڤنست) مصعوقا ومدمَّرا بسبب انهيار عصبي، و/أو منهكا بفعل الغلو.

ويمكن أن يكون عدم اكتمال الكتاب نتيجة للمشروع نفسه، ولا يكمُن السبب في كونه خدع بإنجازه، بينما يحاكي المصنَّف، من خلال نظامه المنطقي، وأشكاله الأنطولوجية، وطقوسه الموغلة في الموضوعية، الوحدةَ الأنطولوجية التي خلقها، فهل يمكن تصور مصنَّف ضد-أنطولوجي؟ ربما لم يكن من الواجب قياس فكر سوسير مع أو بالأشكال الأكاديمية المثالية لدرس لم يقم بتحريره. ويتعين دراسة فكره بالنظر إلى الأشكال التي خلقها وساهمت في تأسيسه.

ليس لفكر الكاتب أي طابع أكسيوماتيكي، ذلك أنه لا يطرح فرضيات، ولا يستنبط شيئا، وقد سعى إلى إحداث مقابلة بين المبادئ والأمثلة، وهذا الإجراء مناقض لگلوسيماتكية هيلمسليڤ الذي سلك طريقا مغايرا تماما.

ولهذا السبب، لا تملك السيميائيات أرضية تأسيسية تفترض نقطة بداية، ولكنها تعتمد على مجموعة من الأسس الهيرمينوطيقية والنقدية[44] التي تساهم في إنشاء التوجه المنافي للأنطولوجيا. وهذه الملاحظة تملك حمولة أكثر عمومية مما يظهر؛ وهنا يطرح السؤال: هل اللسانيات وعلوم الثقافة[45] فضاء للأفكار النهائية؟

لنسجل على الأقل أنه لا يمكن قراءة كتاب «**الدروس**» بمعزل عن الكتب الأخرى. ولهذا الكتاب المزيف مزاياه، ولكنه لا يشمل البتة فكر سوسير، إذ باعتباره تأويلا مغرضا وناقصا للدرس الشفوي، فإنه يُعَوِّض نصا غائبا. وإذا ما وضعنا نصب أعيننا التدوينات الناجمة عن الدرس الشفوي، وبعد ذلك الدرس المسجل في دفاتر الطلبة أو في المصنف المسمى **"دروس"**، فإننا نكون بصدد أربع تدوينات منتمية إلى أجناس مختلفة، وكل تدوينة تقدم تباينات هيرمينوطيقية.

---

[43] . حديث السيد فرديناند دي سوسير حول درس في اللسانيات الساكنة. تدوينات كتبها السيد أ.ريدلانجي، ونشرها گوديل ، 1957، ص30.

[44] . للمزيد من التفاصيل، انظر الكاتب، 2001، الفصل الرابع.

[45] . للمزيد من التفاصيل حول اللسانيات وعلوم الثقافة، انظر الخطاب،2017، الفصل الثالث (المترجم).

غير أن النشاط الفيلولوجي الذي رافق التدوينات المكتوبة بخط اليد ودفاتر الطلبة، لم يساهم فقط ،وبصورة تدريجية، في تحقيق النصوص الأساسية، بل ساهم أيضا في بدء عملية تنقيتها من الأفكار المسبقة المتلاحقة التي كانت تضع قيودا على فهمها.

- **وأخيرا بدأت القراءة**.- دأبنا على قراءة سوسير انطلاقا من كتاب «**الدروس**»، باستثناء بنڤنست الذي قرأه أولا بصفته خبيرا في اللغات الهند-أوروبية انطلاقا من كتاب آخر هو كتاب "**البحث**". ويظل صدى الكتاب مؤسسا على قرن من قراءات «الدروس»، في حين تم نشر القسم الكبير من **الكتابات** منذ أزيد من أربعين سنة في المجلد الثاني لطبعة إنگلر الخاصة بكتاب «**الدروس**».

ومع ذلك، تظل قراءة **الكتابات** صعبة للغاية، والسبب في ذلك يعود إلى الأمور الآتية:

(أ) تشهد هذه النصوص على زمن التجديد الذي كانت فيه اللسانيات تطرح مشروعا تجميعيا: فعلى مستوى البحث الأكاديمي، لم تكن اللسانيات قد خضعت بعد للتقسيم إلى حقول معرفية فرعية متنافسة، مثل اللسانيات المعرفية وتحليل الخطاب (وهذه الأخيرة تعتبر خطابا مصاحبا للخطابات الاجتماعية)، وبعد عشرات السنين من الصمت والنكران أضحت هذة المعارف لا تقبل إعادة النظر الجذرية والبعدية لفرضياتها التأسيسية. وعلى سبيل المثال، لم تكن مسألة أصل اللغات، التي كانت موضوعا للعديد من الفرضيات، تحظى بأية قيمة إبستيمولوجية.

لا تعترف اللسانيات المعرفية بسوسير ولا تقيم أي وزن للقسم الكبير من اللسانيات السوسيرية؛ غير أن التيار التداولي-التلفظي في اللسانيات وتيار ما بعد البنيوية في الفلسفة والدراسات الثقافية قد تأسسا انطلاقا من نقدهما لكتاب «**الدروس**» وللتلقي المتوافق عليه، فالكل ينادي بتجاوز سوسير، ولكن الباحثين لا يقدمون إلا على تجاوز كتاب «**الدروس**»، أو بالأحرى تجاوز مخطوط شائع نابع من مخطوط: عندما تركت وجهات النظر الجذرية حول النظرية اللسانية، وموضعة اللغة أو طابعها المؤسسي الفريد من نوعه، أوكلَت للدروس قراءة جزئية تبرز عدة مشاكل غير مفيدة، بل واهية. مثلا، دارت الكثير من النقاشات حول مسألة اعتباطية العلامة التي تبدو أنها صارت فقرةً ضرورية للتعليق، مع كل من بنڤنست وأريڤي ونورمان وگادي(Gadet) وأورياه (Urien)؛ بيد أن "**الكتابات**" لا تشير إليها إلا مرة واحدة، وقد كانت بخصوص التعالق بين التعبير والمضمون، إذ قال سوسير في هذا الشأن: " في العلاقة المكونة للعلامة، لا توجد منذ الوهلة الأولى إلا **قيمتان لا تستطيع الواحدة أن يكون لها كيان من دون الأخرى** (اعتباطية العلامة)" (*ELG*, p. 333). وهنا أيضا يتعلق الأمر "باعتباطية نسبية" لا تخص إلا العلاقات بين العلامة وشيء آخر، ولكن من الملاحظ أن الأمر يخص ثنائية التعبير والمضمون. وفي الأخير، تبدو هذه المسألة بالنسبة لسوسير تذكُّرا ديداكتيكيا بسيطا لم يتناوله إلا في التدوين التحضيري الموجود في الدرس الثالث.

بالفعل، يظل سوسير من دون شك غير مفهوم كليا من قبل معاصريه، وهذا ربما ما شكل أحد الأسباب التي دفعته للتخلي عن نشر أبحاثه. ومنذ قرن، لم يكن الجزء الكبير من أعماله معروفا- وليس الأمر كذلك في وقتنا الحاضر- وإذا كانت أعمال نشر كثيرة تنتظر الباحثين، فإن إعادة قراءة المتن في ضوء الاكتشافات الأخيرة قد أحدثت تغييرات عميقة على مستوى الفهم.

(ب) بالي وسيشيي، محررا كتاب «**الدروس**»، هما بالتأكيد الأبوان المؤسسان للسوسيرية الأكاديمية التي ساهمت في محو تطرف الفكر السوسيري، لكي تقترح بدلا من ذلك ملخصا وقراءة لا تزعج التقاليد البحثية ولا عادات الفكر. وهكذا كان كتاب «**الدروس**» دائما موضوع احتفالات تسارعت وتيرتها سنة 2016 نتيجة تخليد الذكرى المئوية لنشر الكتاب السالف الذكر؛ ويفضل البعض تهميش النصوص التي يصعب إدماجها في النص الأصلي:

ويتعلق الأمر، منذ نصف قرن، بالنصوص المستقاة من قبل إنگلر في المجلد الثاني لطبعته النقدية، وكذلك الشأن بالنسبة **لقلب الحروف** و**الأساطير الجرمانية** التي استأثرت باهتمام الباحثين، سواء داخل حقل اللسانيات أو خارجه؛ وهذا ما نلاحظه بخصوص كتاب **"الجوهر"**. وانطلاقا من متن صغير الحجم، كرَّست السوسيرية الأكاديمية التعليقات التي حالت دون طرح استحسان التوجه النقدي للمخطوطات الجديدة، إلى درجة أن بعض المؤلفين فضلوا اعتبارها وثائق ملحقة، ولا يمكنهم بناء على ذلك إلا التقليل من إسهام "سوسير الجديد" لكي يجعلوا منها صورة مبهمة وجزئية للنسخة القديمة.

ويفضل بعض الباحثين مقابلة سوسير بنفسه لتفادي الكشف عن الثنائيات التي حرَّكت مشروعه العلمي، غير أنه من المستحسن إقامة تقابل بين مصدرين لا يملكان على وجه الدقة النظام نفسه، ولا التاريخ نفسه، في حين نجد أن تأولَين لمجمل المتن يختلفان في الوقت الراهن. ومنذ محاولات جاكبسون التبسيطية، استبدل الباحثون مفهوم الاختلاف بمفهوم التقابل المثنوي (oppositions binaires)، وتعويض مفهوم الثنائية (dualité) بمفهوم التفرع الثنائي (dichotomie). ورأوا في سوسير الأب المؤسس للبنيوية المفارقة لزمانها وخططوا لضرورة تجاوزه. وبالنظر إلى تناقضاته، فإن كتاب «**الدروس**» يسمح بعملية التجاوز؛ أما كتاب **"الجوهر"**، فإنه يسمح بها لكونه يستند إلى نظرية الثنائيات. لذا فإن هذا المخطوط يُمكّن الباحث من أخذ مسافة تأمل ضرورية بغية فهم أعمال سوسير في مجملها. ونحن نواجه تحديا، في مرحلة تعرضت فيها اللسانيات للتجزيء؛ إذ لكونها فاقدة للبعد التاريخي والمقارناتي، فإنها تكتفي بالنماذج الجزئية، وبنظريات قوية جدا، وكونية، لأنها دوغمائية.

القسم الثاني

العلامات وخاصية النفي

أحدث سوسير قطيعة مع أنطولوجيا المنطق العام، المنحدرة من الأرسطية المدرسية التي تتضمن المثلث السيميائي الشهير المتكون من الكلمة والتصور والمرجع. وقد مكن التخلي عن المرجع والتصور من تبني فرضية استقلالية العالم السيميائي، والسير قدما نحو التفكير في مشروع علوم الثقافة؛ ومن ثم فإن إعادة تصور معنى اللغات هو الذي يحدد مستقبل المشروع السيميائي.

ومن المعلوم أن السيميائيات كانت دائما مكونا هاما للميتافيزيقا الغربية، وتم التأكيد على وضعها علما للفكر من خلال إعادة تأسيسها المعاصر من لدن لوك. ورآى أگامبين (Agamben) في هذا التقليد [إخضاع اللسانيات للتفكير الفلسفي] السببَ وراء المحنة السوسيرية، وأكد أن سوسير"عاش ومثَّل إلى أبعد الحدود استحالة تطوير علم اللغة داخل الميتافيزيقا الغربية" (1998، ص 255). وهذا الرأي السريع يستحق الاهتمام، ويمنحنا ذريعة لصياغة فرضيتين غير قابلتين للتحقق، ولكنهما جائزتان: من جهة، يعود صمت سوسير إلى هول العمل المزمع القيام به[46]؛ ومن جهة ثانية، نلاحظ أن عدم الفهم أو على الأقل تطبيع وتقنين أرائه من قبل طلبته وورثته المرموقين يسيران في اتجاه إرساء الأنطولوجيا. ويمكن الاستشهاد مثلا بالسوسيرية ذات النزعة المرجعية عند روبير مارتان (Robert Martin)، أو الوضعية التي طالما طالب بها كليبر(Kleiber).

غير أن التقليد الأنطولوجي تعترضه عقبتان تحولان دون إعادة توحيد داخلي لعلوم اللغة، وهما مشكل مرجع العلامة، وعلى الخصوص مرجع الاسم (انظر أيضا كليبر، 1994)، وقد قدمت السوسيرية حلا بنهجها تصورا اختلافيا للمعنى وليس مرجعيا؛ ومشكل الحقيقة الذي يحدد درجة القضية بوصفها تعبيرا عن الحكم (الدرجة المقولاتية). ويمكننا تخطي هذه العقبات الأنطولوجية، من خلال استبدال نموذج العلامة بنموذج المقطع، ووصف السيميوزيس من خلال الربط بين مستويات اللغة. وإذا ما قررنا معاينة المنهج النقدي والسير به إلى أبعد الحدود، فإن نقد الأنطولوجيا يقود بالفعل إلى البراكسيولوجيا، ويسمح من جهة أخرى باستخلاص أسبقية لسانيات الكلام على لسانيات اللسان. والحقيقة أن الوحدة اللغوية تتحدد من منظور البراكسيولوجيا داخل الممارسة، سواء كانت ممارسة تلفظية أو تأويلية؛ وبعبارة أخرى، فإن العلامة حركة منسية، أو على الأقل فهي حركة تتعرض للتشييء. ويتحدد معنى العلامة من خلال الممارسة، ممارسة إنتاج- تأويل النص، ومن خلال إنجاز سيميائي تتم معيَرته بواسطة النوع أو الخطاب.

غير أنه إذا لم تعتبر اللغات أدوات، وإذا لم يكن المعنى مرهونا بالأنطولوجيا، فسيكون الإنسان من الآن فصاعدا كائنا يعاني من الإهمال. وهكذا، يستدعي الجانب التراجيدي في السوسيرية ما نسميه التخلي عن الأنطولوجيا.

---

[46] . نذكر دائما بالكلام الذي يعبر عن المرارة والإحباط ، الوارد في الرسالة الموجهة إلى ميي بتاريخ 4 دجنبر 1894؛ انظر بنڤنست، 1966، الفصل الثالث، وخاصة الصفحات 37-39.

الفصل الثالث

هل توجد علامة سوسيرية؟

من الأفيد إعادة الاعتبار للتصورات السائدة حول العلامة والسيميوزيس المنحدرين من التقليد المنطقي-النحوي (الفصل بين التعبير والمضمون، خاصية الوحدات المفصولة، الثبات)، ومن الأنطولوجيا التي يقومان عليها، وذلك من أجل الإحاطة بالنقائص السيميائية الملاحظة في علوم الثقافة.

ويعاني مفهوم العلامة في التصور التقليدي من نقصين متكاملين، نلخصهما كما يلي:

1.كان التصور مصطلحا ينطبق على محتوى العلامة، وكانت نظرية الأفكار (في التقليد الأفلاطوني) أو أنطولوجيا المرجع (في التقليد الأرسطي) تفترض تماثلها وثباتها على الرغم من التغيرات التي عالجتها نظرية العوارض.

2.لم يكن الصوت يخضع للتحليل، ولكنه كان يتعرض للتقييم بالنظر إلى ما يُدوَّن في الكتابة، إذ لم يطور التقليد النحوي الغربي، وإلى نهاية القرن الثامن عشر، تحليلا بصدد الصوت اللغوي.

3.لم تخضع المطابقة بين الصوت والفكرة (أوالتصور)، باعتبارها إشكالية، لكثير من النقاش، حيث كان هناك توافق بسيط يربط الأول بالثانية.

4.إن نموذج العلامة المقدمة في كتاب «**الدروس**» مزدوج الاختزال بالنسبة للكتابات الأصلية؛ فالنموذج يحتفظ بالفصل بين الدال والمدلول، ويقدم العلامة على أنها معزولة ولا تربطها أية علاقة بالعلامات المجاورة، سواء في المركَّب أو في الجدول.

وهكذا، احتفظ بهما المذهب الذري والفكر الثنائي على الصعيد الكوني، بل استفحل أمرهما نتيجة ظهور الوضعية المنطقية، وبسبب النظرية المعرفية الأرثودوكسية التي استعادت فرضياتهما الكبرى.

وفي مقابل تعريف الإحالة أو الإشارة (وإهمال المعنى في القرون الوسطى)[47]، اقتبس إيكو (1974) التعبير اللاتيني القديم *aliquid stat pro aliquo* (شيء ما يحُل محَل شيء آخر)، واعتبره تعريفا مناسبا للعلامة؛ وكان يتمنى على وجه الخصوص توحيد السيميوزيس الملاحظ في كتاب «**الدروس**» والسيميوزيس غير المحدد عند بورس. وفي مرحلة ثانية، كان إيكو يهدف إلى التخفيف من حدة الصراع بين "البراديغمات" داخل الجمعية الدولية للسيميائيات التي كان يرأسها، ولكن هذه العملية التوفيقية قادت إلى تصور قوي وفضفاض جدا لمفهوم السيميوزيس، وذلك بالجمع بين الإشارة (المبنية على أساس الاستدلال)، والعلامة الصورية (القائمة على المرجع)، والرمز السوسيري (المبني انطلاقا من مفهوم الاختلاف).

1. من العلامة إلى مستويات اللغة

[47] . تعني الإحالة *(suppositio)* في القرون الوسطى أن الكلمة تحيل على شيء ما، أما المعنى فيفيد القيمة التي يملكها المرجع ولو خارج السياق المرتبط بالقضية (المترجم).

لا تملك العلامة السوسيرية البتة صفة المعطى (مثلما سيكون عليه الأمر بالنسبة لسلسلة من الحروف)، وقد جرى تعريفها على أنها تطابق بين الدال والمدلول، ولكنها تُعرَّف أيضا بواسطة العلاقات السياقية والنصية التي تربطها بعلامات أخرى، بحيث إن تعيينها هو نتاج وليس نقطة بداية التأويل.

وستساعدنا بعض الاعتبارات السيميائية الخطية على إعادة تسطير نتائج القطيعة الأنطولوجية المترتبة على تصور العلامة اللغوية، ففي كتاب «**الدروس**»، تتشكل العلامة اللغوية بواسطة خط مُنحن منقسم على مستوى لعرض بواسطة خط أفقي (أنظر 1972، ص 99 والمصدر الموجود في دفتر قسطنطين (Constantin)، نظرأسفله، الرسم 11). ويبدو أن هذا الخط الذي أصبح عاديا مشتق من الشكل الدائري المسنود إلى التصور. ا وكانت ألواح كتب السيميائيات الكلاسيكية، مثل كتب باسيوس (Pacius) أو كتب جان دو سان طوماس(Jean de Saint Thomas)، تدرجه دائما على هذه الشاكلة، ومن دون شك لأن الشكل الدائري كان يُسند إلى الوجود منذ بارمنيدس[48].

لكي يخُلق الوجود عمد بارمنيدس إلى وصفه في المقطع الثامن (v. 3-6, v. 26-34) بواسطة محمول خاصية اللا-متغير (بدون بداية ولا نهاية، ولادة بدون ضياع) والوجود غير متحرك " في حدود الروابط العريضة [...] لأن الضرورة القوية تشده إلى روابط الحد المحيط به". إن التضمين الدائري يهيِّئ صورة الجسم الدائري الكروي، (انظر v. 43-44) "الذي يشبه كتلة الجسم الدائري شديد الاستدارة من الوسط ، ناشرا قوة متساوية، هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل الاتجاهات"[ترجمة ب.كاسان (B. Cassin)]. ونجد هذه الصورة عند كزينوفانس[49]، كما نجدها عند إنباذوقلس[50]،الذي سماها "السفيروس"، وعند أفلاطون، وسمبليقيوس [51]الذي تحدث عن الحقيقة "شديدة الاستدارة"، وعند ليبنتز حين طرح مفهوم المونـاد، بل ونجدها في "الكُرَة الطوبولوجية" المُحيلة على أنطولوجيا روني طوم (René Thom)؛ ذلك أن نجاح نظريته يعود إلى التناسق التام بين خاصية الثبات والمساواة في الوجود.

وباختصار، ورث من دون شك الرسم الخطي للعلامة شكلَه الدائري من التصور، والملاحظ أن الشكل نفسه يمثل شكل الوجود. غير أنه في كتاب «**الدروس**»، نلاحظ أن هذا المونـاد السيميائي قد تقلص وتصدع، وقد ينذر تقلصه لا محالة بانفتاحه على العلامات المجاورة (انظر أسفله). وعلى الرغم من نهاية ثنائية المادة والفكر وإعادة المدلول إلى اللغات، فإن التصدع ما زال شاهدا على التفرقة الأنطولوجية بين المدلول (الذي لا زال ينتمي إلى نظام الإدراك العقلي) والدال الذي ينتمي إلى نظام الإدراك الحسي، وإن كانت الصورة الصوتية تعتبر شيئا

---

[48]. بارمنيدس (Parménide) فيلسوف يوناني عاش في نهاية القرن السادس ق.م. أو في النصف الأول من القرن الخامس. كان يؤمن بأن الوجود لا يكمن في المحسوسات، فقد كان يقول : التعقل والوجود شيء واحد، وفي رأيه فالوجود ساكن. ومع هذا الفيلسوف "ترتسم بجلاء معالم تيارين متعاكسين في الفكر الإغريقي: من جهة أولى الوضعية الإيونية الحدسية التجريبية المعادية عداء سافرا للأساطير والتقاليد الدينية (...)، ومن الجهة الثانية عقلانية بارمنيدس وفيثاغوريس الساعية إلى بناء الوجود بالعقل، النازعة نحو الجدل" ، كما يعتبر مؤسس فلسفة الوجود ، انظر جورج طرابيشي، 2006، ص 139-138 (المترجم).

[49]. كزينوفانس (Xénophane) فيلسوف يوناني من المدرسة الإيونية، وضع كتابا في الطبيعة لم تصل منه إلا أبيات معدودات. وكان أول من عين الماهية المطلقة بأنها الواحد، وسماها الله، بدون أن يعني عنده أن الله واحد، وقد نفى الكون والفساد، كما نفى التغير والحركة، فالواحد هو وحده الموجود. كما عرف عنه تنديده بالطابع التشبيهي للآلهة عند الشعراء، وخاصة عند هوميروس وهزيودوس. انظر ج. طرابيشي، 2006، ص 524(المترجم).

[50]. إنباذوقلس (Empédocle) فيلسوف وشاعر يوناني، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، دافع عن الديمقراطية ورفض المَلكية، ويتسم مذهبه بالطابع الملحمي، وتقوم نظريته حول الكون على علتين هما الكره والحب، ينتج عنهما اتحاد أو انفصال العناصر الأربعة الأساسية: الماء والهواء والتراب والنار . ويعتبره البعض شاعرا أكثر منه فيلسوفا (المترجم) .

[51]. سمبليقيوس (Simplicius) فيلسوف أفلاطوني ولد عام 500م، التجأ إلى بلاط كسرى بعد إصدار قرار منع التدريس في المدارس الفلسفية بأثينا. وكتب شروحا على مقولات أرسطو واشتهر بمحاولته التوفيق بين نظريات أفلاطون وأرسطو (المترجم).

ذهنيا. وينطبق وضع الدال والمدلول على التوالي على هذه الفرضية: في الأسفل توجد المادة، وفي الأعلى يوجد الفكر.

ومع ذلك تظل القطيعة مع التقاليد واضحة جدا. كانت العلامة باعتبارها صوتا والتصور في النموذج المنطقي الأرسطي منفصلين من حيث انتمائهما إلى مستويين من الواقع (الخارج في مقابل الداخل، والمادي في مقابل الذهني)؛ ومن جهة أخرى، كانت العلامة السالفة في النموذج البلاغي-الهيرمينوطيقي ذي النزعة الأوغوسطينية- وهو نموذج الإشارة- منفصلةً في الزمن عن الكلمة التي تليها، والتي بواسطتها نستنبط المعنى. وللإشارة فهذه الأمور المنفصلة لم تعد تحتاج هنا إلى الحذر، لأن مستويَي الواقع السيميائي، المميزين كتابيا بواسطة خط رقيق، يتسمان بعلاقة ارتباط وثيق.

وعلى الرغم من بساطته الديداكتيكية، أوعلى الأرجح بفضلها، حافظ نموذج العلامة السوسيري على مدى إبستيمولوجي هام، لأنه كان يتجاوز البديل الكلاسيكي الذي ميَّز بين نماذج المعنى اللفظي ذي المرجعية الأرسطية والأوغوسطينية، التي بُنيت على أساسها الفلسفة التحليلية، والعلوم المعرفية. ونجد مع ذلك في مخطوطات سوسير الجديدة مقترحات تحُد من أهميته (أي النموذج السوسيري) وقد تتجاوزه، بل وقد يصل بها الأمر إلى إنهاء صلاحيته. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقترحات تهم نظام الوضع السياقي، ومشكل التطابق بين مستويي اللغة.

- شيطاني ورمزي.- لا يمكن أن يقوم الربط بين الدال والمدلول على علاقة التمثيل، ولا على تطابق بسيط، في غياب فرضية أنطولوجية، لأن أوجه العلامة لا ترتبط بعلاقة التطابق؛ إذ إن الرابط بين الدال والمدلول لا يقوم على العلاقة بين مستويات اللغة، التي لا توجد بينها علاقة مصادفة، كما لا توجد بينها علاقة مطابقة، مثلما أشار إلى ذلك هيلمسليڤ.

غير أنه بوضعه مسألة التطابق بين الدال والمدلول في درجة العلامة المعزولة، حوَّل أگامبين[52] (1998، الفصل الرابع) الاختلاف بين مستويات النظام (عوضا عن الوضع الأنطولوجي) الفاصلة بين الدال والمدلول إلى تفتق، وأقام تقابلا بين **الرمزية**، التي تعرف بالتطابق بين الدال والمدلول، و**الشيطانية**[53] التي تحيل على تنافر قطبي العلامة. وعلى الرغم من كونه لم يطرح بطريقة سليمة، فإن المشكل يستحق وقتا للتأمل لأنه يظل مؤشرًا على التقليد السيميائي الذي كان دائما يبحث على توافق طبيعي بين المضمون والتعبير (بل وحتى توافقا قدريا/ربانيا، بما أن الطقوس الدينية تعتبر علامات).

إن علوم اللغة مدينة كثيرا لحلم المطابقة الرمزية بين الدال والمدلول، أو على الأقل، وبصورة دقيقة، بين العلامة والتصور، وهنا نشير إلى التيمة العتيقة التي تهم مِلكية المصطلحات، والاهتمام المشوب بالقلق بخصوص التعدد المعنوي والمشروع المصطلحي القاضي بتقليصه؛ ونشير كذلك إلى تيمة التعريف نفسه بالمقولات، واحتلالها مكانة الصدارة في الفكر اللساني[54]. ويحتفظ التقليد الغربي، بالإضافة إلى كل هذا، بالجاذبية إزاء الاستعارة، لأنها تكرّر الوظيفة الرمزية دون إلغائها، وبالخصوص عندما يتم تصورها[أي الاستعارة] بديلا زخرفيا عن الكلمة المجازية مقابل الكلمة ذات المعنى الحقيقي.

---

[52]. جيورجيو أگامبين (Giorgio Agamben) فيلسوف إيطالي، ولد سنة 1942 بروما ، مختص في فكر والتر بنجامان (Walter Benjamin) وهايدگر وأبي واربورگ (Aby Warburg). وقد خصص جزءا مهما من أبحاثه لدراسة المفاهيم التي كانت رائجة في القرون الوسطى (المترجم).

[53] . ربما اقترض الكاتب التقابل القائم بين **الرمزي** و**الشيطاني** من ميشيل دو سيرطو(Michel de Certeau).

[54] . تعتبر الأسماء والأفعال، بوصفها وحدات مطابقة للأشياء والحركات، مثالا للعلامات الكاملة، إذ إن الدال المستقل يطابق المدلول المستقل.

غير أن هناك شكلان من المعنى المائل أو الدلالة ينتميان إلى الجانب الشيطاني، ذلك أن **الشعار** يحتوي مثلا على المعنى المائل، الضروري للتفكير في عملية التحويل المعقدة القائمة بين الشعار والصورة؛ هذا بالإضافة إلى أنه يشتغل على خاصية الواضح-المعتم في كل عملية كشف.

أما فيما يخص **الرمز** الرومانسي، الذي سميت الرمزية الأدبية باسمه، فقد ظل قريبا من المَثل واللُّغز؛ ذلك أنه يفترض في الواقع مستوى آخر من المعنى دون الاكتراث لتخصيصه. ولكن طالما ظل المجاز أو الشعار أو الرمز عبارة عن صعود روحاني للعلامة المعزولة، فإن المفاهيم السالفة تضيف إلى العلاقة بين العلامة والمعنى علاقة أخرى تربط بين المعنى الحقيقي أو المُتجلي، والمعنى المجازي أو المضمر. ويستمر تصور وضعها إذن في إطار إشكالية العلامة، وليس في إطار إشكالية النص.

يتبدد الخلاف الخاطئ الذي بموجبه تم وضع تقابل بين الرمزية والشيطانية، وبين المعنى اللفظي الواضح والمعنى اللفظي المعتم، لصالح التفكير في صعوبة التأويل. ولا يمكن إذن إلصاق مشكل الصعوبة بالعلامة، بالقول إن هذه علامة حقيقية أو مجازية بحسب ما إذا كانت صعبةَ التأويل أو غير ذلك؛ كما لا يمكن، على الرغم من أطروحات أگامبين، إسنادُ صعوبة التأويل إلى عامل التنافر بين مكونات العلامة. وتُذكّرنا كلمة *temetum* المقترحة من قبل سان أوغوسطين (*De Trinitate*, X, 1,2) في واقع الأمر بالفكرة القائلة بإمكانية تعيين دال دون معرفة مدلوله؛ لكن هذا لا يعتبر مع ذلك، وعلى الرغم من تحاليل أگامبين، مثالا للمعنى المائل أو "الشيطاني".

-الدال / المدلول واللسان / الكلام.- تجسد العلاقةُ بين الدال والمدلول في نقطة ما العلاقةَ بين اللسان والكلام. وإذا كانت ثابتة، فإنها تُكوّن العلاقة الاصطلاحية المثالية التي تجعل من الكلام مجرد إسقاط بسيط وتوليفي للسان، ومن ثم تصبح الكلمة نقطة اتصال مبنية على التفاهم السِّلمي، جاعلة نظام اللسان أمرًا طبيعيا، ويصبح السياق عنصرًا مخلا بالنظام، وذلك عندما يفرض على الكلمة بعض التغييرات.

وبالمقابل، إذا كان من الواجب إعادة بناء العلاقة بين الدال والمدلول من منظورَي الإنتاج والتأويل، فإن ذلك يفضي إلى أن يصبح اللسان عبارةً عن تكوين افتراضي أعيد بناؤه انطلاقا من اطرادات المتن؛ باختصار، يصبح اللسان عبارةً عن ركيزة من أجل التأويل، وعاملا مساهما في توجيهه من دون تحديده. وهكذا، ليست الثنائية بين اللسان والكلام هي الثنائية التي نضعها محط تساؤل، ولكن السُّلمية الملحوظة بين هذين العنصرين هي التي يتوجب دراستها.

وبعدما اعتبرنا الكلام من وجهة نظر اللسان، وذلك باشتقاق الأول من الثاني، مستعينين في ذلك بنظريات التلفظ، حان الوقت لدراسة اللسان من وجهة نظر الكلام، وهذا هو هدف لسانيات التأويل. وحتى في الدلالة التأويلية، فإن ثنائية اللسان والكلام تترجَم على الخصوص بالتمييز بين السمات الملازمة (المستخلصة من النوع المعجمي في إطار تواردا‌ته)، والسمات الثقافية[55] المُحيَّنة تبعا للسياق، بل والمنتشرة في النص بواسطته.

وتشهد الوحدة المعيارية وتماثل اللغة مع ذاتها باستمرارية الوجود التجريبي أو المتعالي، وللإشارة فمهمة اللسان تكمن في تمثيل، بل وتكوين الوجود. ونضيف أن هذه النظرة المثالية تقابلها الأنواعُ اللامتناهية من

---

[55] . تميز الدلالة التأويلية بين السمات الملازمة (les sèmes inhérents) والسمات الثقافية (les sèmes afférents). وتعرف السمات الملازمة داخل المجموعات الصغرى أي الطاكسيم، وتوصف بأنها سمات نمطية ومطبوعة في اللغة. مثلا، السمة /أسود/ بالنسبة "للغراب" والسمة /أنثى / بالنسبة "للمرأة" هي سمات ملازمة للطائر وللمرأة على التوالي، وهي ما يسمى بالسمات النووية عند گريماس (1966)، أو السمات القاموسية عند إيكو (1984). أما السمات **الثقافية**، فإنها ترتبط بالمعايير المجتمعية، ويمكن ملاحظة كثرة تمظهرها في التعابير المسكوكة؛ فسمة /الشؤم/ أو /الرعب/الموكلة للعبارة الفرنسية "غراب شؤم" غير ملازمة للغراب ولا تدخل في نطاق تعريفه، ولذلك عدت سمة الشؤم من السمات الثقافية (المترجم) .

التمظهرات اللغوية، إلى درجة أن الاختلاف الأنطولوجي الذي يقيم تقابلا بين الوجود والكائنات، وبين الجوهر والعوارض غير مفكَّر فيه داخل البراديغم القائم على التخلي عن الأنطولوجيا.

وإذا سلمنا بأن الجوهر المزعوم ليس إلا تشكيلة متغيرة بل ومحتملة من العوارض[56]، فبإمكاننا طرح نظرية قارة تهم التقليد وأنماطه الزمنية من أجل التدقيق في كيفية تكوين اللسان، وكيفية إعادة تكوينه من خلال الكلام.

2. الوحدة المتناقضة بخصوص مستويات اللغة

أحدثت السيميائيات السوسيرية قطيعةً مضاعفة مع الأنطولوجيا، من خلال إقامة وحدة تضم الدال المحسوس والمدلول المعقول في نفس الشكل المغلق. ويمكن طرح الفرضية القائلة إن إدراك المستويين في اللغة يخضع لنفس المبادئ، لأن الإدراك يتقيد بمبادئ التكوين العامة، ومبادئ التعرف وتأويل الأشكال، مثل ما هو موضَّح بإسهاب في سيكولوجيا الجشطلت؛ في حين يميز التقليد السيميائي، وهو تقليد ثنائي بالأساس، بين المحسوس والمعقول، ويزاوج بين العلامة المادية والمدلول.

إن الدال شكل، أو على الأقل يمكن القول إن إدراكه يفضي بطبيعة الحال إلى استخراج الثوابت الصورية- وهي موضوع الفونولوجيا- من خلال المتغيرات الزائدة عن الحاجة والخاصة بالإشارة المادية. وفي الواقع، إذا سلمنا في إطار التوافق بأن الدال هو موضوع الإدراك، يبقى أن نبرهن بأن الأمر ينطبق كذلك على المدلول، وقد اقترحنا عدة أدلة في هذا الاتجاه، عندما قمنا بدراسة الإدراك الدلالي (انظر الكاتب، 1991، الفصل السابع)[57].

إن رهان توحيد مستويَي اللغة ليس بالأمر الهين، لأن الرابط بين المحسوس والمعقول كان دائما محاطا بالألغاز، بما أن هذين النظامين المتجذرين في التقليد الأفلاطوني الذي أعيد في اللاهوت المسيحي، كانا دائما منفصلين، اللهم إذا كنا بصدد التجسيد. والحلان اللذان وسما هذا التناقض هما نظرية المشاركة ونظرية الخطاطات (schématisme)، وقد تطورت الأولى في إطار الأفلاطونية الجديدة منذ أفلوطين، وسلمت بأن المادة تكون في اتصال دائم مع الفكرة، وهذا ما يبرر عظمة البيان.

وفي نموذج العلامة المقدم في كتاب «**الدروس**»، نلاحظ أن الخط الذي يفصل الدال عن المدلول يمكن أن يعبّر عن اتصالهما، وبالإمكان تأويل أبحاث سوسير حول البيت الشعري اللاتيني على أنها أبحاث حول الوحدة الموجودة بين مستويَي النص، إن لم تكن بين مستويَي اللغة.

وقد عوَّضت النظرية الكانطية حول الخطاطة نظريةَ المشاركة بطرح نظرية وساطة الأشكال الخيالية، التي تعتبر مقاربة وسطية بين الإدراك العقلي والإدراك الحسي. وإذا عمدنا إلى القليل من السخرية، يمكن القول إنها تلعب دورا مشابها لدور الملائكة في ما يسميه هنري كوربان (Henri Corbin) **العالم الخيالي**، وهو العالم الوسيط بين العالم الإلهي والعالم الإنساني. لقد عمرت نظرية الخطاطة الكانطية ردحا من الزمن، إذ ساهمت بواسطة بارطليط (Bartlett) في ظهور **الخطاطات**، ونظرية **الإطارات**، ونظرية **النموذج الأمثل** [58]التي غزت

---

[56] . لا يوجد إذن تمييز بين العوارض والجواهر: "لا يتعين التسليم بأي اختلاف بين ما يميز الشيء وما يُكونه" (*CLG*/E, I, §334).

[57] . عنوان الكتاب هو *Sémantique et recherches cognitives*, PUF, 1991 (المترجم).

[58] . تندرج نظرية الإطارات (frames) ضمن علم النفس المعرفي وقد ظهرت في سبعينيات القرن الماضي على يد كل من شانك وأبلسون (Schank et Abelson)، وتم تعضيدها بنظرية السكريبت عند مينسكي(Minsky). وتركز هذه النظريات على دور

ساحة الأبحاث المعرفية في وقتنا الحاضر، وعلى الخصوص في مجال الدلالة. ثم إن إلحاق المدلولات اللغوية بالنماذج التصورية المثلى قد يُمَكّن من الاحتفاظ بالفكر الثنائي التقليدي، بل وإنقاذه[59].

وبما أن سوسير- وبصورة تقريرية- قد جعل الخلط مستحيلا بين المدلول والتمثيلات، يمكننا الاحتفاظ بفكرة الوساطة، مثل ما هو قائم في نظرية الخطاطات، ولكن في مستوى آخر من التعقيد؛ فليس المدلول هو الذي يُفَعِّل الوساطة، غير أن المستوى السيميائي في مجمله هو الذي يقوم بذلك. وفي الواقع، يضطلع المستوى السيميائي في شموليته عند الإنسان بوظيفة الوساطة بين عالم التمثيل والعالم الفيزيائي[60]؛ ومن ثم، لن يكون التمييز بين مستويَي اللغة سوى صورة "تبئيرية" للتمييز الحاصل بين الفضاء التمثيلي والأساس الفيزيائي، ولن يكون تقابلا بين العالمين في داخل اللغة.

إن تقليص الانقسام الأنطولوجي- الذي نصوره من الآن فصاعدا بواسطة خطوط مقطعة وبسيطة والتي تفصل بين مستوى المدلول ومستوى الدال- يقود إلى نتيجتين كبيرتين، ذلك أنه يفتح العلامة على السياقات؛ وعلى هذا الأساس، فإنه يفتحها على النص والتناص، ثم يجعل المرور بين المستويَين اللذين يُفَعِّلهما المسار التأويلي قابلا للتصور. وهكذا يتجاوز التقليص الملحوظة التي تسلم بأن العنصر الأول يفترض وجود العنصر الثاني بصورة انعكاسية[61] في المستويين.

وتأتي ثنائية الدال والمدلول، على الأقل في العرض، سابقة على ثنائية اللسان والكلام؛ يقول سوسير: " تعتبر العلامة مسبقا كيانا مزدوجا بفعل الترابط الداخلي الذي تحمله ومزدوجا نتيجة وجوده على هيئة نظامين، وهي منساقة إلى معالجة مزدوجة" (*ELG,* p. 299). ويمكن استخلاص الفرضية الآتية: إذا كان الكلام يتحكم في اللسان، فإن العلامة تكون أولا وقبل كل شيء قطعة من الكلام[62].

ويوجد في هذه السلسلة من الأشكال تواز آخر بين الثنائيتين، مع العلم أن هذه الأشكال تبدو غامضة، فبغضّ النظر عن الخطوط المتقطعة التي تحد من انفصال المحسوس عن المعقول، تبدو علاقة التدرج مشكَّلة بواسطة استعمال الخط المائل؛ وهذا ما تشيرإليه هذه الملحوظة (note item) : (انظر

CLG, éd. Engler, t. 2, 1974, p. 36 : §3310.5 ; *ELG*, p. 103)

الإطارات والمواقع والفضاء في إدراك المعلومات، وتفترض أن اكتساب المعرفة وإدراك المفاهيم والأحداث والحالات يتم عبر المضامين النموذجية. واكتسحت بالفعل هذه المفاهيم مجال اللسانيات، وعلى الخصوص مجال الدلالة. وفي هذا السياق، تفترض نظرية الدلالة المعرفية العلاقة الوطيدة للغة بسيرورات الإدراك البشري، وبتجارب الإنسان الاجتماعية والعاطفية والبيئية . ويضيف المعرفيون أن للغة بعدا نفسيا، ومن ثم فإن دراستها تدخل في إطار علم النفس المعرفي؛ ولهذا يفترض جاكندوف (1983) أن البنية الدلالية هي البنية التصورية. واهتم باحثون آخرون بالأنساق غير اللغوية مثل الحركة والبصر والفضاء وبمدى إسقاطها في التراكيب اللغوية. للمزيد من التفاصيل والأمثلة، انظر الخطاب ،2017، الفصل الرابع (المترجم) .

[59]. لانگاكير هو المؤلف الوحيد في الدلالة المعرفية الكلاسيكية الذي أحال على سوسير، واستند في ذلك على أن كتاب «**الدروس**» (ص 99) مثّل مدلول كلمة **شجرة** بواسطة صورة للشجرة، من أجل اعتبار المدلول تمثيلا ذهنيا؛ وهذه بطبيعة الحال قراءة استرجاعية لسوسير، بما أن الدلالة المعرفية "السابقة لسوسير" من حيث المبدأ تختزل المعنى اللغوي، كما كانت العادة منذ أرسطو، في التمثيلات.

[60]. ويمكن الاستشهاد بالقيود التي تفرضها المدلولات على تكوين الصور الذهنية (انظر الكاتب، 1991، الفصل السابع).

[61]. درسنا في عدة مناسبات الأنظمة المشتركة أو الموازية لمستوى الدال ومستوى المدلول: النبرة، والإيقاعات الدلالية، والإدراك الدلالي. وأبعد من كل هذا، يتعين دراسة معالجة إدراك الصور الذهنية (المدلول التصويري)، والقيود الدلالية على تكوين الصور الذهنية، بهدف الإحاطة بتأثير السيميائي على التمثيلي.

[62] . استعمل سوسير بشكل ملحوظ عبارة **علامة كلامية** (signe de parole) (انظر *ELG*, p. 265) ، وليس علامة لسانية (signe de langue).

"يجب رسم الرمز 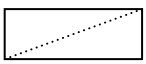 وليس 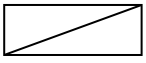 ، أو 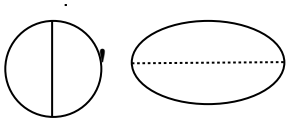

الشكل رقم1: الخرطوشة السيميائية وخطها المائل ذو الخطوط المتقطعة

فبينما تمثل الخرطوشة المستطيلة عادة ثنائية اللسان والكلام، مدد سوسير في هذا المقطع هذا الشكل إلى ثنائية الدال والمدلول التي لم تعد متطابقة مع أي موناد، حتى وإن كان منقسما على نفسه (أنظر أيضا *ELG*، ص95). وفي الحقيقة، لا يتعلق الأمر فقط بتقابل **نسبي**، وإنما أيضا بتقابل **تدريجي**، ونرى سوسير يسلم بأن محاولة "التفريق بين الشيئين"، أي وجها العلامة هنا، "هو ما نعتقد أنه العيب الأساس للاعتبارات النحوية التي تعودنا عليها(*ELG* , p.52) . وهكذا، وبصورة مفارقة، حطمت ثنائية الدال والمدلول التوجه الثنائي الذي يفصل بين ما هوعقلي وما هو حسي.[63] وبما أن التفرقة بين الموجودات (المتنوعة والمتغيرة) والوجود (المتماثل والثابت) تظل مرهونة بتلك التي تقيم تقابلا بين المادة والفكر، فإن نهاية الثنائيات السيميائية تؤشر على نهاية هذه التفرقة المكونة للأنطولوجيا في الفكرالغربي.

لقد كانت النتائج باهرة، لأنه لا يمكن تصور، أو بالأحرى عزل أي دال صاف[64] وأي مدلول صاف؛ إذ تتوفر كل الوحدات على وجهين، ولكن لا توجد وحدة لغوية مطابقة للعلامة كما هي واردة في كتاب «**الدروس**»، بما أن كل الوحدات تُعرَّف بحسب تصورنا لدرجات الهيمنة بين الدال والمدلول. فعلى سبيل المثال، نقترح تنظيم البعض منها على مستوى الخط المائل الذي يحدد الوجهين المكونين ل"علامة الكلام" في الشكل الموالي:

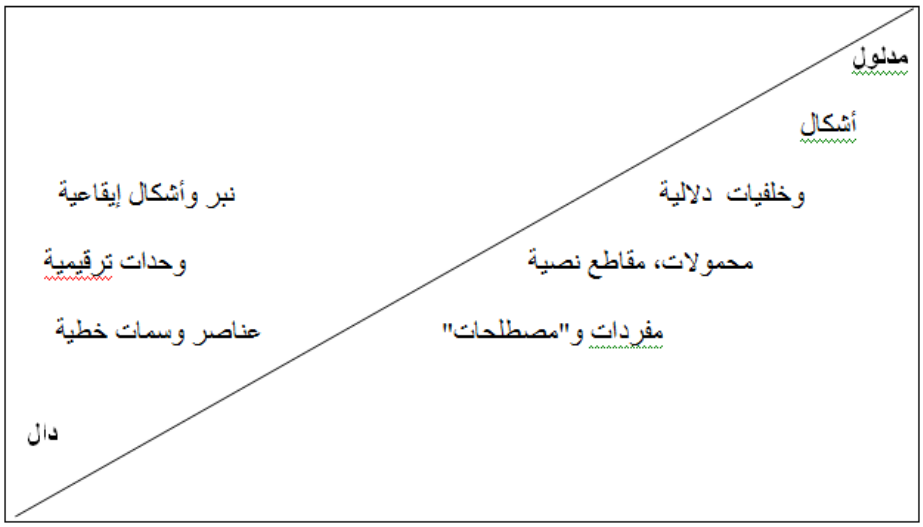

شكل رقم2: بعض درجات الهيمنة المتعلقة بالدال والمدلول

[63] . في حقيقة الأمر، تتداخل تعريفات الدال والمدلول من دون المطابقة الحرفية، أي تطابق كلمة مع كلمة أخرى.
[64] . ونلاحظ بصورة عرضية أن هذا الأمر يجعل كل ادعاء صوري صعبا للغاية.

فالاعتراف بهذه الدرجات كفيل بمعالجة التباين السيميائي المتعلق بالوحدات اللغوية، وبمعالجة الفرق غير المتناقض بين التمفصل الأول والتمفصل الثاني؛ وبناء عليه، نسلم بدون عناء بأن الوحدة الترقيمية لا تملك آلية عمل الليكسيم، ومع ذلك تتلقى دلالة، وتكون قابلة للتدليل.

اقتصر التقليد المنطقي-النحوي على وسط الخط المائل أعلاه، وهو المكان الذي تظهر فيه العلاقة النسبية بين الدال والمدلول؛ وحينما تختزل العلاقة في الكلمات والقضايا، يمكن حينئذ أن تعالج الدلالة اللفظية بالاستناد إلى المرجع، كما يمكنها معالجة محتوى القضية بالاستناد إلى الحقيقة، ولكنها لم تتمكن من النظر في الفضاءات الجانبية، بحيث لم تعر أي اهتمام للفضاء "العلوي"، وفيه ترتبط المدلولات بالدلائل غير المحددة بصورة كبيرة (مثل أمكنة الأشكال الدلالية في درجة النص)، ولم تهتم بالفضاء "السفلي"، وفيه ترتبط الدلائل بالمدلولات غير المحددة بصورة كبيرة. ولتحقيق هذه الأهداف، يتوجب تبني توقع تأويلي تتحمل فيه الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية أعباءه، بما أنها هي الوحيدة التي تستطيع القيام بالمهمة، وذلك بالتمدد إلى الدرجة النصية.

ومن جهة أخرى، يُمَكّن هذا النموذج التدرجي الخاص بالوحدة اللغوية من تحقيق مصالحة بين ثلاثة مفاهيم:

(أ) مفهوم **الخطاب**، بمعنى الخطاب العابر للجمل في اللسانيات المنحدرة من أعمال هاريس وبالمعنى السيكو-اجتماعي الموجود في نظريات التلفظ؛

(ب) مفهوم **النص** الذي ينتمي إلى تخصصات لسانيات المتن أو لسانيات الهيرمينوطيقا؛

(ج) مفهوم **الوثيقة**، الذي ينتمي إلى الفيلولوجيا وإلى مجالات معرفية أخرى.

وتساهم هذه المصالحة في إغناء مفهوم النص إلى حد إعادة تأسيسه، بما أنه يمكن أن يُربط بالممارسات الاجتماعية التي أنتج في خضمها، وبالإمكان ربطه بالركائز، بما فيها الركائز الرقمية المكوِّنة لفضاء تأويله.

إجمالا، يتحقق التمفصل المشترك لثنائيات اللسان / الكلام والدال / المدلول في التصورالمزدوج المتعلق بالنصية. إن التمفصل الأول المنحدر من الدراسات حول النصوص السردية-الدينية والأسطورية على وجه الخصوص يفضل العلاقةَ بين الوحدات المحلية والوحدة الشاملة، عن طريق الوساطة المتمثلة في معايير النوع والخطاب؛ أما التمفصل الثاني، فإنه يفضل الشعرَ، ويشدد على العلاقات بين مستوى الدال ومستوى المدلول. وهذان التصوران متكاملان، لأن المعايير النصية تحدد السيميوزيس بنفس الدرجة التي تحدد بها العلاقة بين المحلي والشمولي؛ والأكثر من هذا، فالعلاقات بين الشمولي والمحلي التي تهم كل مستوى لغوي لا يمكن توطيدها دون الأخذ بعين الاعتبار السيميوزيس المحدد للعلاقة بين مستوى المدلول ومستوى الدال.

3 . نحو نموذج نصي للعلامة

دأبت السيميائيات في فترة ما قبل سوسير، والتي استمرت داخل الوضعية المنطقية، على التفريق بين العلامة والدلالة الكامنة في التصور (أو في المرجع بحسب نظرية الإحالة المباشرة كما جاء عند كارناب). وبموازاة ذلك، كانت السيميائيات دائما تحاول تقليصَ التفرقة الأنطولوجية بين العلامة وما يمثلها، وذلك بالبحث بين هذين النظامين على قياس تبريري (مثل التشابه الأرسطي، والإفصاح عند الرواقيين، و**الملكية** عند

الكلاسيكيين، والأحادية المصطلحية، الخ.). وفي سعيها لتحقيق أهدافها، جعلت نظرية **التأويل التركيبي** من المعنى مجرد عملية تحويل الشّفرة، وبموجبها نقوم بتحويل تعبير في لغة ما إلى تعبير مطابق في لغة أخرى. وإزاء هذا النظام المزدوج للتفرقة والقياس، استبدلت السوسيرية الوحدة غير المتسقة؛ وفي هذا السياق، يسلم هيلمسليف بخضوع مستويَي اللغة لنفس المبادئ البنيوية دون المطابقة التامة بين عناصرها (وهنا يتحدث الكاتب عن **عدم التطابق**).

لقد استبدل إذن مشكل التطابق أو التناظر بين وجهي العلامة بمشكل العلاقة الرابطة بين مستويات اللغة التي ترتبط بالبنيات النصية وتأويلها، أو بالشِعرية والهيرمينوطيقا في نهاية التحليل. ونجد أن التأويل في المقاربة الهيرمينوطيقية لا يعد "شيطانيا" إلا من حيث ارتكازه على الاعتراف بالغيرية، في حين يظل التأويل التركيبي مؤسسا على التكافؤ الصارم بين التعابير[65]. وهذا الاعتراف هو الذي أسس الدلالة الاختلافية، لأنها تطرح الوسيلة التي توفر إمكانية تصور الاختلاف بوصفه غيرية مؤهلة، والمرور بالتالي من التعددية اللامتناهية للمتناقضات (أ **ضد لا** أ) إلى أحادية المتضادات (أ **ضد ب**). وتترتب عن مبدإ عدم المطابقة بين مستويات اللغة عند سوسير، والذي أوضحه هيلمسليف، نتائج كبيرة، لأنه لا يجعل من التطابق، بل ومن التماثل بين أجزاء أو أوجه العلامة، شرطا للحديث عن السيميوزيس.

وهكذا، يقود المبدأ الاختلافي إلى عدم الاعتراف بالعلامات المستقلة الموجودة قبل عملية تأليفها؛ ويقول سوسير في هذا الصدد: "لا توجد في اللغة **علامات** ولا دلالات لفظية، ولكن توجد اختلافات بين العلامات، واختلافات بين الدلالات اللفظية، وهذه الأخيرة تتميز بما يلي:

أولا- لا يستقيم وجودها إلا بوجود الدلالات الأخرى (في الاتجاهين)، ومن ثم فهي غير قابلة للتفرقة، وتظهر على أنها تتميز بسمة التضامن.

ثانيا- ولكن الدلالة اللفظية لا تستطيع البتة تحقيق المطابقة المباشرة"[66]. واعتبارا لما سبق، فالعلامة ليست إلا لحظة مستقرة للتأويل، ويمكن للمسار التأويلي أن ينتقل من علامة إلى أخرى دون المرور بالدال، ولو كان صفرا؛ ويلعب هذا الأخير إذن دور المؤوِل، ويقوم ببساطة "بالتأكد" من الانتظارات.

1.خروج العلامة من العزلة

لنذكّر بالتصورات الثلاث المتعلقة بالعلامة، وهي كالآتي:

(أ)تحتفظ العلامة بوصفها **جزءا من البنية** بالتحديد الساكن، وتظل مبهمة حينما تكون بنيات مستويَي اللغة غير متطابقة بصورة صارمة.

(ب)يتم تعريف العلامة باعتبارها **نقطة في شبكة** داخل بنية علائقية مفتوحة، إذا كانت الشبكة قابلة للتمدد، ويمكن تصور الشبكات إما بصورة ساكنة، مثل الشبكات الدلالية في الذكاء الاصطناعي الأرثودوكسي (انظر الكاتب، 1991، الفصل الرابع)، أو بصورة ديناميكية، مثل ما هي عليه في البراديغم القبل-ترابطي عند كولينس

---

[65]. وعلى العموم، يفضل التقليد الأنطولوجي المطابقة (" أ" هو "أ" الليبنتزي) بوصفها الأساس الأنطولوجي للحقيقة، ومختلف أشكال الدمج (تضمين، إدراج، الخ) لكي يتم تقليص التنوع الحاصل في الظواهر، وتحويله إلى مساواة أنطولوجية. وتتمدد حاليا إشكالية المطابقة التي وقع إضعافها بواسطة التكافؤ المبهم، إلى النماذج المثلى (prototypes)، و"نظرية الروابط العائلية".

[66] . انظر *ELG*, p. 70، ملاحظة: استعمل سوسير مصطلح "**علامة** هنا بالمعنى العادي للدال.

ولوفتوس(1975) (Collins et Loftus). وفي هذا الإطار، تُعَرَّف الشبكات على أنها خلايا عصبية صورية، وتحدد عُقدها على أنها أمكنة للتلقي، والمعالجة، ونشر التنشيطات (وكذا عمليات الكبح).

(ج)وفي الأخير، يقود تصور العلامة على أنها **لحظة في مسار** إلى إعادة التأكيد على أسبقية الشمولي (النص) على المحلي (العلامة)؛ وهذا المبدأ الهيرمينوطيقي العام يجري تخصيصه بالنظر إلى النمط الفيلولوجي. وبناء عليه، فإن تعيين العلامة مرتبط بالقراءة الجارية، ونعلم أن القراءة تغيّر النص، وهذا ما برهنت عليه المغالطات والتنقيحات على حد سواء، **فالدروس** الفيلولوجية تَعتبر إعادة كتابة كلمات أو فقرات صدر بحقها حكم- غالبا ما يكون في موضعه- على أنها فاسدة. وفي هذا السياق، تتكون بنية النص من ثوابت المسارات التأويلية، وهي الثوابت التي نعدُّها موضوعيا قيودا مستدامة.

2.الكينوم و السمة الدلالية الترابطية: نحو نموذج سياقي للعلامة

تستند إعادة التصور الضروري للعلامة إلى فقرة سوسير الآتية: " (...) ليس لكم الحق في التقسيم، وليس لكم الحق في التسليم بوجود الكلمة من جهة والدلالة اللفظية من جهة ثانية، وكل هذا يُكوّن شيئا واحدا.- يمكنكم فقط ملاحظة الكينوم ∩ والسمة الدلالية الترابطية ⊃⊂" (*ELG*, § Kénome, p.93)؛ وكلمة **كينوم**- المشتقة من *kénos* التي تفيد الفراغ- قد أحدثت قطيعة مع أنطولوجيا الامتلاء الممثلة بالموناد السيميائي؛ أما السمة الدلالية الترابطية، فإنها تعني العلامة اللغوية المعرَّفة على مستوى السياق).

سنلتجئ مجددا إلى السيميائيات البصرية لنتمكن من تأويل الشكل الخطي لهذه الأشكال. إن الكينوم (∩) يمثل في السياق المسمياتي (وهو المقاربة التحليلية التي تنطلق من المدلول في اتجاه الدال) المدلولَ المفتوح على الدال غير المحدد. ونلاحظ من جهة أخرى أن التمثيل الخطي لا يشير إلى التفرقة بين الدال والمدلول، فكل هذا "يشكل شيئا واحدا".

وفيما يتعلق **بالسمة الدلالية الترابطية** (⊃⊂) ، فإن شكلها يقابل الموناد في عدة نقط؛ وعلاوة على ذلك، تعطى الأولوية للتقابل بين اليمين واليسار الذي يتضمن السياق المتمثل في السابق واللاحق، على حساب التقابل بين الأعلى والأسفل. ومن جهة أخرى، وتأكيدا على القطيعة مع الأشكال الدائرية المرتبطة بالأنطولوجيا الهوياتية في التقليد البارمينيدسي، نرى أن هذه الأشكال مقعَّرة وليست مُحدَّبة، وتترجم إذن خطيا أنطولوجيا النفي المعبرة عن الاختلاف. وتختلف هذه التجويفات من حيث اتجاهها الفضائي-الزمني إلى الأمام وإلى ما سيأتي لاحقا- وليس من حيث التقابل بين الأعلى والأسفل، الذي يُبرز بين وجهَي العلامة السوسيرية في النسخة الأصلية الفرقَ الأنطولوجي بين المادة والفكر، أو بين اللغة والتفكير.

وسنوضح كيف أن هذا الفراغ الأنطولوجي، وهذا الانفتاح يسمحان بالانتقال من النموذج المنطقي-النحوي للعلامة إلى نظرية التأويل النصية. وسنحتفظ بمفهوم **الكينوم** للإشارة إلى العلامة كما نتصورها، وذلك بمقابلتها ضمنيا بمفهوم "الكمال الأنطولوجي" المعبر عن الموناد المعروف في السيميائيات.

3.النموذج النصي للعلامة

نفترض على سبيل المصالحة أن *ماهية* العلامة تُحدد انطلاقا من العلاقة الموجودة بين المضمون والتعبير الذي يحدد بدوره السيميوزيس الكلاسيكي، ولكن قيمتها الاختلافية- إن على مستوى المدلول كما على مستوى

الدال- تظل محددة بفعل ارتباطها بالسياقات اليمنى واليسرى التي تظهر فيها؛ وهذا التصالح المؤقت لا يعمل على طمس ضرورة إعادة تعريف الوحدات المحلية بحسب الإشكالية التأويلية، سواء كانت علامات، أو مُركَّبات، أو جُمل، أو فقرات.

أ)المقطع (le passage).- على مستوى الدال، الكينوم جزء من النص- يظهر بين بياضين إذا تعلق الأمر بسلسلة من الحروف، وبين لحظتي التوقف أو علامات ترقيم إذا تعلق الأمر مثلا بالاتساق البلاغي (la période) .

وعلى مستوى المدلول، يعتبر مقتطفا (fragment)؛ إذ يشير إلى السياقات المتمثلة في الجهة اليمنى واليسرى، كما يؤخذ بعين الاعتبار السياق المتمثل في القرب والبعد. وهذا ينطبق على مضمون الكلمة، كما ينطبق على مضمون المُركب والاتساق البلاغي- على الرغم من التقاليد المنطقية التي ترى أن دلالة القضية تكون منغلقة على نفسها. وهكذا، يمكننا استبدال العلامة المبتدعة الموجودة في كتاب «**الدروس**»، وهي عبارة عن موناد سيميائي، بهذا الشكل الممثل للفقرة:

→ ⊂ مقتطف ⊃ ←

→ ⊂ قطعة ⊃ ←

الشكل 3: المقطع [⊃ ← انفتاح على السياق]

ومن المحتمل أن يحيل المقطع على السياقات الموسعة ذات الصلة، مثلا بواسطة قواعد التماثل الصوتي، والتشاكل الدلالي أو التطابق بين المورفيمات. ونميز بين **تأثير** القطعة و**مدى** المقتطف، فالقطعة تكون توافقيا منعزلة، لأن بنيات التعبير تنتمي بالأساس إلى لسانيات الجملة؛ وفي المقابل، لا يتمتع المقطع بهذه الصفة على الوجه الأوضح، لأن بنيات المضمون تنتمي إلى درجة النص.

وإذا ما احتفظنا بمسعانا القاضي باستخدام الوحدات الدنيا من أجل التحليل، نلاحظ أن اختيار المقطع، وبصورة أقوى عزل "العلامة"، يفرض عمليتين: تتمثل العملية الأولى في تقديم الفرضية التي ترى أن القطعة الدنيا يقابلها مقتطف، وذلك بطريقة تمكّن من عزلهما؛ وبعد عزلهما عن السياق، يتم وسمهما في العملية الثانية بعلاقة متوازية بين الدلالة اللفظية والتعبير، وهذا من شأنه أن يمنح العلاقة الأولى معنى حرفيا، ويخول للثانية صفة الثتبيت[67].

ويظل مفهوم المقطع -الذي يبدو عاديا- الأكثرَ عرضة للاختبار في الهيرمينوطيقا، وهذا ما شهدت به مثلا نظرية أجزاء النص المتوازية عند هليل الأكبر[68]؛ ويفترض المقطع الإقدام على عملية الاختيار، ومن ثم يفرض

[67] . وهكذا، يستند التبديل إلى ما مفاده أن بعض العلامات، مثل الزوائد، تظل قليلة التأثر بالسياق لأنها جد مندمجة. ومن دون العودة هنا إلى مشكل التبديل، نصطدم بمشكل يقود إلى معضلة: إذا كان بالإمكان عزل مورفيم ما، ففي هذه الحالة لا يمكننا منحه دلالة؛ وإذا تمكنا من "عزل" دلالة لفظية، ففي هذه الحالة لا يمكننا منحها مورفيما واحدا. وهذا ينسحب بالأحرى على توليف المورفيمات المتمثلة في الكلمات (أو الليكسيمات على وجه التدقيق)، والتي لا تستجيب للضوابط المنطقية-النحوية المتحكمة في عملية التأليف. وأخيرا، يطرح تبديل الوحدات الأكثر تمددا، مثل الاتساق البلاغي أو الفصل، مشاكلَ مستعصية للغاية.

[68] . هليل الأكبر (Hillel l'ancien) حكيم ومعلم ديني يهودي عاش في القدس أيام هيرود والإمبراطور أوغوسطين. ويعتبر من الشخصيات الهامة في تاريخ اليهود. ولد ببابل، وهو تلميذ شمایاه (Shemayah) وأبطاليون (Avtalion) وقد عاش في القرن

وجهة نظر، وعندما يجري تأسيسها بواسطة قرار منهجي، تكون الحدود إذن نسبية وقابلة للمراجعة بطبيعة الحال. وهكذا، فإن العلاقات التي تصف المقطع، في حالة ما إذا قمنا بعزله عن الكل، تتمتع بمحيط يتنوع مع محتوى التأويل، بالنسبة لمداه، كما بالنسبة لتأثيره.

وينتج هذا التصور الاختياري للمقطع مباشرة عن الإشكالية التأويلية، وفيها يحدد بأنه **مكان** في النص و**لحظة** مسار، وهذا هو الإجراء الذي يمكن من اختياره وعزله عن باقي المكونات النصية. وتظل هذه الحالة، التي تبدو غير مفارقة، صفةً مشتركة بين تخصصات علوم الثقافة، إذ إن المعطيات هي ما نعطيه لأنفسنا، لأنه لا شيء يُفرض على الباحث، وفي إطار البحث نقوم دائما بعملية الاختيار[69].

تتسم الآثار المترتبة عن إعادة تعريف الوحدة اللغوية هاته بالتعدد، وتهم وضع المعجم ووضع النص بالتساوي. وهكذا، فحتى الكلمة تعتبر مقطعا، ذلك أن تمظهرها يعتبر قطعة من النص، ومضمونها مقتطفا من أسطورة أو قضية. أما بالنسبة للنص، وكما لاحظت بنيديكت بانسمان [70] " لا يمكن إرساء تشفير (ساكن) للنص من حل مسألة تعريف المقاطع، مثل المناطق التي تنفصل في بعض السياقات، أو بالنظر إلى توقع ما، ولكن لا يوجد توجه تحليلي يقضي بتحديده **مسبقا** (وسيكون جرد المقاطع المحتملة دائما غير مكتمل). إن نمط تكوين المقاطع وتأثير البنية الظاهرية للنص على تكوينها، هي مظاهر أساسية وغير مكتشفة" (نص جديد، حديث شخصي).

وتختلف استراتيجيات اختيار المقاطع بطبيعة الحال بحسب أنماط التأويل. فعلى سبيل المثال، سيقلص التأويل النحوي حجمَ المقاطع إلى الحد الأقصى، مفضّلا بذلك المقاطع المتتالية؛ وبالمقابل، هناك شكل آخر من التأويل تقوم فيه القراءة الحرفية ذات الطابع الجامعي باختيار مقاطع أكثر امتدادا أو أكثر طولا. وإذا كان كل نمط تأويلي يفضل أماكن في النص ولحظات من المسار، فإن إقحام الفوارق الكيفية يظل عملا مشروعا. وفي واقع الأمر، ومن أجل المتطلبات المعيارية، تفترض الإشكالية المنطقية-النحوية التماثل والمساواة العامين؛ وفي المقابل، تطرح الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية لحظات فريدة تتمثل في نقط الترابط بين التشاكلات، مثل نقط تحول الحِجاج وتسلسل "الأحداث"، وانقطاع وجهات النظر، وكل هذه اللحظات تتطابق مع نقط خاصة بالأشكال النصية، كما تتطابق مع حركات مؤهلة تهم كلا من المتلفِظ والمؤوِل.

وبما أن الوحدات ترتبط بالمسارات التي تقوم بتحيينها، فإن على مختلف نمذجات النص أن تأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى. غير أن النمذجة المرتبطة بالتوجه المحايثي في السيميائيات الكلاسيكية تختزل في إقامة العلاقات والوظائف، أو التعرف إليها (مثل ما هو حاصل في نظرية هيلمسليڤ) من دون التذكّر بعملية إرسائها، بحيث تعتبر البنيات النصية إذن أشكالا ثابتة، ومتعرّضة للبحث الموضوعي، ومقسّمة إلى عدة مقولات بحسب ما تقتضيه التقنيات التي وقع اختبارها في المنهجية المنطقية-النحوية. فالنص مجموعة أمبريقية يقوم الوصف بتفكيكها إلى عناصر، في حين لا يراعي الحكي مثلا عدة صيغ داخلية مشروعة، بحسب الاختيار الأكسيولوجي

العاشر، وفي عصره انتهى دور الزوكو (وهي دومفيرا روحانية). وكان على خلاف مع حكيم آخر، هو شامعي (Shammai)، الأمر الذي أدى إلى تشكيل مذهبين مختلفين في الإفتاء والتفسير، وعلى إثر هذا الاختلاف انبثقت مدرستان هما مدرسة هليل ومدرسة شامعي. وقد قامت سلالة منحدرة من هليل بتسيير اليهود زهاء 400 سنة تم خلالها تطبيق قواعد الهيرمينوطيقا لشرح التوراة وتحديد الهلاخا (Halakha). وكانت لهليل سلطة قوية استطاع بواسطتها فرض قواعد أخلاقية ودينية تسير الحياة الاجتماعية والاقتصادية لليهود. وعلى العموم، فهو مؤسس أكبر المدارس التأويلية للتوراة، وكان عمله يستند إلى الفهم، وليس إلى المجاملة (المترجم).

[69]. إننا واعون بالمناسبة بالخاصية الاصطفائية للإدراك.

[70] . بنديكت بانسمان (Bénédicte Pincemin) باحثة في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا وتركز أبحاثها على قضايا النصوص الرقمية انطلاقا من نظرية راستيي أي الدلالة التأويلية (المترجم).

للمؤوّل (أنظر الكاتب 1989، ط2، الفصل الخامس). وبخضوعها لهذا النوع من الوصف، أو بإزاحته، تفترض الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية أن البنيات لم تعد تكوينات أنطولوجية ثابتة، وإنما أضحت أماكن ولحظات في المسارات التلفظية والتأويلية، وتعود موضوعيتها إلى الإجماع الملاحظ على مستوى القراءة.

(ب)نحو نموذج سطحي للتلفظ.- إن إنهاء مشكل العلامة المعزولة يعني إنهاء مشكل السيميوزيس" العمودي"، أي الوحدة التي تربط العلامة بالتصور و/ أو الشيء، بل والتي تربط بين الدال والمدلول. ونصل إلى هذه النتيجة بتطبيق المبدإ الاختلافي على المستوى التركيبي، وهذه المعطيات تقود إلى السيميوزيس "الأفقي" الذي يربط كل علامة بما يوجد بجوارها؛ ذلك أن السيميوزيس ينتمي إلى لسانيات الكلام، أي لسانيات النصوص الشفوية أو المكتوبة. ومن ثم سيكون للتقابلات الموجودة على مستوى "اللغة" وضع خاص تعرف بموجبه على أنها إعادة أبنية افتراضية مؤسسة انطلاقا من الاختلافات الملحوظة على مستوى "الكلام"؛ مثلا، ليس للسمات النوعية[71] كيان سابق للتشاكل، ولكنها تتمظهر من خلال تأسيسها. وهذا الأمر يقود إلى الأطروحة التي تفيد أن قيمة العلامات لا تحدَّد إلا في السياق، إذ إن ما نسمّيه "قيمة" في اللغة لن يكون إذن سوى إعادة بناء معياري انطلاقا من سياقات مفضلة، مثل سياق التضاد (مثلا غالبا ما نقابل "جالس" ب"واقف").

ويرتبط هذا التصور بخصوص الوحدة اللغوية بمشكل التلفّظ، ومن خلال اقتراحنا لنموذج **سطحي** لا نعرّفها على أنها انتقال من الفكر إلى اللغة، ولكننا نعتبرها حركة تمكّن من الانتقال من العلامة إلى ما يليها، وتمَكِّن إجمالا من إنتاج مقطع ما انطلاقا من المقطع السابق. وهذه معطيات تدل في الواقع على نشاط الفكر، ولكنها لا تعتبر مجرد تعبير، إنها حركة تحويل المعطى السيميائي الذي يطرح بطبيعة الحال تصورات وتمثلات، غير أنها لا تختزل في هذه المعطيات الأخيرة. وفيما يخص الاعتراض التراجعي الذي يطرح السؤال الآتي: "من أين أتت العلامة الأولى؟"، نجيب بأنها كانت دائما عبارة عن معطى، ولوأنها كانت مجرد إعادة لممارسات سابقة. ونضيف في هذا السياق بأن كل إنتاج سيميائي، بما فيه ذلك الذي يوصف بأنه إبداعي، يمتلك في الواقع بُعد الإعادة، بل والإجابة أيضا.

ويمكننا الآن توضيح مفهوم المسار؛ فإذا افترض كل مسار ارتكازه على عامل ومكان وزمان، فإن أيا من هذين العاملين لا يكفي لتعريفه، إذ لا يمكن تلخيص العامل في القصدية، كما لا يمكن تلخيص الزمان والمكان في موقع العلاقات الموضوعية المستقلة عن عملية المسح (*scaning*)، وهي العملية التي نقوم بها في الدلالة المعرفية. ثم إن المسار التلفظي والتأويلي، بوصفه غير خاضع للتوجه الظاهراتي وغير منضبط للعلاقات النحوية، يجسد النمطَ الخاص للموضوع في علوم الثقافة[72] التي لا ينفصل فيها عن الملاحِظ إلا بالمسافة النقدية التي يقيمها هذا الأخير.

إن كل حركة تلفظية وتأويلية تنتمي إلى الممارسة، ويمكن أن تحدد من قبل المتلفِظ أو المؤوِل على أنها التزام يجب الوفاء به؛ إذ عند القيام بهذه الحركة، يوفق المتلفِظ-المؤوِل بين مبدأ الواقع اللساني ومبدأ السعادة المرتبط بالممارسة. غير أنه بالإمكان التخلي منهجيا عن مسألة الذات، لأن الذات الفلسفية أو السيكولوجية تنتمي إلى الكون المرتبط بالتمثلات، وللتذكير، فإننا ندرس الكون السيميائي في البحث الأكاديمي . ونتمنى ببساطة إدخال

[71] . السمات النوعية (sèmes génériques) هي السمات التي تشير إلى انتساب السيميم إلى طبقة دلالية. فالسمة النوعية لكلمة "امرأة" هي /شخص/ وسمتها الخاصة هي /أنثى/ بالنظر إلى المجموعة { رجل، امرأة} (المترجم).

[72] . علوم الثقافة هي العلوم التي تحيل على الثقافة بوصفها حقلا عاما يرصد جميع سلوكات الإنسان، فردا وجماعة. وهي الحقول المعرفية التي تحاول جاهدة معرفة المعنى الثقافي لظواهر الحياة، وتشمل جميع الوقائع الإنسانية، وتمتد محاورها إلى المعرفة العلمية. للمزيد من التفاصيل ، انظر الخطاب، 2017 (المترجم).

بعد براكسيولوجي، وذلك بإحداث قطيعة مع الأنطولوجيا، أي بتبني براديغم التخلي عن الأنطولوجيا. وتخلق الحركة اللغوية الحدث التلفظي أو التأويلي، من خلال اللقاء غير المسبوق أو الجديد بين المقتطف والقطعة. ويشكل هذا اللقاء لحظة تاريخية، أو على الأقل يخلق وضعا لا رجعة عنه، وهذا ما يؤكد أن الكلام هو العنصر المبدع في اللغة.

4.علامتان ومستويان في اللغة

لا تحدد العلاقات السياقية بين العلامات المعنى بدرجة أقل من تحديدها للعلاقات الداخلية للعلامة المعزولة، بالإضافة إلى أن التناظر والتوازن الظاهري للعلامة السوسيرية في كتاب «**الدروس**» ليسا إلا خدعة. والأكثر من كل هذا، يمكننا صياغة الفرضية التي تذهب إلى أن السيميوزيس الكلاسيكي المحدَّد بواسطة العلاقات الداخلية الرابطة بين وجوه العلامة يظل محددا بشكل مفرط من خلال العلاقات السياقية، على مستوى الوحدات المتماثلة أو المتباينة.

وفي الواقع، يفضي المبدأ الاختلافي إلى فكرة أن كل تحديد للوحدة يتم عبر العلاقات، وقد سلم سوسير بأنه "من نتائج هذا الأمر أنه لا يمكن البتة اعتبار أي وحدة لغوية (في التوقع الذي يأخذ بعين الاعتبار الحقب) إلا بإقحام، علنيا أو ضمنيا، وبالحد الأدنى الممكن، أربعة عوامل هي:

أولا) العلامة التي نحن بصددها؛

ثانيا) علامة أخرى مختلفة؛

ثالثا) جزء مما هو مضمن (وهذا الجزء يكون دائما أكثر صغرا مما نعتقد)؛

رابعا) وجزء (صغير جدا)[73] ".

وإذا سلَّمنا بمبدأ السياقية، فإنه يتعين تطبيقه بصورة مشتركة على مستويي اللغة، إذ إن الفرق بين هذين المستويين راجع إلى التقابل الحاصل بين المحسوس والمعقول. وقد تم تصور خاصية عدم قابليتهما للتجزئة على أنهما يمثلان وجها الصفحة بحسب صياغة كتاب «**الدروس**»، أو يمثلان تضمنا معكوسا بالمفهوم المنطقي. وفي الواقع، يتعلق الأمر بتعالق الاختلافات التي تقتضي دائما وجود ضروب من العلامات المختلفة على المستوى التركيبي، لكن المبدأ المتحكم في هذا التعالق يظل غامضا، فهو غير مشفَّر في اللسان، إذ يُستخدم في الحركة التلفظية والتأويلية. ويبدو أن سوسير قد اعتبر المسارات الواقعة بين الطبقات أشكالا أولية، مثل ما هو مجسَّم في الشكل الآتي[74]:

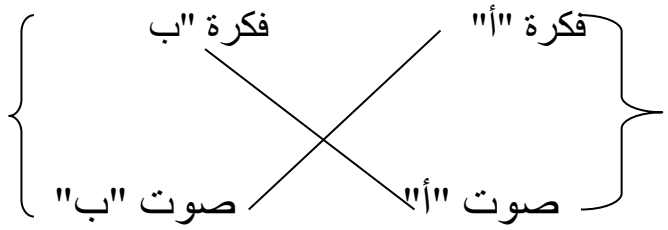

الشكل 4: العلاقات السياقية المتباينة المستوى بين العلامات

[73] . انظر *ELG*, pp. 73-74

[74] . *ELG*, p. 290

يوضح الشكل أن سياق وحدة التعبير هي وحدة المحتوى، والعكس صحيح، ونفصل ذلك من خلال الأمثلة الشخصية، وبإعطاء ثلاثة مقاطع عامة تخص الانتقال من علامة إلى أخرى، وهي لحظات أولية في المسارات التلفظية والتأويلية. لنأخذ مثال العلامات 1 و2، ونوسمهما ب **دا** و **مد** (Sa et Sé) أي الدال والمدلول؛ وتنقسم هذه المسارات إلى ثلاث أزواج:

(أ) يشمل السيميوزيس (بالمفهوم الكلاسيكي، الوحدة التي تدل على علاقة بين وجهي العلامة، أو بصورة صحيحة على علاقة بين مستويي النص) مقطعين: المقطع المنطلق من الدال في اتجاه المدلول (**دا1 مد1** بحسب النموذج الأمبريقي)، والذي يفترض أن "النوع المدمج بواسطة الحواس" يجلب إلى الفكر" شيئا آخر" (سان أوغوسطين، *De doctrina christiana* I, 2).أما المقطع المعاكس المنطلق من المدلول في اتجاه الدال (**مد1 ← دا1**)، فإنه مثبت مثلا عندما نسمع ما كنا ننتظر سماعه، بينما هناك صوت آخر قد تم النطق به. وعلى مستوى المنهجية، يعبر مفهوم درجة الصفر في الدال عن نفس النوع من التحول، حينما ننتقل من المدلول إلى الدال.

(ب) هناك نوعان من السياقية يجري إنشاؤهما داخل المستوى نفسه (ويمكن اعتبارهما متماثلين). يعرِف المسار المنطلق من **مد1** في اتجاه **مد2** اختلافا، أو يبلور تشاكلا أوليا، أو يخلق سمات ثقافية بواسطة عملية انتشار السمات الدلالية. وظاهرة السمات الثقافية أصبحت معترفاً بها اليوم من قبل مختلف الكتاب، وقد أقحمها بوستيوفسكي (Pustejovsky) في نظرية المعجم. وعلى وجه العموم، وفي اللسانيات النفسية، تعد التجارب حول تنشيط الجانب الإدراكي [priming] ،والتي أجريت على مدى قرن من الزمن، شاهدة على الخاصية الدلالية للربط بين الكلمة-المصدر والكلمة-الهدف. إن المسار الممثل بالخطاطة **دا 1 ← دا 2** يمَكن من إحداث تغيير فونيتيكي سياقي (مثال عملية الربط): ففي كل لغة، نرصد إذن تغييرات فونيتيكية مطردة، بحيث يؤثر السياق يسار و / أو يمين في تحقيقها. وفي الدرجات العليا، نرصد تماثلات صوتية (تجانس صوتي، جناس)، أو بديلا صوتيا (allophones) (تباين ذي دلالة). وقد حاولت أبحاث سوسير حول قلب الحروف إيجاد القواعد القمينة بمعالجة ظواهر التماثل الصوتي[75].

(ج) أحدث النوعان المتباينان للسياقية قطيعة مع التفرقة المطروحة بين مستويَي اللغة؛ وبناء عليه، يعمل المسارالتالي **دا 1 ←مد 2** على رفع الالتباس الذي يصيب المدلول من جراء التقائه بالدال المجاور. ويمنح المسار المعاكس لهذا الوضع، الممثَّل ب **مد1 ← دا1** دلالة لفظية للدال المجاور، مثل ما هو حاصل في حالة القافية. ويزودنا التنشيط الإدراكي بالعديد من الأمثلة بخصوص هذه المسارات: تنشيط صوت وحدة لغوية بالمعنى الموجود في وحدة أخرى، أو العكس؛ بل قد نصادف تنشيطا متبادلا. وتوظَّف هذه المسارات في عمليات الإنتاج كما في عمليات التأويل، وهذا ما نوضحه في هذه الخطاطة:

[75]. تنتمي ظواهر التماثل الصوتي إلى القوانين الإدراكية العامة المتعلقة بالتماثل وحسن المتابعة. ومثل كل القوانين الإدراكية، تُستغل هذه الظواهر في مجال فنون اللغة (انظر الكاتب، 1972، ص102-105). وبواسطة المحمول الآلي الذي يترجم الگرافيم إلى فونيم، نستطيع حاليا التحقق، بمعية التجارب، من الفرضيات التي صيغت حول الخاصية الدلالية للمتماثلات الصوتية (انظر بودوان، 2000، الفصل الثامن).

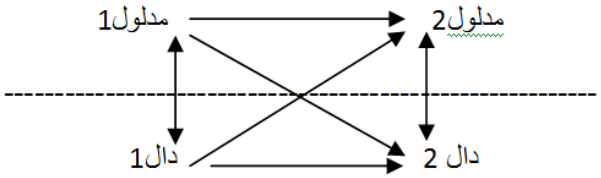

الشكل 5: المسارات التلفظية والتأويلية الأولية

وخلاصة القول، ينطلق تحليل العلاقات المكونة للمعنى بوصفه مسارا من المدلول في اتجاه مدلول آخر ومن المدلول في اتجاه الدال. وبما أن المعنى يتمثل بالأساس في شبكة من العلاقات بين الدلائل داخل النص[76]، فإن هذه الأخيرة تعتبر **مؤوِّلا** يستطيع بناء البعض من هذه العلاقات، وتظل مطبوعة بالنوع الإدراكي، مثل تقدير التشابه، والتعرف على الأشكال، والتصنيف المقولي.

ويبدو أنه من الحمق افتراض وجود مسارين تأويليين متساويين أو متتاليين، مثل ما طرحته النظرية المعرفية الفودورية في علم النفس اللغوي. فمسار المدلولات "غير منفصل عن "مسار الدلائل"،لأن العلاقات متماثلة المستوى (homoplanes)، والمتباينة المستوى (hétéroplanes)، تخضع لشروط متبادلة. وهكذا، نستبدل التلفظ بوصفه انتقالا من الفكر إلى اللغة، والتأويل بوصفه انتقالا من اللغة إلى الفكر بنموذج مشترك للبناء ولمسار الأشكال؛ فالعلاقة إذن بين الفكر واللغة قد "استبدلت" أو تجسدت في العلاقة بين مستوى الدال ومستوى المدلول.

والملاحظ أن المدلول قد يكون له السبق، أو بعبارة أخرى، بإمكان عمليات الإدراك الدلالي المعتبرة عملية تنازلية بالأساس أن تهيمن على عمليات الإدراك الفونيتيكي أو الخطي المعتبرة بأنها تصاعدية ؛ ويبقى أن نشير إلى أن هيمنة أحد هذين المستويين غير محددة قبلا، ولكنها مرتبطة بلحظة النص، وبالمهمة المزمع القيام بها أثناء القراءة. ونشير بأن مفهوم **المسار التأويلي** يمَكّن إذن من معالجة الربط الاستشكالي القائم بين مستويَي اللغة. في الواقع، أكدت الدلالة التأويلية في العديد من المناسبات أن تحيين السمات الدلالية تتطلب المرور بالمؤولين الممثلين في الدال؛ مثلا، نلاحظ أن القافية هي في العادة مؤشر على وجود علاقة دلالية بين الكلمات المتقاربة من ناحية الصوت.

5.طبقات اللغة وأقطاب العلامة

عندما أقام سوسير تمييزا بين التصور والمدلول، وبين الصوت والصورة السمعية، فإنه قد دشن بذلك سلسلة من التمييزات يتعين الرجوع إليها. وتهم هذه التمييزات العلاقة بين الشكل والجوهرعند هيلمسليف، وهي العلاقة التي أوضحها التقابل بين التصور البراغي والتصور الدانماركي حول الوحدة الدلالية الصغرى. وتذهب حلقة براغ اللسانية إلى أن السمات الدلالية عبارة عن وحدات دلالية مشروعة، بينما لا يأخذ هيلمسليف بعين الاعتبار إلا صور المضمون المجردة، ويحيل على مستوى آخر من التحليل، بل على حقول معرفية أخرى مثل الدلالة نفسها.

[76] . نمدد إشكالية القيمة لتشمل النص، وللتذكير، فالقيمة هي أساس الدلالة الاختلافية.

أشكال وخلفيات دلالية وتعبيرية.- لا يجب الخلط بين الوحدات **الأولية** الممثلة في الكلمات وفي المورفيمات على وجه التدقيق، ووحدات التحليل **الدنيا** الممثلة في النص. وفي هذا السياق، نستعمل هنا مصطلح "دنيا" بمفهوم "أساسية"، لأن أخذها بعين الاعتبار يتحكم في تعيين الوحدات الأولية. وبما أن النصية لا تجعل النص مختزلا في سلسلة من الكلمات، فإنه قد اتضح أن التخيل المنطقي-النحوي في التأليفية غير قادر على وصف الوحدات النصية؛ لذا، يتعين تصورها على أنها أشكال دلالية وسيميائية. وهكذا، أقدمنا على تدشين سيميائيات الأشكال الدلالية والتعبيرية، مع الاعتراف بأن الشكل ليس إلا لحظة تثبيت في سلسلة من التحويلات[77]. وفي هذا السياق، فإن مواقع الأشكال لا تعتبر بالضبط علامات مفصولة ومتماثلة، ولكنها **مقاطع** (انظر أعلاه، الشكل 3). فعلى مستوى التعبير، نعتبر المقطع **قطعة** منحصرة بين بياضين إذا تعلق الأمر بسلسلة من الحروف، ونعتبره منحصرا بين وقفتين إذا تعلق الأمر مثلا بجُمل ذات اتساق بلاغي على المستوى الشفوي. ويمكن للقطعة أن تحيل على المتتاليات الموسعة المتصلة بالنص بواسطة قواعد التماثل الصوتي أو التطابق بين الكلمات.

وعلى مستوى المضمون، نعتبر المقطع **مقتطفا** يشير إلى سياقاته اليمنى واليسرى، البعيدة والقريبة، بواسطة التشاكلات والاطرادات التيماتية والجدلية والحوارية[78]. وهذا التعريف المقترح للمقتطف جائز بصورة اختزالية بالنسبة لمضمون الكلمة، كما لمضمون المركَّب أو الاتساق البلاغي.

ويتكون مضمون **المقتطفات** من الأشكال الدلالية، ومضمون **القطعة** من الأشكال التعبيرية. والأشكال الدلالية هي **جزيئات دلالية**[79] (تجمعات مثبتة من السمات الدلالية)، ونعتبر الأشكال التعبيرية جزيئات **فيمية** (يشير الفيم هنا إلى كل عنصر في التعبير)، سواء كان فونولوجيا، أو نبريا، أو خطيا، أو ترقيميا). وتظهر

---

77. تبنى كل من كاديو وڤيزيتي (Cadiot et Visetti) نظرية الأشكال الدلالية (انظر الكاتب، 1989، 1994، 2001)، وناقشا عناصرها وأعادا صياغتها في إطار النظرية المعرفية.

78 . للتعريف بالمستوى التيماتي والجدلي والحواري يجب الرجوع إلى نظرية راستيي (2001)، ونوجزها كما يلي: ترتكز دلالة النصوص على فرضية أن إنتاج النصوص وتأويلها تفاعل لامتوالي لأربعة مكونات دلالية مستقلة، وهذه المكونات هي الموضوعاتية والجدلية والحوارية ثم التكتيك. وسنعطي نبذة عن كل مكون:

-**الموضوعاتية:** وهو المكون الذي يدرس معجم النص، ووحدته الأساسية هي "التيمة" التي تعرف بأنها تجميع مُنظم للسمات. وهناك صنفان من التيمات: التيمات النوعية (thèmes génériques) والتيمات المخصِّصة (thèmes spécifiques). أما الصنف الأول، فيتم التعرف عليه بواسطة سمة أو مجموعة من السمات النوعية المطردة. وللتذكير، فاطراد السمات بجميع أنواعها يحدد التشاكلات، أو شبكة من التشاكلات النوعية في السياق نفسه.

- **الجدلية**: وهو مركب سيميائي ينظم تسلسل الفواصل الزمنية في النص، بما أنه يقوم برصد جميع السيرورات، كما يتضمن من بين نظريات أخرى نظرية السرد، بحكم أنه يعالج الفواصل الزمنية والتطورات التي تحدث. ويستند التحليل في هذا المكون إلى مفاهيم رائجة في السيميائيات الخطابية، مثل الفاعل (*acteur*) والعامل (*actant*)؛

- **المستوى الحواري** (*la dialogique*) : يعالج هذا المستوى توجيه الوحدات الدلالية في كل درجات تعقيد النص. والمفهوم االذي اشتغل عليه راستيي في هذا المكون هو مفهوم الكَون بوصفه مجموعة من الوحدات النصية المرتبطة بعامل أو بموقع التلفظ. وعلى العموم، يعالج المستوى الحواري العلاقات الجهية بين الكون الممثل للفاعلين والعوالم المرتبطة بها (العالم الواقعي، العالم المُتخيل، العالم الممكن). وفي النصوص العلمية، يعتبر الإيطوس والمتلفظ والقارئ مفاهيم فرعية تنتمي إلى المكون الحواري.

- **التكتيك**(la tactique): يعالج هذا المكون الأخير التنظيم الخطي للوحدات الدلالية على مستوى كل الدرجات، وبواسطته يمكن دراسة التموقع التسلسلي للمدلولات، والتموضع الخطي وغير الخطي للوحدات الدلالية.

وتقوم هذه المكونات بتتبع المعنى النصي في كل الدرجات، أي درجة المورفيم والكلمة والفقرة والمقطع والنص. وخلاصة القول إن كل نص يحتوي على الأقل على مكونين ضروريين هما الموضوعاتية والتكتيك. للمزيد من التفاصيل، انظر الخطاب، 2017، الفصل الثامن (المترجم).

79. الجزيئة الدلالية هي تجمع ثابت من السمات، غير معجمة بالضرورة، مثلا تتكون التيمة أو الفاعل من جزيئات دلالية (المترجم).

التحولات بواسطة التغيرات الحاصلة في السياق، وبواسطة التغيرات الدلالية والتغيرات التعبيرية، وتنضاف إلى كل هذا التغيرات الحاصلة على مستوى العلاقة بين المضمون والتعبير. وبناء عليه، يمكن تمثيل تطور الشكل السيميائي على الشكل الآتي، وفيه نوضح أن الميتامورفوزات[80] هي عبارة عن تغيرات في الأشكال، والتحول (métatopie) هو تغير يطرأ على المضمون الدلالي.

شكل دلالي أ > ميتامورفوزات > شكل دلالي أ

مضمون دلالي ب > تحول > خلفية دلالية ب

---------- ----◄----- ----------

شكل تعبيري ج > ميتامورفيزم > شكل تعبيري ج

خلفية تعبيرية د > تحول > خلفية تعبيرية د

الشكل 6: تحولات الأشكال والخلفيات[81]

إن إعادة تعريف "العلامة"، بوصفها مقطعا، يقود إذن إلى اعتبار أن الوحدات النصية هي لحظات مثبتة في سلسلة من التحولات النصية والتناصية المرتبطة بالخطابات، والحقول الأجناسية، والأنواع، والأساليب. وهكذا، ينتج السيميوزيس من خلال عملية الربط بين الخلفيات الدلالية والتعبيرية من جهة، وبين الأشكال الدلالية والتعبيرية من جهة ثانية؛ ونلاحظ الشيء نفسه داخل كل مستوى، مستوى المضمون والتعبير، أي أن هناك علاقة مطابقة بين الأشكال والخلفيات. ويتعين علينا الكشف عن العلاقات بين الخلفيات التعبيرية والأشكال الدلالية، وبين الأشكال التعبيرية والخلفيات الدلالية ، وقد تمت دراستها، ولكن بصورة جزئية، في حقل الدراسات الأسلوبية.

ظلت الإشكالية المنطقية-النحوية خاضعة لهيمنة النموذج القائم على ثنائية الوحدة والعلاقة، وهي الثنائية التي تفترض تمييزا أنطولوجيا مرجعيا، وقد كانت وراء التقابلات بين الوحدات المقولاتية والمقولات داخل السياق، وبين المحمولات والموضوعات، وأيضا التقابلات بين الكلمات المعجمية وأدوات الربط، وبين عُقد وروابط الشبكات الدلالية والخطوط البيانية التصورية. غير أن النص لا يختزل في سلسلة من القضايا، لأن الأشكال النصية تملك دلالتها الخاصة بواسطة سير عملها كما بواسطة القيمة المضافة المرتبطة بها. وبانفلاته من الأطومية المنحدرة من التقليد النحوي، مكَّن التصور المورفودلالي من توظيف مفهوم المسار التأويلي، ولا نهتم هنا بما مفاده أن تمثيله يتضمن ديناميات على مستوى الفضاء، أو إيقاعات على مستوى الزمن؛ فالمشكل الأساس للتقطيع يصاغ على هذه الشاكلة: يمَكِّن الإيقاع من إدراك الفاصل وحركة التكتم على المتتالية. وتُظهر هذه المفاهيم الوسيطة العلاقة بين الشمولي والمحلي بطريقة أقل بساطة وأقل سكونا من تلك التي تجمع بين العنصر والمجموعة، أو حتى تلك التي تجمع بين الكل والجزء. أضف إلى ذلك أن الولوج إلى الشمولي بواسطة المحلي في مسألة الحفظ يمر إذن عبر الأشكال الدلالية والتعبيرية.

وتنتمي الدلالة (المحلية) إلى الإشكالية المنطقية-النحوية، وينتمي المعنى (الشمولي) إلى الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية. وبما أن الأولى تتجاهل مستوى النص، فإن الثانية تحتويه وتتجاوزه، إذ لا تعدو الدلالة

---

[80] . ميتامورفيزم : تحول موضوعاتي وجدلي (سردي) وحواري أو تكتيكي-موضعي، أنظر راستيي 2010، ص352 (المترجم).

[81] . أوضح لنا الكاتب في حديث شخصي معه أن مصطلح " fond" لا يعني المضمون وإنما الخلفية الدلالية (المترجم).

اللفظية أن تكون في الواقع تجريدا للسياقات التي تثبَّت فيها العلامات[82]. وهكذا، نعتبر المقطع الموضعَ الأول لبلورة المعنى، بدلا من اعتباره الموقع الذي تأتي إليه دلالة لفظية مشفَّرة في اللغة لتجد التعبير المطابق لها، وتخضع لتقييد معنوي داخل السياق[83].

وإذا حاولنا تأسيس الدلالة على المبدإ السيميائي القائم على التلاحم بين مستويي اللغة، فإننا لن نعثر على تناقض بين السيميائيات والهيرمينوطيقا، بما أن العلامات لا تحدد ولا تتكون إلا في المسارات التأويلية، وفيها توصف على أنها نتاج وبداية انطلاق التحليل. وبناء عليه، لن نقوم بإخضاع السيميائيات للإشكالية المنطقية-النحوية[84]، وسنستند بشكل خاص إلى تحليل بعيد عن الأنطولوجيا التي هيمنت على التفكير السيميائي، وسنعتبر المقطع مصطلحا **براكسيولوجيا** ، لأنه ينتج عن سلسلة تقوم على مجموعة من العمليات، جينية وتأويلية على حد سواء، وفيها يقاس المدى على وجه الاحتمال بالنظر إلى وجهَي النص من قبل الذاكرة قصيرة المدى.

إن الممارسة التأويلية تختار المقاطع، وذلك بوسمها بعدة قيم. ففي المقام الأول، تنحو المقاطع المتقاربة إلى تبادل السمات الدلالية بواسطة عملية الانتشار، بما أن تموضعها بطريقة متوازية يخضعها لعدة سياقات على النحو المعكوس[85]. ويمَكن اختيار وتحليل المقاطع من (إعادة) بناء قدراتها التقييمية، وبث التقييمات المعترف بها في اتجاه مقاطع أخرى. ويتجلى الأثر الذي تتركه المسارات التأويلية في بث قيم المقاطع المختارة داخل النص، بصورة مشابهة لما يقع في الإيكونولوجيا، حيث تكشف الأجزاء الصغيرة عن بناء المجموعة.

وتأتي بعد ذلك عملية ربط هذه القيم الداخلية بالقيم الخارجية التي جلبها التأويل. إن القيم الدلالية الملازمة، والقيم الاجتماعية المنقولة بواسطة المعتقدات تكون متعالقة، مثل تعالق اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية (انظر الكاتب،b 2006). وتقوم الموضعة التأويلية بأكثر من تحويل قيم إلى وقائع، إذ إن وظيفتها تتمثل في التعرف على واقع القيم، وذلك بإعادة المشروع الذي كان وراء بلورة النص انطلاقا من التخمينات.

وكان سوسير يسعى إلى الربط بين نوعين من القيم: القيمة الداخلية والقيمة الخارجية، وتنتمي الأولى بحسب التقليد إلى التقابلات اللغوية، ولكنها تنتمي أيضا من وجهة نظري إلى التقابلات التي تظهر في السياق (انظر الكاتب وآخرون، 1994)؛ أما الثانية، فتتمثل على سبيل الإيضاح في التبادل النقدي، وهذا الأساس الائتماني

---

[82] . انظر خاصة سوسير الذي قال :" في كل علامة معينة تقحم وتتبلور لاحقا قيمة معينة [...] ، ولا تحدد إلا بواسطة مجموع العلامات الحاضرة أو الغائبة في الوقت نفسه؛ وبما أن عدد العلامات ومظهرها المعكوس والنسبي يتغير من حين لآخر وبصورة لانهائية، فإن نتيجة هذا النشاط، بالنسبة لكل علامة، وبالنسبة للمجموع، تتغير أيضا من حين لآخر في إطار قياس غير قابل للحساب" (*ELG*, p. 88).

[83] . تقود الدلالة التي تعتبر مستقلة بل ومنفصلة عن التعبير إلى إعادة ثنائية المادة والفكر التي أخرت تكوين الدلالة اللغوية، وما زالت تبرر كونية الدلالة المعرفية. وبصورة مفارقة، ذهبت سيميائيات گريماس في الاتجاه المعاكس لسيميولوجيا سوسير، مؤسسة بذلك علم السيميائيات انطلاقا من الدلالة الكونية المتعالية على مختلف أنساق العلامات، غير أن أساس السيميائيات لا يوجد في الدلالة؛ وبما أن المعنى لا يكشف إلا من خلال التعبير، فإن السيميوزيس هو الذي يُكون حقيقة موضوع السيميائيات.

[84] . تنبني الإشكالية المنطقية-النحوية على عملية الاستخلاص، ووضع القوائم، وتصنيف الأنواع، بطريقة تسمح بنزع الوحدات من السياق، واعتبارها وحدات مفصولة تتمتع بدلالة لفظية حقيقية وثابتة: فالإشكالية السالفة تقوم بتقسيم معنى النص إلى دلالات معجمية، وتقلص القيم إلى وقائع يفترض أن تكون موضوعية بطريقة تسمح بوضع نمذجة أنطولوجية قائمة على علاقات أساسية.

[85] . فصلنا إحدى الأمثلة عند بالزاك بالتقريب بين وصف جوديث الشابة في رواية *Le médecin de campagne* (1833)، ووصف أطالا جوديسي في رواية *La cousine Bette* (1846) ، ونفهم أن أطالا جوديسي تملك الخصائص البالزاكية باعتبارها يهودية، لأن اسمها ناتج عن تحويل لاسم جوديث؛ أما الاسم الجديد للحي الباريسي الذي كانت تقطنه (*la petite Pologne*)، فقد وقع تحفيزه، لأن جوديث المرتبطة بسنة 1833 ظهرت في گيطو بولوني، الخ (الكاتب، 2007).

يلزمنا باستنتاج انتمائها إلى المعتقدات،أي بالمفهوم الهيلمسليفي، إلى مستوى جوهر المضمون المكوَّن من التقديرات الجماعية[86].

ونسلم إذن بأن "التقديرات الاجتماعية"، التي رأى فيها هيلمسليف عن حق مستوى جوهرالمضمون، مرتبطة بالنصوص أو بالإنجازات السيميائية الأخرى؛ وبعبارة أخرى، فإن الأمور الغامضة الخارجة عن نطاق اللغة ليست إلا الوجه الآخر للاختزال المنطقي-النحوي في اللسانيات، إذ تتمظهر في النصوص وفي التناص، علما أن المقاربة المنطقية-النحوية لا تستطيع إدراك النص والتناص. وهكذا، تتعلق القيمة الخارجية بالمعايير الدلالية الخاصة بالأجناس والخطابات، أما "الشكل الداخلي"، فلا يعدو أن يكون مكونا من اطرادات لم تستطع اللسانيات وصفها، مثل الإيقاعات الدلالية والفونيتيكية في درجة النص .

ونصادف هنا تصورَين للاطرادات النسقية: اطرادات في الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية، وتتمثل في المعايير المتغيرة لأنها متعلقة بالحالات والممارسات والأجناس والخطابات، هذا فضلا عن انتمائها إلى منهجية التخلي عن الأنطولوجيا؛ وبالمقابل، في الإشكالية المنطقية-النحوية، تتمثل الاطرادات في القواعد والأكسيومات المتسمة بالكونية والمُحيلة بالضرورة إلى الأنطولوجيا المستقرة (سواء كانت أنطولوجيا المقولات المعرفية أو أنطولوجيا المقولات الموضوعية، أو ما "*هناك في الخارج*" بحسب تعبير روتش(Rosch)). وبالرغم من عدم معالجتها للمعايير، تظل هذه الإشكالية المعيارية هي السائدة في علوم اللغة.

وإذا كانت قواعد اللغة تعتبر متغيرات، فإن المعايير ترتبط، من حيث ظهورها كما من حيث تطبيقها، بالتغيرات الحاصلة على المستوى السياقي والتناصي والمحددة بواسطة الحالات والممارسات والتاريخ. وللتذكير، فإن التعالق بين الدياكرونيا والسانكرونيا (أو اللاتحديد الزمني في المنهجية) يوظَّف هنا على وجه الاحتمال في إطار الزمن الثابت.

وخلاصة القول أنه يتعين علينا - في إطار التلفظ -إعادة تصور الربط بين المعايير وفضاء القواعد؛ وفي التأويل، يتعين علينا دراسة العلاقة القائمة بين التأويل التقني والتأويل النحوي (بحسب تعبير شليرماخير)[87].

ويتمتع الإطار البلاغي-الهيرمينوطيقي بالشمولية، لأنه إذا كان لا يستطيع تصور القواعد النحوية بسبب الاختزال، فإن العكس غير صحيح، بما أن الإطار المنطقي-البلاغي لا يسمح بالتوسع ليشمل الحالة والتاريخ (وهذا ما يفسر الشكوك التي تحوم حول التداوليات الصورية ودلالة الحالات الصورية). وهذا مطابق للواقع الذي يرى أن المستمر يعالج المفصول، وليس العكس.

الفحوى والمدى.- ساعد النموذج الأولي للموضوع الثقافي المقدم في أبحاثنا السابقة (انظر الكاتب، 2011) على استكمال مفهوم العلامة. ونمثل لمقترحاتنا بالشكل الآتي:

---

[86] . يخلق تمفصل نظامي القيمة مشكلة (انظر زيلبيربرگ، 1987؛ بيوتروفسكي، 1997)؛ ويتعلق الأمر بالنسبة لنا بالترابط الحاصل بين التقييمات اللغوية والقيم الاجتماعية (ومنها قيم المبادلات الاقتصادية التي لا تمثل سوى حالة خاصة، أي عيّنة لأنها خاضعة للمعيار).

[87]. في التقليد الهيرمينوطيقي، تغيرت المصطلحات على نحو طبيعي، وطرح شليرماخير مصطلح **التأويل التقني** مقابل مصطلح **التأويل التاريخي** الذي استعمله سلفه**.** ثم إن التمييز نفسه بين المعنى والدلالة اللفظية نتج عن التمييز الذي كان قائما بين نمطي التأويل.

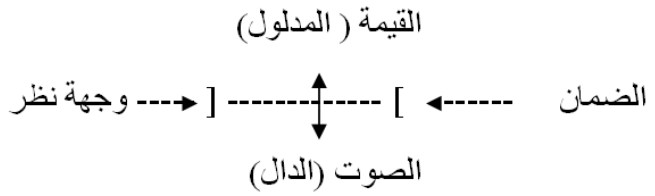

الشكل 7: العلامة باعتبارها موضوعا ثقافيا

(أ) تنتمي الثنائية السيميائية بين القيمة والصوت (وهي مصطلحات تشير على التوالي إلى المضمون والتعبير بالنسبة لكل نسق من العلامات) إلى اللسانيات الداخلية.

(ب) تحيل الثنائية الشاملة والقائمة بين وجهة النظر[88] والضمان على التقاليد الفيلولوجية (فوجهة النظر تعد "توقيعا" والضمان يعتبر تأصيلا)، والبلاغية (بالنسبة لوجهة النظر التي تعتبرها إيطوسا)، والهيرمينوطيقية (فيما يخص المسائل النقدية حول المصداقية).

في إصداراتنا السابقة، قمنا بتعريف السيميوزيس على أنه علاقة بين الصوت والقيمة، ونسمي فيما سيأتي **الفحوى** المجموعة المكونة من ثلاث عناصر هي [الصوت (الدال) < السيميوزيس> القيمة (المدلول)] . وموازاة مع هذا، نشير من خلال مصطلح **إيطيزيس**[89] للعلاقة التي تربط بين وجهة النظر والضمان، ونقترح مصطلح المدى (portée) للدلالة على المجموعة المتكونة من ثلاثة عناصر هي:

[وجهة النظر < إيطيزيس>الضمان] .

وقبل تفصيل التمفصل الحاصل بين الفحوى والمدى، سنوضح وضع قطبَي وجهة النظر والضمان.

أ- يمكن اعتبار وجهة النظر تعبيرا نابعا عن فرد، أي تعبيرا عن الذات الموسومة في اللغة. وفي محاولة منا لتجاوز الضمائر والروابط والأدوات الإشارية الأخرى، فإن مفهوم وجهة النظر يهم كل درجات الوصف اللساني: مثلا، داخل طبقة معجمية، تعتبركل عتبة تقييمية تغييرا في وجهة النظر(ومثال ذلك جملة *إنه ليس كبيرا، ولكنه عملاق*). أما ما يتعلق بالتعبير، فإن وجهة النظر تترجم بواسطة اختيار اللغة، أو أحد مستوياتها (دياكرونية، لغة جهوية، لغة متميزة من حيث الأسلوب)؛ وفيما يتعلق بالمضمون، تترجَم وجهة النظر بالاختيارات التيماتية، والحوارية، والجدلية. وهذه الاختيارات التي يمكننا تفصيلها في كل مستويات المضمون أو التعبير تحدّد الإيطوس المندمج.

---

[88]. انبثق مفهوم وجهة النظر من التفكير في المعرفة بوصفها مرتبطة بحالة ما وبالمُلاحِظ. وقد أقحمها كل من باسكال (*Pensées*, 7) وليبنتز (*Monadologie*, 57) في ميدان الهيرمينوطيقا، بحيث سيعاد استخدامها من أجل تجديد نظرية السكوبوس (*Scopus*) العتيقة (القصد التوجيهي للنص أو للكاتب). وقد أدرج سوسير مفهوم وجهة النظر في إبستيمولوجيا اللسانيات، بصورة أكثر وضوحا من هومبولت: " إن وجهة النظر هي الوحيدة التي **تخلق** الشيء [...] وتتحدث عن موضوع، وتسمي الشيء وهو لا شيء غير استدعاء وجهة النظر الواجب تحديدها" (*ELG*, p. 323) ويضيف سوسير ما يلي: " ونستنتج بسرعة أن اللسانيات لا تعود إلى[...] ولكن - من حيث المادة - إلى نقاش حول وجهات النظر المشروعة، ومن دون كل هذا لا يوجد موضوع." (*ELG*, p. 351).

[89] . هذا المصطلح (éthésis) مشتق من *éthos*، ويحيل من جهة على وجهة النظر التي يبرزها الكاتب من خلال الصورة التي يرسمها لنفسه، ومن جهة أخرى إلى الأخلاق فيما يتعلق بمسألة الضمان. ونستعمل مفهوم الأخلاق (أو الإيتيك) بمعنى المعيار النقدي، مع الإشارة إلى ما سماه سوسير "حياة المجتمعات" الشاملة ل "حياة العلامات" التي تتسم بالبعد التطبيقي، وترتكز على البراكسيولوجيا.

ب.-الضمان[90] هو معطى ائتماني يمثل شرطا للتأويل، ويمكن لمختلف مصادر السلطة أن تتضمن سمات داخلية وخارجية بالنسبة للنص.

(أ) تؤكد إحالات النص مثلا في الهامش هذه التصريحات بواسطة المكانة العالية الممنوحة للمصادر[91]، ويقوم متن الإحالة بإلحاق النص بالجماعة المؤولة التي تملك سلطة منحه المكانة الرفيعة.

(ب) يمكن لمكانة المؤلِّف، المتعلقة بإمضائه، أن تصبح الضمانَ الأساس للنص، وقد لاحظنا أن الكُتاب، عندما يحققون الشهرة، يقلصون تدريجيا من عدد الإحالات الصريحة.

(ج) قد ترتبط مكانة الركيزة أحيانا بجودة مواده، وأحيانا أخرى بشهرة دار النشر، بل وبعمليات الاختيار.

وبالإضافة إلى كل هذا، يوضع مشكل فحوى العلامة (مزاوجة الدال والمدلول) تحت مفهوم المدى(وجهة النظر والضمان). وتقود هذه الأمور إلى إدراج مسألة المسؤولية، التي تهم الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا، وكذلك الأخلاق.

وإذا اختزلنا العلامة في ثنائية الدال والمدلول، مثل ما قام به محررو كتاب «**الدروس**»، فإنه يتعين علينا التوافق حول فرضية مفادها أنها تملك دلالة لفظية، وليس لها معنى، مثل ما سيكون عليه الأمر بخصوص حدث خام غير مؤوَّل. ويمكن إعطاء مثال الكشف عن توارد في نص ما، واستحالة مقاربة معناه إلا باسترجاع الثنائية القائمة بين وجهة النظر والضمان.

وبناء عليه، فإن الثنائية ذات السلَّمية العليا والمتمثلة في الفحوى (القيمة / الصوت) والمدى (وجهة النظر / الضمان) هي التي يجب دراستها. ويظل تمفصل هاتين الثنائيتين الأساسيتين صعبا مثل ما يظل ضروريا، ذلك أن التقابل بين القول وما قيل، وبين الملفوظ والتلفظ في اللسانيات، وبين النشاط (*energeia*) والعمل المُنجَز (*ergon*) عند هومبولت وكوسيريو، وبين الحكي والسرد في الشعرية، وبين التأويل النحوي والتأويل"السيكولوجي" في الهيرمينوطيقا، وبين التركيب والدلالة من جهة، والتداوليات من جهة أخرى، في السيميائيات المنتسبة إلى الوضعية المنطقية، يعد شاهدا على هذا المشكل، من دون أن يكون هناك، حسب علمي، احتمال صياغته بمصطلحات اللسانيات النصية المدعمة بالسيميائيات.

ومن جهة أخرى، يوجد محورا السيميوزيس والإيطيزيس في علاقة مطابَقة على الوجه الأكبر مع المعرفة والتواصل، إلى الحد الذي يتخذان موقعهما، ولكنهما يرفضان التفرقة. وفي الواقع، تظل الإشكالية المعرفية مرهونة بالتفكير الثنائي الذي يمنع من التفكير في السيميوزيس، ما عدا في حالة اعتباره تطابقا بين الفكر، المفترض بأنه مستقل عن العلامات اللغوية (على الرغم من أنه منظم في شكل خطاب مكون من علامات داخلية)، واللغة المختزلة في الخاصية الخارجية للدال. أما ما يتعلق بإشكالية التواصل، في الشق الذي يهم دراسة وسائل الإعلام، فإنها تأخذ بعين الاعتبار البعد الاجتماعي في نقل "الرسائل"، ولكنها لا تعير أي اهتمام لقيمتها وسلَّميتها، بل ولا تلتفت لمسألة الولوج إليها.

إننا نعتبر الوساطة بين **الفحوى** و**المدى** عبارة عن **سلسلة من الحركات المتسقة** في ممارسة ما مشكَّلة بواسطة المعايير النصية، ولا نعتبرها مجرد تسجيل أو سكب للفكر في اللغة. ويتجسد البعد الذاتي و/ أو

---

[90] . "الضمان" مفهوم فيلولوجي، أما "وجهة النظر" فهو مفهوم هيرمينوطيقي (المترجم).

[91] . يفرض أحد المعايير السائدة في اليهودية الحاخامية مثلا حظر انتقاد آراء معلم قديم إلا بمقابلته بمعلم أقدم منه، أو على الأقل مضاه له من حيث القدم.

الاجتماعي المنتسب إلى اللغة (وإلى اللسانيات بصورة ثانوية) في المدى؛ ويتجسد البعد الموضوعي، الذي يعتبر أمرا عاديا في التقليد المنطقي-النحوي، في الفحوى. وتجدر الإشارة إلى أن الفحوى نابع من المدى، ولكن الحركة التي تختزله (أو تلخصه) تنتمي كليا إلى النص بوصفه ممارسة، وغالبا ما لا يتم التعرف عليه إلا من خلال هذه الممارسة[92].

وبالإجمال، نطرح ما يلي: (أ) بالإمكان معالجة الثنائية السيميائية القائمة بين القيمة والصوت في إطار اللسانيات الداخلية، وفي سياق السوسيرية الجديدة. (ب) أما الثنائية الشاملة المتضمنة لوجهة النظر والضمان، والمنتمية إلى التوسيط السيميائي، فإنها تستدعي، كما أشرنا إلى ذلك سالفا، الاعتماد على قواعد تعود أصولها إلى التقاليد الفيلولوجية والبلاغية والهيرمينوطيقية. ويمكن لهذه التقاليد، وهذا هو ما نصبو إليه، أن تتوحد في إطار اللسانيات الخارجية التي تتجاوز التداوليات، وتربط علاقات واضحة مع اللسانيات الداخلية.

إن هيمنة الإيطيزيس على السيميوزيس يترجم في نهاية المطاف تحديد اللسانيات الخارجية من قبل اللسانيات الداخلية، فالضمان يعمل على تصديق الصوت من خلال المصادقة على الشكل القانوني، كما أنه يعطي الشرعية للقيمة المرتبطة به من خلال التأويل. وتتأسس الأصالة الفيلولوجية والشرعية الهيرمينوطيقية إذن عبر المسار التأويلي الشامل.

التوسع السيميائي.- مع توسع وسائل الإعلام المتعددة وشيوع السيميائيات المعقدة، لم يعد المشكل الأساس الذي يطرح على السيميائيات هو تصنيف العلامات، ولا حتى اللغات، ولكن المشكل الذي بات يطرح هو: كيف تتفاعل مختلف الأنظمة السيميائية، مهما كانت مادة تعبيرها؟ وقد طُرح المشكل في الماضي في صيغة تسمح باللجوء إلى مصطلحات تعود إلى قدرات الروح والإحساس، ونعالجه اليوم بأدوات تعود إلى العلوم المعرفية[93]. ويميل الرأي العتيق، المصاغ بطرق مختلفة أثناء النقاش الكلاسيكي بين الشِعر والرسم، إلى الفرضية القائلة إن الشعر ما هو إلا رسم متكلم، والرسم لا يعدو أن يكون شعرا صامتا، بحسب تعبير سيمونيد (Simonide).

باختصار، مكَن الاعتقاد في وجود مستوى تصوري مستقل من التسليم بفرضية تفاعل ترجمة الأنظمة العلاماتية، وهذا ما يفسر بلا شك الافتتان الذي مارسته دراسة الشعارات، وكان من الضروري انتظار مؤلَّف ليسينگ[94] بعنوان *Le laocoon* لوضع علامات استفهام على المبدإ الكامن وراء هذه الترجمة.

غير أن الوضعية المنطقية أعادت مفهوم الترجمة، وذلك بتعيينها على أنها تحويل الشفرة المعرفة على أنها **تأويل تركيبي**. وفي سياق مماثل، كان جاكبسون، ومن بعده گريماس، يعرف المعنى على أنه كل ما يظل غير متغير في عملية تحويل الشفرة الحاصلة بين مختلف أنظمة العلامات (للنقاش بخصوص هذه المسألة، انظر الكاتب، 1996 a)، غير أن هذا التحويل بدون مخلفات غير ممكن إلا في حالة اللغات الصورية التي ليست لها

---

[92]. بما أن التواصل مرهون بالإيديولوجيا الإعلامية، فإن النصوص الفاقدة لوجهات النظر القابلة للتحديد وللضمان تنتشر بشدة ، خاصة على مواقع الإنترنت التي يعمل فيها الاستخفاف التجاري بالتنصل من كل ضمان. وفي هذه الحالة، لا تشمل الثنائية الأخلاقية الخاصة بالمدى الثنائية السيميائية المتعلقة بالفحوى، وإذا ما ظلت الرسائل غير قابلة لفك الشفرة، فإنها لا تصبح قابلة للتأويل، بما أنها تحتفظ بالدلالة اللفظية، وتفقد معناها.

[93] . يكمن الحل في افتراض وجود المنطق السليم الذي يقوم بإدخال المعلومات القادمة من مختلف قنوات الحواس. وفي الوقت الحاضر، أعادت النظرية القالبية في المعرفية الأورثودوكسية صياغة هذا الحل بافتراض نسق مركزي غير موجه، مطعم بقوالب حواسية جانبية ومغلقة (بحسب تعبير فودور (Fodor)). وليس لهذه القضايا التي ما زالت تناقش في الفيزيولوجيا العصبية صلة مباشرة بالسيميائيات، لأن الطبقات الفيزيولوجية لا تنتمي إلى سيميائيات الممارسات.

[94] . ليسينك (Gotthold Ephraim Lessing) ناقد أدبي وفني (1729 – 1781)، واشتهر بكتابه "اللاوكون" (1766) الذي وضع فيه الحدود الفاصلة بين الشعر والفنون التشكيلية (المترجم).

نفس القدرات التعبيرية؛ ومن جهة أخرى، وبحسب أنظمة العلامات، تختلف القدرات الدلالية بشكل كبير عن القدرات التعبيرية.

يتعين إذن تصور التمفصل الحاصل بين طبقات اللغة بطريقة مغايرة. وتتصف الإشكالية التأويلية بسمة تعدد الأنظمة السيميائية، كما تتسم بتأثير النص على المقطع، وتأثير التناص على النص؛ غير أن التناص يشمل في غالب الأحيان عناصر تنتمي إلى المتن في مختلف اللغات[95]. وإذا كان بالإمكان إذن انتماء مؤولي المقطع إلى لغة أخرى، فلماذا لا يكون بالإمكان انتماؤهم إلى أنظمة علاماتية أخرى؟

إن المشكل الذي يطرحه الربط بين النوعين المذكورين من السيميائيات ليس إذن مشكل تحويل الشّفرة، بل إنه مشكل علاقة التأويل بين مقاطع الإنجاز المنتمية إلى ضروب من السيميائيات المختلفة. وتحدد هذه العلاقة من خلال العلاقات المماثلة التي تُفعَّل في كل عملية إعادة السياق: اختيار المقاطع، وإبراز عنصر ما، والتحيين، بل وانتشار السمات الدلالية؛ غير أن هذه العملية تُفعَّل أيضا من خلال وضع الوحدات في علاقة تضاد، وتَقابُل وعلاقة تكامُل تقوم على قلب العلاقات بين الضمني والصريح، بل وبين الذي قيل وما لا يقال[96].

وإذا كان التقارب بين مقاطع الإنجاز السيميائي المختلفة تنتمي فعلا إلى حقل السيميائيات، فإن جوهرها المشترك لا ينتمي إليها، إذ ينتمي إلى مستوى التمثيلات الجماعية، التي نسميها معتقدات في إطار الإيديولوجيا أو الإبستيمي بالنسبة للعلوم، والتي تُكون بالمفهوم الهيلمسليفي إحدى المستويات المفضلة في"جوهر المضمون"، أي الخلفيات الدلالية في تصورنا.

---

[95].مثلا، تحيل الإحالة المباشرة مثل عنوان بورخيس (Borges)(*on his blindness*) على سوناتا مماثلة عند ميلطون (Milton)؛ ويستشهد بريمو ليڤي (Primo Levi) في البيت الثاني من ديوان *Il superstite* بكوليريدج في النص، الخ.

[9]. بإمكاننا الإشارة هنا إلى النصوص التي تحيل على لوحات الرسامين، مثل *Madeleine à la veilleuse* لروني شار (René) Char؛ أو ببساطة إلى عناوين اللوحات نفسها، بحيث إذا ما قمنا بتعويض لوحة **وجبة غداء على العشب** لماني(Manet) بعنوانها الأصلي أي **الحمام** ، فإن وضعية العري تتغير، بحيث تنتقل من **العري الفقير** إلى **العري الطبيعي**، وهذا "الجزء المربع" (بحسب إدارة متحف أورسي) سيصبح مشهدا أركاديا بل ومطهرا. ويكون العمل التأويلي في الاتجاهين، من الصورة إلى النص ومن النص إلى الصورة؛ وهكذا فالرسم المصغر للقبطان الذين واجهوا التحديات في أطافانطي (وبفقدانها لم تعد تعرف إلا بالوصف الذي قدمه ڤازاري (Vasari) يوضح قصيدة سيليوس إيطاليكوس (Silius Italicus)؛ أما *La calomnie d'Apelle* لصاحبها بوتيتشيلّي (Botticelli)، فإنها تعيد إلى الأذهان لوحة مفقودة أشار إليها الوصف الذي تركه بلين (Pline)، الخ.

الفصل الرابع

الثنائيات في مواجهة الفكر الثنائي

تظل نظرية الثنائيات من دون شك المركز الذي أسيئ فهمه في فكر سوسير. (أ) فقد شكلت قطيعة مع مبدأ الهوية المؤسس للأنطولوجيا الأرسطية وللمنطق البرهاني المشتق منه. (ب) ترفض هذه النظرية الفكر الثنائي التقليدي الذي يقيم مقابلة بين المادة والفكر، وبين الإدراك الحسي والإدراك العقلي، وبين اللغة والفكر، وبين المعنى والصوت. (ج) لقد أدخلتُ في ثنايا نظرية المعرفة مفهوم **وجهة نظر**، لأن كل مصطلح في الثنائية يعكس وجهة نظر معينة، ولا يمكن الإمساك بأي موضوع من دون أن نطبق عليه على الأقل عمليتين للضبط توصفان بأنهما متكاملتان وفي علاقة ثنائية.

الثنائيات.- يعالج المخطوط الأساس الذي عثر عليه في الحديقة، والذي يحمل عنون **الجوهر المزدوج للغة**، كل الثنائيات. وتشير هوامش الدرس الثاني إلى هذه المسألة من خلال هذه الجملة: "تختزل اللغة في خمس أو ت ثنائيات" (*ELG*, p. 298) وتوردها كما يلي: (1) ثنائية بين **الدال** و**المدلول** (" الجانبان السيكولوجيان للعلامة")؛ (2) ثنائية بين **الفردي** و**الجماعي** ("الفرد والمجموعة")؛ (3) ثنائية بين **اللسان** و**الكلام** (" الزوجه الثالث من الأشياء مكون من اللسان والكلام")؛ (العلامة [...] خاضعة لمعالجة مزدوجة)") (4) ثنائية بين **الإرادة الفردية** و**السلبية المجتمعية** (انظر *ELG*, p. 299). وللوصول إلى الثنائية السادسة، يتعين إضافة ما يلي:(5) ثنائية **السانكرونيا** و**الدياكرونيا**، ويستدعي هذا من دون شك ثنائية **التركيبي** و**الجدولي**[97]. وقد أنيطت بهذه الثنائيات وظيفة هامة من أجل التأسيس الإبستيمولوجي الذي لا يمت بصلة إلى النزعة الأكسيوماتيكية والاستنباطية؛ ويقول سوسيرفي هذا الشأن: "لا نتحدث عن المبادئ أو الأكسيومات، ولا عن الفرضيات: إنها ببساطة وبالمفهوم الإيتيمولوجي قول مأثور وتحديدات" (*ELG*, p. 123).

غير أنه في تقليدنا، هناك إشكاليتان تتقاسمان تاريخ الأفكار اللسانية، وتبدوان غير منسجمتين: الإشكالية الأولي، مهيمنة، وتنتمي إلى التقليد المنطقي-النحوي، وقد أسست على مبدإ الأنطولوجيا، وتقدم تحليلات مرتبطة بالعلامة؛ أما الثانية، فهي قليلة التوحد، وتعود أصولها إلى التقليد البلاغي-الهيرمينوطيقي، وقد أسست قواعدها بالاستناد إلى البراكسيولوجيا، وتقدم تحليلات مرتبطة بالنص[98]. وتتقاسم الإشكاليتان في الواقع الثنائيات السوسيرية؛ وباختصار، فإن الأقطاب المفضَّلة في التقليد المنطقي-النحوي هي اللسان، والدال، والسانكرونيا،

---

[97] . يستدعي كل شطر من هذه الثنائيات فحصا نقديا. مثلا، من الواضح أن ثنائية **الفرد** و**الجماعة** تنتمي إلى علم الاجتماع (في زمان سوسير كان هناك صراع بين علم الاجتماع المستهدف للجماعة عند دوركهايم وعلم الاجتماع المستهدف للفرد عند طارد) ولا إلى اللسانيات، ولو أنها تجد مقابلا نوعيا لها في ثنائية اللسان والكلام. وتستحق التغيرات عند سوسير بخصوص الثنائيات دراسات معمقة أكثر مما قدمه بنفنست في هذا الشأن، ذلك أن هذا الأخير اقترح قائمة غير محددة مكونة من ثمانية ثنائيات، ثلاث منها على الأقل تبدو من نسج خياله (المرجع نفسه، 1966، ص40). وما يهمنا هنا هو إقامة رابط بين الثنائيات والمنهجية السوسيرية المبنية على التأسيس الإبستيمولوجي.

[98] . يمكن الاطلاع على تقديم حول النص في بحث الكاتب الصادر سنة 2001 a. ويبدو أن سوسير اعترف بثنائية وجهات النظر، إذ يقول: "لا توجد في اللسانيات وجهات نظر مختلفة يستطيع الباحث تطبيقها كيفما يحلو له، ولكن هناك وجهتا نظر مفروضة، وناتجة عن الموضوع نفسه (سانكروني وميتاكروني)" (*ELG*, p. 263).

والمجموعة، والضرورة، في حين أن الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية تفضل الكلام، والمدلول، والدياكرونيا، والفرد، والإرادة.

وباقتراحه نظرية الثنائيات، نلاحظ أن نظرية سوسير مناقضة في المقام الأول لمثنوية جاكبسون، التي كانت إحدى الخطايا اللطيفة في بنيوية الستينيات من القرن الماضي. وفي الواقع، لا تقابل الثنائيات مصطلحا بمصطلح آخر، ولكنها تقابل مصطلحا بزوج يتكَوَّن بمعية المصطلح الآخر؛ وكل وحدة تُكوِّن ثنائية مع الكل الذي يشملها. وتقوم الثنائيات بتحديد التقابلات التشاركية بين الجزء والكل (مثل ما نلاحظ مثلا بين المنطقة المكثَّفة والمنطقة الممتدَّة في **نظرية الحالات** عند هيلمسليف)، وبعبارة أخرى، فالثنائيات تترجم الهيمنة المنهجية لوجهة نظر على أخرى. فحتى في السيميوزيس تعتبرتجسيدا للمبدإ الهيرمينوطيقي الذي يفترض أن الشمولي يحدد المحلي؛ بحيث يفترض المبدأ ذاته أن العلامة تحدد كل عنصر من أوجهها.

وبناء عليه، يقابل الحد أ الزوج **أ/ ب** ، ويقابل **ب** الزوج **أ/ ب** (وفي هذه الكتابة، يشير الخط المائل إلى الثنائية). ومن جهة أخرى، فالثنائية المكوَّنة من **أ/ ب** لا وجود لها إلا من خلال العلاقة الاختلافية التي تجمعها بالثنائيات المجاورة (في الجدول أو في المُركَّب)، ومثال ذلك [أ مقابل **أ/ ب**] *مقابل* [ج/ د] ، [س/ ص] (في هذه الكتابة، تشير كلمة *مقابل* إلى التقابل التشاركي، وتقوم الأقواس المعقوفة بتحديد الأماكن المحيلة على الشمولية). وبما أن الحدود ليس لها وجود مستقل عن الاختلافات التي تحددها، فإنها لا تعتبر عناصر ولا تخضع لمبدإ التأليفية الذي يقضي باشتقاق معنى تعبير ما من معنى العبارات الفرعية. وهذا يستبعد القول الذي يفيد إن الجمل تجميع لعدة كلمات، والنصوص تجميع لعدة جُمل، مما يستدعي إعادة النظر في ثنائية اللسان والكلام.

ثنائية اللسان والكلام.- نعتبر سوسير منظرا للكلام بصورة موازية أو أكثر من كونه منظرا للسان، و*الملحوظة حول الخطاب* هو الوثيقة التي تمثل الدليل الواضح (أنظر*ELG*, p.277)، على الرغم من أن كتاب «**الدروس**» جعل منه، على نحو خاطئ ، لسانيا متخصصا في اللسان؛ ومع ذلك استمر الباحثون في الاحتفاظ بهذه الصفة. مثلا، أسند له گريماس الفرضية القائلة بأن الكلام يفترض اللسان، وهذا هو الأمر الذي اقتبسه هيلمسليف حينما سلم بأن الحدث يفترض وجود النسق. وظل هذا النمط من المغالطات يمثل سبب اللعنة الطقوسية السوسيرية التي ألهمت لسانيات التلفظ[99]، ولاسيما في المدرسة الفرنسية المهتمة بتحليل الخطاب.

غير أن الكلام بالنسبة لسوسير عنصر محدد في ثنائية اللسان والكلام، وبتأكيده هذا، يكون قد ألمح إلى علو شأن الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية مقارنة بالإشكالية المنطقية-النحوية التي تبدو إزاء الأولى قلبا تبسيطيا، بل وتنم عن تعرضها للتبخيس. وإذا لم يكن سوسير قد برهن على أن الهيمنة النسبية تسهل الانفلات من التعارض بين الإشكاليات، فإنه قد خطط مع ذلك لمشروع توحيد مجموعة من مباحث اللغة وفروع اللسانيات في داخل السيميولوجيا، مقترحا ما يأتي: " سيميولوجيا= مورفولوجيا، نحو، تركيب، ترادف، بلاغة، أسلوبية، ت معجمية نظرية، الخ، **والكل غير قابل للتفرقة**" (*ELG*, p.45) .وفي السياق الذي يفترض أن الإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية هي إشكالية بالغة الأهمية، يوحي التوحيد بإعادة تصور اللسانيات انطلاقا من الدراسا النصية. وللإشارة، فأعمال سوسير حول الشعر اللاتيني والأساطير الجرمانية كانت مصاحبة لتأسيس اللسانيات العامة.

وفي العادة، كانت العلاقة القائمة بين النحو والإنتاجات اللغوية الخاضعة للتقعيد تعتبر علاقة بين **القوة** و**الفعل** في التقليد الأرسطي أو علاقة بين **القدرة والعمل المنجَز**، بحسب هومبولت الذي أعاد توظيفها في كتاباته،

[99]. باستثناء كوليولي، على وجه الخصوص.

أو يُنظر إليها في الأخير على أنها علاقة بين **القدرة** و**الإنجاز** عند شومسكي الذي أحال على هومبولت في هذه المسألة. غير أنه، ربما في غياب وضع هذه الثنائيات بطريقة مُرْضية، لم تتوصل أية نظرية لسانية لحل مشكل التمفصل القائم بين عناصرها.

وفي حال التوافق على أن القوة ليست سابقة في الوجود على الفعل[100]، فإن اللسان غير سابق في الوجود على الكلام، إذ يقع تعلّمه داخل اللسان، وتتطور قدرة المتكلمين خلال مختلف الممارسات الفعلية؛ "فالحلقة المفقودة"بين اللسان والكلام مكوَّنة من فضاء المعايير، وهذا ما أكده كوسيريو. لكنه، وحتى في التقليد السوسيري، تظل اللسانيتان، أي لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، مفترقتين، لأن لسانيات المعايير لم تؤسس بعد[101].

وفي الوقت الحاضر، تمنح لسانيات المتن الوسائل النظرية والتقنية لدراسة فضاء المعايير، وتحويل التعارض الخاطئ بين اللسان والكلام إلى ثنائية. ولتحقيق هذا الهدف، يتعين إجراء دراسة مقارنة تخص الخطابات والحقول النوعية والأجناس، بل والأساليب، وسيمثل هذا البحث منتهى إشكالية اللسانيات المقارنة[102]. وإذا ما عمدنا إلى قياس التنوع الفعلي للخطابات، والحقول النوعية[103]، والأجناس، فإن النواة غير المتغيرة التي نسميها **لسانا** تتقلص بشكل كبير لتصبح قائمة من المورفيمات، وتختزل في القيود، مثل بنية المقطع الفونولوجي، وبنية المُركب، الخ. فمثلا لا تنتمي الليكسيمات إلى هذه المجموعة، لأنها تعتبر أصلا ظواهر متصلة ب"الخطاب"[104]؛ ولا يوجد نص كُتب فقط "داخل اللسان" بما أنه مكتوب في إطار نوع ما، وفي خضم خطاب معين، مع مراعاة بطبيعة الحال القيود التي يفرضها اللسان.

وما بين الفضاء المعياري للقواعد والفوضى الظاهرة للاستعمالات، وما بين كونية اللسان وتفرد الاستعمالات، نلاحظ أن فضاء المعايير يمتد من عمومية المعتقدات إلى خصوصية المفارقة. إن ثنائية اللسان والكلام لا تمثل تناقضا، ذلك أن قواعد اللسان تعتبر من دون شك معايير عريقة، وإنجازات الكلام ليست بطبيعة الحال خالية من المعيرة، بما أنها تضع وتظهر قواعد اللسان، ومختلف المعايير المجتمعية المتصلة باللغة.

وباختصار، تتخذ اللسانيات لنفسها، **من باب المشروعية**، موضوعا يتمثل في وصف فضاء المعايير، إذ عِوض سن القواعد، كما كانت العادة في الماضي، بالتأشير على الملفوظات على أنها مقبولة- في حين أنها موثقة- يتعين على اللسانيات وصف هذه الأمور سالفة الذكر؛ ولهذا الغرض يجب عليها استغلال المتون[105]. وبمعية مناهج

---

[100]. انظر أسفله، الفصل الخامس.

[101]. نعتقد، ربما على نحو خاطئ، أنه لا يوجد علم المعايير: وقد يكون عبارة عن مجموعة قواعد أخلاقية تنفلت من القواعد الناجمة عن المتخيل المنطقي-النحوي، بواسطة خاصيتها النسبية والمشروطة، بل وتنفلت من المتخيل العلمي للقوانين. وبناء عليه، يجري تصور العلاقة بين اللسان والكلام على العموم، تارة على أنها انتقال من الافتراضي إلى الواقعي، وتارة أخرى على أنها انتقال من القيود إلى الحرية. وفي كلتا الحالتين يجد المرء صعوبة في التوفيق بين الافتراضات الإلزامية في اللسان والحريات الحالية في الكلام. وفي الواقع، لا يعتبر الانتقال من اللسان، بوصفه وحدة مجردة، إلى الكلام فقط تدنيا في درجات النسقية المنخفضة (المتناقصة) ولكنه يعتبر أيضا تدنيا في الأوضاع الإبستيمولوجية المتنوعة.

[102]. انظر الكاتب، 2011، الفصل الثالث.

[103]. الحقول النوعية هي تجميع للأنواع (الأجناس)، مثل الشعر والمسرح.

[104]. ولهذا السبب لا ينتمي المعجم، على الأقل معجم الكلمات، إلى اللسان. وفي واقع الأمر وبما أن المستوى المُركَّبي ينتمي إلى الكلام، فإن الكلمات هي أيضا تكوينات نصية (بخلاف المورفيمات).

[105]. ليس لها الحق في الحكم بالمقبولية أو عدمها، إذ إن النظريات المعيارية هي التي تخلقها وتصبح بالتالي غير مقبولة؛ فدراسة النصوص هي التي تخول لنا استرجاع المعايير اللغوية السارية المفعول. واللغة هي بكل بساطة ما يساعد على مقارنة عناصر المتن: ولبلورة الاطرادات يجب التحقق من فرضيات التماثل (في السانكرونيا) والتجانس (على الرغم من التباينات على مستوى المكان والقائمة). وتوضح دراسة المتن أن المعجم والمورفولوجيا-التركيب والطريقة التي تطرح بها المشاكل الدلالية من قبيل الغموض والضمني، وكل هذا يختلف باختلاف الأنواع والحقول النوعية والخطابات. ويمكن التوسع في التحليل للوصول إلى الأساليب بوصفها ظواهر لغوية، وليست فقط ظواهر أدبية (انظر الكاتب،b 2001، الفصل السادس). وقد أكد سوسير في التقرير الذي أنجزه بمناسبة

لسانيات المتن، نتوفر حاليا على وسائل جديدة تساعد على إجراء اختبار على الفرضيات حول العلاقة بين المعايير والقواعد، مثل العلاقة بين مستويي اللغة (مستوى الدال والمدلول)[106].

ثنائية الدال والمدلول.- إن التقابل بين مستويي اللغة مدين على نحو كبير للتقابل بين المحسوس والمعقول، وفي الوقت الذي كان فيه التقليد يقيم تقابلا بين الفكر واللغة، وبين الدلالة اللفظية والعلامة، منذ آلاف السنين، أقدم سوسير على جعل حد لثنائية المحسوس والمعقول من خلال نظرية الوحدة اللغوية. وهذا التجديد الجذري لم يكن مفهوما، ولا يزال الفكر الثنائي يمثل القاعدة في التصور المنطقي والمعرفي للغة؛ غير أن نظريته المبنية على الربط بين "الشكل والمعنى" تعترف بوجود ثنائية غير متعارضة بين هذه المستويات، إذ يقول في هذا الباب: "ومن غير المفيد السعي إلى اعتبار الفكرة خارج نطاق العلامة عوض اعتبار العلامة خارج الفكرة" (*ELG*, p. 44)[107]. وقد أوضحنا في الفصل الثالث نتائج القطيعة الأنطولوجية وأثرها على تصور العلامة اللغوية.

وبإيجاز، وفي خضم تجسيد التباين الملاحظ في التقاليد الإبستيمولوجية، تبدو الثنائيات بمثابة متعاليات اختلافية، وإطارات عامة الغرض منها صياغة المقولات الوصفية. وهذه الثنائيات تخلق النسق بدلا من افتراض أن السلَّمية تُكون السلَّمية[108]. وبما أنها تعرف تقابلات خاضعة للتدرج، فإنها تنفلت من اليقينيات التي تعمل على ترسيخ البعد الأنطولوجي المستمد من التقليد المنطقي-النحوي.

وكان سوسير قد تجاوز التصور القبلي للواقع المنحدر من الأنطولوجيا الأرسطية والمستلهمة للنزعة الموضوعية (وبالخصوص الموضوعية ذات التوجه الوضعي) من خلال بلورته للثنائيات، وذلك بهدف استبداله ب"فكر التخلي عن الأنطولوجيا" المطابق لوضعها داخل علوم الثقافة. وانطلاقا من الحركة التي بموجبها كان يحدد النمط الخاص للموضعة ، لمح سوسير إلى نوع الحقيقة التي تدعيها هذه العلوم قائلا:" تستند اللسانيات على الاستقراء والتنبؤ، ويتوجب عليها اتباع هذا السبيل للوصول إلى نتائج مثمرة" (*ELG*, p. 132). لقد قام الكاتب بتدشين إبستيمولوجيا التوقع، وأرسى مبادئ المنهجية الإشارية بالاستناد إلى نقد ضمني للسانيات المعاد بناؤها، وذات التوجه الهند-أوروبي.

وإذا كانت قراءتنا المختصرة تبدو هي أيضا توقعية، فإن السيميائيات المتصورة إذن على هذا النحو تصبح مع ذلك، مثل ما طرحه ليڤي-ستروس، أورغانونا مشتركا مع مجموع علوم الثقافة، بما أنه يقترح تصورا جديدا ملائما للموضوعات الثقافية وقادرا على تحقيق الموضعة وبلورة المعارف.

تأسيس كرسي الأسلوبية ما يلي: "ما يعرض أمامنا هو بكل بساطة اللسانيات مقدمة تحت اسم الأسلوبية. نعم حضرات السادة، هي اللسانيات بكل بساطة. ولكنني أتجرأ لأقول بأن اللسانيات حقل شاسع" (*ELG*, p. 273).

[106] . انظر الكاتب، 2005 و2011.

[107]. إذا كان عدم قابلية تجزئة وجهي العلامة مؤكد في النموذج الكلاسيكي للعلامة المقدم في كتاب «**الدروس**»، فإن الخط المتصل الذي يفصل الدال عن المدلول يظل مزيفا ويعكس خطيا فكرة سوسير، مثل ما نلاحظ في **كتابات في اللسانيات العامة** (ص 103)، الذي يشير بوضوح إلى رفض هذا النموذج، ويوضح أن الخط المتصل قد تم تعويضه بالخط المتقطع (انظر أعلاه، الفصل الثالث، الشكل 1 و2).

[108]. " هناك خمس أو ست حقائق أساسية تتسم بالارتباط الشديد بينها، بحيث يمكن الانطلاق، دون تمييز، من الواحدة أو من الأخرى، وسنصل منطقيا إلى كل الحقائق وإلى أبسط التشعبات الناجمة عن نفس النتائج عند انطلاقنا من إحدى تلك الحقائق (*ELG*, p. 17). وهذا التفكير ذو الصبغة السلمية مرتبط بدون شك برفض التقليد الأنطولوجي الذي هيمن على الفكر الغربي. لقد أخذ الوجود أو إله الفلاسفة مكان البانتيون عند الشعراء، ولكنه يظل مبدأ أوليا؛ فبكل بساطة تم تعويض السلطة الإلهية بالمبدإ غير المشروط. وبموازاة هذا، وفي المقابل، نجد في تقاليد الفكر غير الأنطولوجي دوائر مفاهيمية غير سلمية؛ مثلا في البوذية، هناك الدائرة التي ترمز إلى الولادة وإلى الموت، وتسمى pratityasamutpada (سلسلة اثنا عشرية ترمز إلى االتوليد المتدني)، بحيث إذا كان التقليد يضع **الجهل** (avidya) على رأس قائمة المفاهيم، فإن ذلك يعود لأسباب ديداكتيكية فقط، ذلك ما أوضحه بوذا.

لا تمتلك السيميائيات الأساس الذي يمكنها من افتراض نقطة انطلاق، ولكنها تتوفر على أسس هيرمينوطيقية ونقدية[109]؛ وهذا في اعتقادنا هو السبب الذي لم يسمح لها بتقديم نفسها في شكل نسقي للمصنف. وهنا يطرح السؤال: هل اللسانيات وعلوم الثقافة مكان للأفكار النهائية ؟ من دون شك لا، ولكن إرادة التوليف تظل باقية، وتمثل «الدروس» الثلاث في اللسانيات العامة محاولة ناجحة (في مجملها) في هذا الشأن؛ الأمر الذي يفسر، رغم النقائص، النجاح الذي لقيه كتاب «**الدروس**».

[109] . للمزيد من التفاصيل، انظر الكاتب،a 2001، الفصل الرابع؛ والفصل 14 من :
Une introduction aux sciences de la culture, Rastier et Bouquet, 2002, Paris, PUF.

الفصل الخامس

القطيعة مع الأنطولوجيا

"بما أن دراسة اللغات، المنجزة بقليل من العناية ، تستدعي بعض الأسئلة، نضع حدا للنقاش، ونحيل العلامات على وقائع ليس لنا أية فكرة عنها؛ وهذا هو شأن مصطلحات الوجود، والمادة والجوهر، الخ في لغة طائفة كبيرة من الفلاسفة "

كوندياك ، فن التفكير

تجلت مواقف سوسير الأكثر جرأة في مجال الأنطولوجيا، وبقيت عسيرة على الفهم. فعندما كانت النظريات الغربية حول الدلالة اللفظية رهينة التمثيل اللغوي للوجود بواسطة حركتين متقاطعتين، استطاع سوسير من خلالهما أن ينفرد بدراسة المدلول، فاتحا بذلك الطريق أمام احتمال تأسيس الدلالة المستقلة. فمن جهة، أحدث سوسيرقطيعة مع فلسفة الجوهر ذات التوجه الأنطولوجي المستمد من التقليد الأرسطي، إذ صرح بما يلي: "نميل على الدوام إلى تصور الحركات المختلفة التي يتوجب على اللغة التعبير عنها بواسطة الفكر المقيد بالجوهر [...] ولن يكون بوسعنا التسليم بوجود جواهر أساسية تتلقى خصائص معينة"[110].

ومن جهة أخرى، وبإحداثه قطيعة مع التقليد الثنائي الذي يفرق بين الفكر واللغة، نراه يوكل دراسة المدلول إلى اللغات، أو لا يعدّه إلا ضمن دراسة اللغات، إذ يقول في هذا الصدد: " الأمور التي لا توجد هي الأمور الآتية: الدلالات اللفظية، والأفكار، والمقولات النحوية الخارجة عن العلامات؛ قد توجد خارج نطاق **ميدان اللسانيات**، هذه مسألة تثير الشكوك، ويتعين دراستها على كل حال من قبل علماء لا ينتمون إلى مجال اللسانيات"[111]. ويُخرج هذا الحكم الانشغالات المعرفية من دائرة اللسانيات، وهي الانشغالات الثابتة في فلسفة اللغة (من المنطق العتيق إلى المدرسة السكولائية)، ثم في الأنحاء الفلسفية السائدة في العصر الكلاسيكي، وأخيرا في العلوم المعرفية حاليا.

1.القطيعة مع الأنطولوجيا

كانت الكلمات المفضَّلة في التقليد المنطقي-النحوي دالةً على **الأسماء** المعروفة بأنها تمثل الجواهر، وتُخافظ بالتالي على غرس النواة الأنطولوجية في اللغة؛ وفي المقابل، لا يملك **المقطع** القدرة على الترسيخ في الإحالة الخارجة عن اللغة، ولا تطرح مسألة حقيقة الملاءمة في اللسانيات (فقد كانت دائما تنتمي إلى الميتافيزيقا). ويتعين علينا مع ذلك الرجوع إلى الموضوع، لأن القراءات التي قام بها بنفنست بخصوص سوسير عملت جاهدة

[110] *ELG*, p. 81.
[111] *ELG*, p. 73.

على استرجاع الخاصية المبطلة للادعاء القاضي بأن للجملة حدودا[112]. وتظل أسبقية الإسناد دائما مبنية على أحكام الحقيقة المثالية، أي أنها تدل على تمثيل "حالة الأشياء"، ما عدا في حالة الحشو. ونتيجة لذلك، تساعدنا مسألة الإسناد على دراسة التقابل بين الأنطولوجيا والبراكسيولوجيا.

2.التصور البراكسيولوجي "للمُركب"

يطلق دي سوسيرمصطلح الـ "مركَّب" على كل ما ينتمي إلى عدد من التسلسلات داخل الخطاب، فهو ينتمي باختصار إلى المستوى المُركّبي؛ غير أن هذا المستوى يرتبط بلسانيات الكلام، وبحسب كتاب «**الدروس**» (1972، ص148 و172) وشواهد «الدروس» (انظر بوكي، 1997، ص 336-337)، كان سوسير دائم التساؤل عن الحد الفاصل بين لسانيات الكلام ولسانيات اللسان. وكان حريصا على عدم الخلط بين المستوى المركَّبي والتركيب؛ وبالفعل، "تتم معاينة الظواهر الموكل دراستها إلى التركيب على المستوى المركَّبي، والتي يقع تموضعها دائما بين وحدتين لغويتين على الأقل، وكذلك وحدتين موزعتين في الفضاء" (الدرس الثاني *CLG/E*, Riedlinger 1, 308.314.2158/2193/2194.2,). وفي الواقع، لا يُختزَل المستوى المركَّبي في التركيب، لأن حيز المركَّب قد يتجاوز حدود الجملة، وحتى إذا كانت الجملة "نوعا من المركَّب"؛ إذ إن هذا الأخير يطبق على "أية مساحة لغوية (انظر *Saussure, CLG/E*, 1, 283.2007, Bouchardy, Constantin, Gautier, Riedlinger, 2e cours).

وعلى النقيض من الدراسات التي قام بها بنڤنست (الذي ذكّرنا بموقفه المتبنى من قبل جان بيير أدم (Jean-Pierre Adam) ومعظم مريدي تحليل الخطاب مثل مانگونو) ، لم يكن سوسير يقيم أي وزن للتفوق الذي حظيت به الجملة، ولكنه أضاف مع ذلك إلى هذه الدرجة من النظام وجهة نظر جديدة؛ ذلك أنه لم يعمد إلى إعادة صياغة التصور الإسنادي في تحليل الجملة، ولكنه قارنها بالنشاط الإنتاجي. ويطرح بوضوح مشكل البراكسيولوجيا في الجملة، إذا ما اعتبرنا الكلام سلسلة من الحركات المتسقة. وعند تبنيه لوجهة النظر البراكسيولوجية[113] بطريقة خفية ولكنها واضحة، كان سوسير يحس بضرورة التمييز بين الجملة والطقس، في حين أن لا أحد بحسب معرفتي وبغض النظر عن نظرية التيولوجيا السرية[114]؛ قد فكّر في التقريب بينهما، إذ إن "الطقس والقدَّاس لا يقارنان البتة بالجملة، بما أنهما ليسا إلا تكرارا لمتتالية من الأفعال، فالجملة تشبه النشاط الذي يقوم به مؤلف الموسيقى (ولا تقارن بمن يقوم بتنفيذها)" (*ELG*, p. 94-95). واعتُبرت الجملة في هذا النص متتالية من الأفعال (ولم تُعتبر قضية أو تمثيلا)، وينصب التفكير حول الخاصية الإبداعية لهذه الأفعال، بحيث إن الجملة لم تقارن (أو لم تقارن

---

[112]. انظر تصريح بنڤنست الآتي : " لا يوجد مستوى لساني أكبر من المستوى المقولاتي" (1966، ص129)، ونضيف إليه فرضية "الإسناد الأنطولوجي" المرتبط بالمركب الاسمي.

[113]. البراكسيولوجيا(la praxéologie):عملا بمبدأ فصل الأنطولوجي عن البحث السيميائي والدلالي، دعا راستي(2010) إلى اتباع منهجية فهم النصوص والفنون التي تعد حقولا تطبيقية، في إطار البراكسيولوجيا التي يعرفها على أنها دراسة الإنجازات السيميائية في علاقتها بمستويين آخرين للممارسة هما المستوى التمثيلي والمستوى المادي. وفي هذا السياق، لا يمكن فهم الفنون، أي المعارف التقنية أو الأمبريقية، إلا في إطار البراكسيولوجيا؛ غير أن القرار القاضي بإغلاق النص ودراسته على أنه مجموعة أو كل متنصل من الأنطولوجيا يخضع لشروط، منها "تأسيس العلاقات البنيوية وتمييزها بطريقة نقدية"؛ الأمر الذي يؤدي إلى تنويع التأويلات المنبثقة من تنوع الآفاق. إن الأمرالمهم والأساس في المقاربة الراستية هو تجريد النصوص من الأنطولوجيا التي كانت تراهن عليها جل نظريات المعنى، والتي كانت تستعين في ذلك بالتصور الواقعي للدلالة اللفظية. وبما أن النص مادة وحرف، فإن المنهجية البراكسيولوجية تقتضي الاعتماد على الفيلولوجيا ودمجها في مشروع نظرية التأويل. وبهذه الطريقة سيكون التأويل عبارة عن ممارسة، لأن التصور التاريخي-النقدي يعتبر المعرفة تعلما يتم في قلب الممارسات الاجتماعية؛ أضف إلى ذلك أن التصور الأنطولوجي المرتبط بالموضوعية يخفي مشكل وجهات النظر، ولا يسمح بطرح قضية الشرعية الهيرمينوطيقية، ولا قضية تعيين العلاقات البنيوية، وهذه كلها عوامل مساعدة على التأويل (المترجم) .

[114]. انظر الكتاب القيم الذي أصدرته إيرين روزيي (Irène Rosier)، 1994، *La parole comme acte*, Paris, Vrin

فقط) **بالموضوع** الثقافي، وإنما **بالنشاط** الفني.وأكد سوسير بالمناسبة أن ممارسة اللغة هي إبداع وليس تنفيذا، ومثل كل الأنشطة، يمكن وصف خلق جملة بوصفها سيرورة إرضاء للقيود وتأقلم مع حالة ما ومع تطبيق ما، في ضوء مراعاة المعايير والآليات السيميائية الموجودة قبلا. ومن منظور أكثر عمومية، يمكن للسانيات المهتمة بمعايير الخطابات والأنواع أن تدرك وتستكشف السيرورة الطقسية الضرورية للتفعيل الحر، أو على الأقل التفعيل العفوي للكلام دون الوقوع في التناقضات.

وكان طينيير (Tesnière) أول من وصف على سبيل المجاز في التوجه الذي سطره سوسير عقدة الإسناد بأنها دراما صغيرة"[115] (1959، ص102). وقد أحدث من خلال هذا الوصف قطيعة مع الفكرة القائلة بأن الجملة تصف - من خلال وساطة القضايا الذهنية- تفاعلات فيزيقية بين الموضوعات. وباختصار شديد، لنقل إننا نمر إذن من الملخص إلى الأسطورة؛ وهكذا فالجملة ليست **قولة**، بل هي **سينوبسيس**، وبالنظر إلى هذا الوضع، يمكن اعتبارها مثل مقتطف من أسطورة، أو على الأقل نعتبرها مقطعا من حكي. إنها تستمد من السياق القريب والبعيد، وبوصفها مقطعا محليا منتميا إلى نص شمولي، تحديدات غير قابلة للمحو، وبالخصوص ما يتعلق بنمطها المحاكاتي، ومعاييرها التأويلية.

غير أنه يمكن فهم فكرة طينيير بطريقتين، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنها تهم مستوى التاريخ الممثل، وهو مستوى الحكي، أو مستوى السرد الذي يشمل العلاقة بين المتكلم-الراوي، وبين القيود الفاعلية المفروضة على عملية الوضع في السياق. وإذا تخلينا عن النظرية المرجعية الساذجة، والتي تخلط بين الوقائع الطارئة حديثا والتاريخ، وبين الأحداث والعلاقات المرتبطة بها، فإن الفرضية الثانية بطبيعة الحال هي المفضّلة. وفي درجة الجملة، يؤدي كل هذا إلى تحديد السيميوزيس على أنه نمط التمفصل بين البنيات الفاعلية (المنتمية إلى الدلالة) والتكوينات المنتمية إلى النحو والتركيب.

وفي الأخير، لا يجوز البحث عن أسس الإسناد في الهيئة الفيزيقية الساذجة لحالات الأشياء، ولكن يجب البحث عنها داخل الأنثروبولوجيا؛ بمعنى أن الإسناد لا يصف التفاعلات الحاصلة في العالم، ولكنه يستحضر، وينظم مزاوجة الأفراد بمحيطهم عن طريق البناء السيميائي لعالمهم الخاص (الأومفيلت في نظرية ويكسكول (Üexküll)[116]. ولا يمكننا والحالة هاته التفريق بالمطلق بين الأسماء والصفات، وبين الفاعل والمفعول به، ولا بين القضية والوضع المناسب لها، لأنه إذا ما تركنا جانبا هذه التمييزات الأنطولوجية، فإن كل مزاوجة تُغيّر الأمثلة المرتبطة بطائفة من العلاقات (انظر الكاتب، 1996b).

3.التخلي عن الأنطولوجيا وخاصية النفي

عند سوسير، يضطلع الشك العلمي الملامس لاستقلالية الأفكار بالنسبة إلى اللغة بوظيفة التشويق أو تعليق النقاش الذي يستهدف التكوين. وفي مقابل الشك الذي يحوم حول كل ما يعتبر خارج اللغة؛ يكون الجواب بخاصية النفي في حالة ما إذا نظرنا إلى ما هو كائن داخل اللغة. ويمَكّن نفي الجوهروالشك التكويني من إحداث قطيعة مع الوضعية التي أسستها وأمَّنتها الأنطولوجيا- وبالمناسبة، فكل الأشكال المعاصرة للوضعية حاربت السوسيرية، سواء انطلقت من خارج الإطار الفلسفي، مثل أوكدين وريشار، أو من داخل البحث اللساني. إن الاعتراف بخاصية النفي،

[115]. وهذا ما سمح لگريماس (1966) بربط فواعل الجملة بممثلي السرد.

[116]. الأومفيلت (umvelt) مصطلح وضعه ويكسكول، ويشير إلى مجموع الخصائص التي تهم البيئة المحيطة بجسم ما، والأومفيلت هو أيضا العالم الخاص بنوع بيولوجي ما (المترجم).

حينما يصل تحليلها إلى مداه، تجعل من اللغة، على نحو تكميلي، نسقا اختلافيا مبنيا على التقابلات وليس تشفيرا لهويات مرجعية، في حين أن الشك الجذري يفتح فضاء الدلالة اللغوية (انظر الكاتب، 1991، الفصل الثالث).

وبالفعل، كانت خاصية النفي دائما في خدمة الوجود، حتى وإن كان بهدف تجاوزه في الواحد (عند أفلاطون، وأفلوطين وفي كل التقليد الخاص بالتيولوجيا السلبية، عند دوني المزور، وسكوت إيريجين، ونيكولا كيس). لقد حققت خاصية النفي الهيگيلية - في فترة الرومانسية- النصر، خدمةً للفكر. غير أن النفي الأصلي قد أنقذ النظرية السوسيرية من كل أشكال الأنطولوجيا، ولاسيما تلك المتعلقة بالكلية الرومانسية التي ساهمت مع ذلك عند الشكلانيين الروس، على وجه التحديد، في صياغة مفهوم البنية المعاصر؛ إن الرهان غير ضئيل، لأنه بغضّ النظر عن تصور البنية وحدةً مستقلة مكونة من الترابطات الداخلية (هيلمسليڤ)، فإن مشكل الكلية يهم حتى تصور اللغة المعتبرة "لذاتها ومن أجل ذاتها"، بحسب الصياغة المسندة بإفراط إلى سوسير. ويهم في الأخير وحدة اللغة والأمّة المحددة للثقافة، استنادا إلى علم الثقافة الروسية في العصر الحالي، وهو وريث الأشكال الدوغمائية المنحدرة من التقليد الهومبولتي، والمشابهة للأطروحات الستالينية المقدمة في كتاب *Le marxisme et la question nationale*.[117]

4.التلاقح الفكري بين الغرب والهند

يتعين علينا التوجه إلى التقاليد المختلفة عن الأنطولوجيا الغربية، لقد كانت المبادلات بين الهند والغرب منذ عصر ما قبل التاريخ موثقة من خلال العلاقات السلالية التي تجمع اللغات الهند-أوروبية؛ وطيلة العصور التاريخية القديمة ، لاحظنا ألف مبادلة اقتصادية وسياسية، والتي قد تكون في بعض الأحيان اجتياحية، ولاسيما غزوات الإسكندر التي وصلت إلى المناطق المجاورة للهند الحالية، وفيها استقرت مملكات مرافقيه.

وقد وقع تواصل بين هذين العالمين في مجال الأفكار الفلسفية والدينية، وهذا ما تشهد به نظرية تناسخ الأرواح عند الفيثاغوريين، أو فن گاندارا، بغضّ النظر عن اختلاف طبيعتهما. وأعلن أسوكا (Asoka)، وهو أول عاهل كبير في الهند، عن تدريس البوذية، وطلب من خمسة ملوك هلينيين اعتناقها (الطبعة الثالثة عشر المنحوتة في جيرنار)؛ كما وقع تبادل للسفراء مع بطليموس الثاني ، وكان الرهبان البوذيون في القرن الثالث قبل الميلاد يتجولون في الإسكندرية[118].

ولأنهم اعتادوا الميل إلى التوليف بين المذاهب، فإن فلاسفة الأفلاطونية الجديدة كانوا دائمي البحث عن التقاليد والثقافة الشرقية؛ وقد أشار فرفوريوس (Porphyre)[119]- وهو كاتب بيوغرافيا أفلوطين- إلى رحلته إلى الشرق، كما سرد فيلوسطراطس[120] (Philostrate)، وهو كاتب حياة أبولونيوس التياني، زياراته لطائفة من الرهبان، وهم الحكماء "العراة" في الهند. تأسست اللسانيات التاريخية والمقارنة نتيجة اللقاء مع تقليدَين كبيرَين في التحليل اللساني، وهما التقليد الأوروبي والتقليد الهندي. فالأول يتميز منذ عصر النهضة برحابة المعلومات المتراكمة حول اللغات التي كثُرت أعدادها ؛ والثاني تميز بالعمق الذي لا يمكن مضاهاته بخصوص وصف

---

[117]. نعلم بان وحدة شعب ما ، ولغة، وإقليم تبرر بصورة اطرادية أعمال "التصفية العرقية"، أي المذابح.

[118]. انظر Mostapha El Abbadi, *Vie et destin de l'ancienne bibliothèque d'Alexandrie*, Paris, Unesco, 1992, p. 44

[119]. فورفوريوس الصوري فيلسوف سوري الأصل كتب باليونانية، وقد ولد عام 233م ومات في روما بين 301 و305م. وهو تلميذ لأفلوطين ومؤلف حياة هذا الأخير ونعته القديس أغوسطينوس ب"فقيه الفلاسفة". اهتم بالنحو، والصرف، والبلاغة، والتاريخ، والفلك، والطب. ويتسم كتابه حول المباحث الهوميرية بسمتين: السمة الأولى هي المجازية التي طبقها فيلون الإسكندري على التوراة، والسمة الثانية هي محاولة التوفيق بين أفلوطين وهوميروس؛ كما ألف كتابا ضد النصرانية في خمسة عشر بابا، انظر جورج طرابيشي، 2006، ص466-467 (المترجم) .

[120]. كاتب يوناني ولد في لمنوس نحو عام 170م. درس السفسطة زمنا طويلا في أثينا، وكتب حياة أبولونيوس التياني مبرزا جوانب من الصوفية الفيثاغورية حول هذه الشخصية؛ وكتب أيضا حياة السفسطائيين انطلاقا من ذكرياته الشخصية (المترجم).

السنسكريتية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، عندما طورت الجمعيات العلمية الأوروبية وعلى الخصوص الجمعية الأسيوية البنغالية التي تأسست سنة 1784 على يد وليام دجونس (William Jones)، الدراسات السنسكريتية والأنحاء الهندية، فإن هذين التقليدين سيلتقيان مُشَكِّلين بذلك لحظة حاسمة[121]. ووقعت أغلب التطورات النظرية ومنهجية اللسانيات في ميدان الدراسات التاريخية والمقارنة بخصوص اللغات الهند-أوروبية؛ وبموازاة ذلك، كان تأثير الفلسفة الهندية واضحا في أعمال فريدريش شليگل حول الهند، بل ويظهر التأثير في فلسفة شوبنهاور ونيتشه.

كان سوسير على صلة عميقة بالفكر الهندي، وذلك إذا أخذنا فقط بعين الاعتبار دراساته للسنسكريتية التي بدأها في سن الثالثة عشر من عمره، ثم تكوينه العلمي في الدراسات الهندية-الأوروبية في لايبزك. لن نقدم استنتاجا حول "التأثيرات" التي يصعب تعقبها على الرغم من كونها سهلة الاستحضار، ولنتذكَّر ببساطة تقرير أولترامار[122] المعنون *Histoire des idées théosophiques dans l'Inde* وهو من بين الإصدارات القليلة في الفترة التي كان فيها سوسير يلقي دروسه في جنيف. ونجد أيضا في مخطوطات هارفارد فقرة تحمل عنوان "الفكر الهندي" (1993، ص 232-216). كما سنؤكد على التشابه الملحوظ بين النقد السوسيري للأنطولوجيا الأرسطية التي هيمنت على نظريات الدلالة اللفظية والنقد البوذي لأنطولوجيا المناطقة الفيديين. ولا نسعى مع ذلك إلى تحديد ما إذا كان اللقاء بين سوسير والمفكرين البوذيين يبرَّر "بالتأثيرات"، أو يعكس فقط منطق المواقف النظرية.

5.أسرار التلفظ

في التقليد اللساني الذي ساد قبل السوسيرية، كما في اللسانيات المعاصرة غير السوسيرية، كان التلفظ ميدانا ذا أهمية قصوى، بما أنه مكَّن من الانتقال من الفكر إلى اللغة. ونلاحظ الأمر نفسه في التقليد الفيدي[123] الهندوسي والبراهماني الذي يحظى بأهمية كبرى، نظرا للرهانات التيولوجية. ويتفرد الفكر السوسيري بالغياب المبتكر لنظرية التلفظ، ويبدو هذا النقص الواضح مرتبطا بالنقد الموجه إلى ثنائية اللغة والفكر، وهي الثنائية التي تحدد الاختلاف الأنطولوجي بين التعبيرات المتغيرة والمفاهيم الكونية.

وظلت نظرية الحركة غير كافية إذا ما تعمَّدنا تصورها على أنها إعادة إنتاج بسيطة، وليس سيرورة توليد أو تأويل إبداعي[124]. والنظريات التيولوجية التي تهم التخطيط القصدي للحركة تحيلنا إلى نمط موجود قبلا: قد يكون التأويل إذن حُكما قوامه مطابقة العلاقة الرابطة بين التصميم-النوع (plan-type) والحركة-الورود(-action occurrence).

ونضيف بهذا الخصوص -على وجه المقابلة وعن طيب خاطر- بأن دلالة حركة ما تتجاوز نوعها؛ ليس فقط لأنها لا تتمتع بالوضع الأنطولوجي نفسه، ولكن لأن المعنى كامن فيها، ليس بصورة أقل في مطابقته، وإنما في الفجوة التي يظهرها الورود إزاء النوع المفترض. وتجدر الإشارة إلى أن تأويل حركة ما ما يعني إبراز الكيفية التي بموجبها لا تعد مجرد ورود نوع، وتمَكّن في الآن نفسه من إعادة بناء افتراضي لجنسها، ولقياس خصوصيتها.

---

[121]. انظر سوسير: " نشك في أن بوب ابتكر علمه، وبأسرع طريقة، دون اكتشاف السنسكريتية" (1972، ص14).

[122]. پول أولترامار (Paul Oltramare) (1854-1930) أستاذ باحث في الدراسات الشرقية بجامعة جنيف (المترجم).

[123]. التقليد الفيدي هو التقليد المتعلق بالفيدا (Veda)، و"تعني باللغة السنسكريتية المعرفة وهي الكتب المقدسة الأربعة الرئيسة في الهند القديمة: الرج فيدا والأثارخا فيدا، والساما فيدا، وتاياجورفيدا. (...) ويضم مصطلح "الفيدا" أيضا البراهمانا (الكتب التي تشرح وتفسر طقوس الفيدا) (...)، ويستعمل أيضا بمعنى "الكتاب المقدس" أو "الحكمة العليا". انظر **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم، 2006، ص362 (المترجم).

[124]. هناك ثلاثة نقط يتعين أخذها يعين الاعتبار: (أ) الحركة باعتبارها **تطبيقا**؛ (ب) الحركة باعتبارها **تأويلا**؛ (ج) الحركة باعتبارها **خلقا** لحدث منفرد، غير قابل للاختزال في الأحداث الأخرى، على الأقل من حيث الحالة الزمكانية الوحيدة (انظر الكاتب، 1999). وفيما سيأتي سنميز بين التطبيق والخلق.

إننا نصادف هنا التقابل العتيق بين **القدرة** و**الفعل** الذي ما زال حيا في اللسانيات، كما يشار أيضا إلى مفاهيم من قبيل **مدلول القدرة** و**التحيين**، الخ. وفي الواقع، طورت النظريات الكلاسيكية بخصوص سيرورة الإبداع التمييزَ الأرسطي بين ثلاث لحظات في الحركة، وهي القدرة (*dunamis*)، والتحيين (*energeia*) والإنجاز (*ergon*). وكانت القدرة، ومقابلها في اللاتينية *potentia* ، محددة على أنها حزمة من الاحتمالات، وتعتبر كلمة potentialité شاهدة على هذا؛ إذ كانت صفة للوجود، أي المحرك الأول[125].

وكان التقابل بين القدرة والفعل (l'acte) أحد أسس الأنطولوجيا الغربية، بما أنه يمَكّن من الحفاظ على وحدة الوجود الثابتة وتقليص الحركة لتصبح تجليا أو تطبيقا لقوة ما[126]؛ وللمرور من القدرة إلى الفعل الذي يتم إنتاجه، يتعين إيجاد نظام وسيط يلعب دورا هاما، سيكون هو **القوة**. أما ما يتعلق باللغة، فإن القوة هي قوة التلفظ التي تمَكن من المرور من الذهني إلى اللغوي، وأيضا ستقدم القوة على أنها عامل ديناميكي في النظريات الحيوية أو الذاتانية، كما تقدم على أنها توليدية في النظريات ذات التوجه الميكانيكي، أو ذات النزعة الموضوعية.

وفي الواقع، فإن التمييز الأرسطي لا يزال قائما بين القدرة والتحرك-التغيير وبين الفعل، وهو المؤسس لنظريات التلفظ والتحيين، التي نجد أقطابها مثلا في المقابلة الشومسكية بين القدرة والإنجاز. واستنادا إلى التصور السببي في المعرفة، يتمثل فهم "التجلي" اللغوي إذن في التنقيب عن أسبابه وعلله. وسيتحقق هدف اللسانيات بواسطة وصف "القدرة"، أي الملكة اللغوية عند شومسكي؛ إذ سنوضح ونفسر، بالاستناد إلى نوع من التنوير التراجعي، البنيات السطحية بواسطة البنيات العميقة، والملفوظ بواسطة التلفظ، والنص بواسطة "الخطاب"[127]،الخ. وعلى سبيل التخطيط، نلاحظ التسلسل الآتي:

أرسطو	القدرة (*Dunamis*)	التحيين (*Energeia*)	الفعل المتجز (*Ergon*)
السكولائيون	القدرة (*Puissance*)	القوة (*Force*)	الفعل (*Acte*)
ليبنتز	القدرة (*Puissance*)	القوة (*Conatus*)	تحقيق القدرة (*Enthéléchie*)[128]

وقد تم تطعيم هذا التقسيم الثلاثي العام بالمزيد من التحديدات في التصورات المعاصرة الهادفة إلى دراسة التلفظ:

گيوم	القدرة	التحيين [129]	الأثر
شومسكي	القدرة	التوليد	الإنجاز
گريماس	القدرة	المسارالتوليدي	الإنجاز

[125] . يُكون الفاعل الأول (المحرك الأول) باعتباره فعلا صافيا، وهو الذي يعتبره الفلاسفة إلاها، مصدرَ التغيرات، من دون أن يكون هو بالذات عرضة للتغير (انظر Aristote, *Métaphysique*, III, 8 ; XI, 6-7.

[126]. انظر في المرحلة الأولى إلى كتاب§8 Théta، وكتاب أرسطو *Métaphysique*، ثم المصنف 25 من كتاب *Ennéades* لأفلوطين. إن القدرة متجانسة مع لا متغير الوجود، لأنها تسبق التحول (انظر ليبنتز،*Nouveaux essais sur l'entendement humain,* II, §1-2 XXII

[127] . نورد هنا "الخِطاب" بالمفهوم الذي تمنحه المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب.

[128] . لا بد هنا من التذكير بأن مفهوم *Enthéléchie* يعني عند أرسطو تحقيق ما كان عبارة عن قدرة، وبواسطته يسمو الإنسان ليصل إلى الكمال (المترجم).

[129]. توجد هذه السلسلة من المفاهيم (**قدرة، تحيين، أثر**) في نظرية گيوم، الموثقة في مخطوطات قام بتحريرها قبيل وفاته.

وعلى الرغم من الاختلافات البديهية التي تفرق بين التصورات السالفة للتلفظ، فإن دوام التقسيم الثلاثي يوحي بوجود فرضية مصدرها الثقافة الهند-أوروبية.

وقد تكون أوجه التقارب مع التقسيم الثلاثي المطرد في النظريات اللسانية الشرقية متعددة؛ على الأقل، نجد أجهزة نظرية مشابهة عند النحويين-الفلاسفة في التقليد الفيدي. وهكذا، أوضح بَرْترِهاري (Bhartrihari)[130] في القرن الخامس الميلادي أن الكلام، سواء الإنساني أو الإلهي، ينقسم إلى ثلاثة مراحل متتالية[131]: الكلام المرئي (*pasyantî*) والمتوسط (*madhyamâ*) والمتمدد (*vaikharî*)، ويقابل الكلام المرئي نظرة أولية لما سيكون متجليا؛ أي التمثيل التوليفي غير المتطور وغير الخطابي، وفي المرحلة الوسيطة، تكون اللغة ذهنية في العقل (*buddhi*)، ولكن مراجعها تكون حاضرة بصورة قبلية؛ وفي المرحلة الثالثة، يصبح الكلام والموضوعات المحدثة ماثلة للعيان ومختلفة، بالنسبة للآلهة، كما هي بالنسبة للإنسان.

غير أنه من منظور ألان غي (Alain Rey)، لا يمكن مقارنة التقابل بين "اللغة-الظاهرة" و"اللغة-التجريد" في التقليد الهندوسي بالتمييز الحاصل بين "الخطاب الملاحظ والبنية اللغوية المجردة، أو بين التجليات (التواردات) والأنواع المجردة، وهو التقابل الذي سبق التلميح إليه من قبل، لأن جذوره ليست منهجية ولكنها موسومة بالطابع الأنطولوجي" (1973، ص48). وقد نحتفظ بهذا الاعتراض إذا كان التقليد الغربي في علوم اللغة في معزل عن الانشغالات الأنطولوجية؛ غير أنها ثابتة في الفكر الغربي، من أرسطو إلى بول روايال، ومن ليبنتز إلى العلوم المعرفية الأورثوذوكسية[132]، أضف إلى هذا أن المناهج مرتبطة بهذا التوجه الفكري[133]. ومن جهة أخرى، ستتأكد صدارة النظرة التجريدية في جميع فروع اللسانيات المعرفية أو التيارات المرتبطة بها، من لانگاكير إلى بوتيي، مع وجود ميتا-سيكولوجيا متاخمة لهذه التيارات. وانطلاقا من نظرة الفكر، نصادف في التلفظ تقسيمات تخص العقل.

وعلى المستوى الديني، يُعد التلفظ إبداعا عند قاك (Vâc)، وهو الكلام الفيدي، أو عند ابن عمه الصغير، اللوغوس، أي اللغة الخلاقة في التقليد الهيليني الذي ساد أيام فلاسفة ما قبل سقراط إلى غاية ظهور المسيحيين. وعندما قال سان بول: "لا تتمثل مملكة الله في الكلام ولكن في القدرة " (I.*Corinthiens*, 4, p.2)، فإنه استعمل الكلمة نفسها التي استعملها أرسطو، وهي القدرة. ولكن القدرة المحددة هنا على أنها مجرد احتمال أو ملكة ستصبح إذن- إذا صح التعبير- القدرة العليا[134].

هناك تصوران مختلفان للقدرة الإلهية في الثقافة الغربية الحديثة، وهما السيادة (potestas)، والقدرة اللامحدودة (potentia). وكان سبينوزا يعرّف الله على أنه صاحب قدرة، في حين كان ليبنتز يفضل وصفه بصاحب السيادة. وبناء عليه، قد تختلط ملكات الله بنظام الطبيعة وقوانينها الأبدية، مع الأخذ بالحسبان أن العلم

---

[130]. برترهاري شاعر هندي من القرن الخامس الميلادي، تتناول أشعاره المكتوبة بالسنسكريتية قضايا عاطفية وسياسية، وينسب إليه تصنيف ذو طابع فلسفي (المترجم).

[131]. نجد في التراتيم الفيدية تقسيما رباعيا، سيُحتفظ به في المدارس الشيفية وعند مريدي تاترا: ويُعتقد أن "المراحل الخفية" في الكلام تكون "غير متحركة"، لأنها قريبة جدا من المطلق.

[132]. العلوم المعرفية الأرثودوكسية هي التيار المهيمن في الأبحاث المعرفية، ويتبنى الأطروحة القائلة إن القدرة اللغوية تعود إلى كون الإنسان يمتلك خزانا هاما من البنيات المعرفية المعقدة التي تتحكم في استعمال اللغة. ويعتبر شومسكي المتزعم الكبير لهذا التيار، وقد طور منذ 1957 نظرية النحو التوليدي المستمدة من أطروحات العلوم المعرفية، للمزيد من التفاصيل حول العلوم المعرفية، انظر الخطاب، 2017، الفصل الرابع (المترجم).

[133]. في المعلوميات اللسانية مثلا كما في تمثيل المعلومات، حظي مجال بناء الأنطولوجيات باهتمام بالغ منذ أواسط التسعينيات.

[134]. انظر مالبرانش (Malbranche) :" لم يعد أي شيء مقدس سوى القوة، ولم يعد أي شيء مؤلّها".

Entretien sur la métaphysique, VII, XIV.

الحديث يرفض السيادة الغامضة والمتعالية، وذلك من أجل ربط المفهوم بالقدرة القابلة للتجريب والكفيلة بوصف الاطرادات، مع تفضيل التفسير السببي.

وفي اللسانيات المعاصرة، قابلت ثنائية السيادة والقدرة بطريقتها كلا من اللسانيات التلفظية واللسانيات التوليدية، إذ إن فاعل التلفظ يرث السيادة وما يرتبط بها، أي سمة القصدية الإلهية النابعة من السماء. وفي المقابل، فإن القدرة المرتبطة بالقوة الخارقة التي ستصبح القدرة التأويلية، والتي تم تطبيعها في صورة عضو لغوي، ستكون مستقلة عن كل فاعل إلى درجة احتمال توليد الإنجازات بصورة آلية. وبما أن غائية السيادة (الإلهية) تقابل قوانين الغايات بالنسبة للقدرة، فإن اللسانيات التوليدية قد انتقدت على أنها أهملت الذات المتكلمة، كما تم النظر إلى اللسانيات التلفظية بوصفها فاقدة للقدرات الوصفية. وقد حاولت السيكوميكانيك التي اقترحها گيوم (Guillaume) تقديم شكل توليفي يمكن استخلاص طبيعته من خلال اسم النظرية، ولكن التناقض المحرك بين شكلي القدرة يظل صارخا عند مؤلفين من أمثال بوتيي وگريماس.

ونظرا لوجود ثنائية الفكر واللغة، فإن القدرة لا تنفذ عملياتها على نفس الموضوعات الأولية والنهائية؛ وهذه بعض الأمثلة المتباينة:

	مصدر	سيرورة	نتيجة
شومسكي	البنيات العميقة	التحويلات	البنيات السطحية
گريماس	المربع السيميائي	التحويلات	التجلي
كوليولي	المفاهيم	التلفظ	الملفوظ
بيشوه	شروط الإنتاج[135]	الخطابات	النص

ويعد الجهاز الذي تنبع منه التحويلات والنتائج عادة جهازا غير لغوي؛ إذ يُنظر إليه أنه جهاز ذهني، بل ونفسي أيضا (في الدلالة المعرفية وفي السيكوميكانيك)، أو هو جهاز منطقي (البنية العميقة، المربع السيميائي) أو سوسيولوجي (شروط الإنتاج). كما يختلط المصدر بالسبب، وتعادل الأولوية الصدارة، طبقا للتصور السببي للمعرفة.

وإذا نظرنا إلى الفلسفة القديمة إلى حدود هيگل، فإن المرور من القدرة إلى الفعل المنجز يعتبر إنجازا، بل وإتقانا، وهذا ما توضحه كلمة *entéléchie* (الكمال الأول) التي صاغها أرسطو واستعملها ليبنتز أيضا بهذا المعنى؛ غير أنه- وبالنظر إلى طابعها الجذري- قد تظل القدرة العليا دون إنتاج يعكس مستواها، وقد لا يتم إنجازها في إطار الحركة، لأن ذات الخالق منفصلة بصورة نهائية عن الأشياء. وسيترسخ التفريق بين العالَم والفكر الذي ظهرت بوادره مع الفينومينولوجيا الكانطية، في الفينومينولوجيا الهيگلية من خلال نظرية الاغتراب، والتي تفترض أن المنتوج يكون بالضرورة أقل من الفعل الذي أنتجه[136].

[135] . نشير إلى أن هيمنة أو تعالي الجانب السوسيو-سياسي ثابت بالنسبة لتحليل الخطاب في المدرسة الفرنسية.

[136] . يشمل الاغتراب في الواقع مفهومين : الموضعة (Entausserung) باعتبارها خلقا للغيرية، والتعديل أو "التوجس من الأجنبي" (Entfremdung)، وهذان المصطلحان يحملان معنى قدحيا في الكتابات الدينية عند هيگل. وقد انتصر هذا المعنى في التقليد الهيگيلي، بل واستمر في الماركسية.

ولن يكون هذا الأمر دون تأثير على تصور فعل التلفظ؛ فمثلا، فيما يتعلق بتحليل الخطاب على الطريقة الفرنسية، يعتبر النص ظاهرة مرتبطة بالبنية السطحية، ويتوجب بالتالي توضيحه وذلك عبر استرجاع الخطاب الذي انبثق منه، وتوضيح الخطاب نفسه المحدد وفق"شروط الإنتاج" التي يحتل فيها المتكلم الصدارة.

وعندما يتم تفضيل القدرة على الفعل، فإن السلَّمية الكلاسيكية بينهما ستكون في وضع معكوس، إذ حينما كانت الأفضلية في الماضي للفعل مقابل القدرة (وعلى هذا الأساس يرتكز الدليل الأنطولوجي عند القديس سان أنسيلم (Saint Anselme)[137]، أصبح الكمال حاليا ممثلا في القدرة التي يعمل الفعل على تزييفها والحد من سطوتها. وينطلق التحليل في اللسانيات من الملفوظ في اتجاه التلفظ للكشف في المقابل عن أمارات التلفظ في الملفوظ.

ومن دون شك، ستحتفظ مواصلة البحث المنطلق من الكلام في اتجاه اللغة، ومن الملفوظ في اتجاه التلفظ، ومن الفعل في اتجاه القدرة الأولية على بعض الأمور الروحية، لأن البحث يؤدي إلى استرجاع الشروط. وفي الواقع، فإنه يؤدي إلى استرجاع اللامشروط، أي الوجود. وهذا ما يفسر على وجه الاحتمال الاستمرارية والانتشار القوي للنموذج العام للتلفظ، من خلال ألف عملية تحوّل متباينة.

ومن جهتنا، فإننا نتابع طريقنا الذي يرتاده قليل من الباحثين، والذي فتحه في ما مضى مريدو سقراط (أتباع ميكار) ، الذين يفترضون أن القدرة لا تسبق الفعل[138]، بل هي مرتبطة به إلى حد الاتحاد، ولا يمكن الفصل بينهما إلا وفق فلسفة العقلنة المتأخرة. وأوضحت التجارب المزعجة لبنيامين ليبي (Benjamin Libet)، من دون التعرض إلى دحضها، وبصورة مفارقة، أن الوعي بالإقدام على الحركة يأتي في مرحلة **لاحقة** للشروع فيها. وبالمقارنة مع العديد من مشاريع الحركة، التي تتنافس بصورة تلقائية، نلاحظ أن الحركات الوحيدة التي تصل إلى الوعي وإلى المرحلة النهائية هي تلك التي لا تُمكن الفاعل من ممارسة "حق الفيتو"، وتنتج الحركة إذن من خطأ مؤقت متعلق بالكبت. وباختصار، لا تختزل العلاقة بين القدرة والإنجاز في تحيين القدرة؛ ولهذا السبب اقترحنا نموذجا للتلفظ مبنيا على تضييق الهوة بين المستويات (انظر أعلاه، الفصل الثالث، §3.3). وفي هذا السياق، تظل اللغة، بالمناسبة، نموذجا تفسيريا يصوغه اللسانيون بالاعتماد على الاطرادات الملاحظة في طبقة من الملفوظات المختارة.

لا يعتبر سوسير اللغة مصدرا للكلام، في حين أن كل التقليد المنطقي-النحوي الغربي يقود إلى هذه الأطروحة، ولهذا افترض بشكل صريح وجود لسانيات الكلام[139]. وذهب إلى أبعد من هذا الافتراض حين رفض الأطروحة التي تقول إن منبع الكلام متمثل في نظام غير مشروط، أي في نظام مطلق؛ وبهذا الرفض، ترك الكاتب فلسفة اللغة.

---

[137] . أنسيلم الكانتربري فيلسوف لاهوتي وقديس، ولد سنة 1033 أو 1034 وتوفي في كانتربري سنة 1109، وهو تلميذ للطوباوي الفرنسي لانفرانك. خاض عدة معارك باسم الدين في كل من فرنسا وإنگلترا وله كتاب بعنوان **القواعد** أظهر فيه صرامته المنطقية وكتاب **مناجاة النفس** وغيرها. وهو أول من أظهر الفكر في تعارضه مع الوجود وسعى إلى إثبات هويته، انظر جورج طرابيشي، 2006، ص 102 (المترجم).

[138]. يعتقد مريدو سقراط وهم أتباع ميگار أننا لا نملك القوة إلا في اللحظة التي نقوم فيها بعمل ما (انظر :

Métaphysique, Thêta III, 1046b ; et R. Muller, *Les Mégariques*, Paris, Vrin, 1985)

فالمسألة حساسة: يمكننا الاستناد إلى عدة مؤلفات من قبيل *Métaphysique,* Thêta VIII , Delta XI لنخلص إلى أن الفعل عند أرسطو يسبق منطقيا القدرة؛غير أننا نعترض هنا على التمييز بين الفعل والقدرة ، وأثره في اللسانيات.

[139]. بالفعل، لم يحتفظ بالي وسيشيي بأمور هامة في طبعة كتاب «**الدروس**»، على الرغم من أن بالي قد طور فيما بعد مشروعا خاصا بهذا النوع من اللسانيات؛ فسوسير هو صاحب المشروع، وهذا ما يؤكده الفصل الأول من *ELG* ، وعنوانه **الجوهر المزدوج للغة**.

ويمكن إرجاع كل هذا إلى نقد المطلق الذي يمارس مثلا على مفهوم **البراهما** باعتباره غير مشروط: "الكمال الذي يوجد في البراهما هو حياده المطلق الذي لا يستطيع نطق إلا كلمة "وجود" [...] وهو إذن لأمر مفارق للغاية أو صبياني، إذا صح التعبير، أن نرى العديد من الانشغالات الملتهبة موجهة نحو موضوع معرفة مطلق، ولكنه يعتبر أيضا غير مبال على الإطلاق مثل ما هو مطلق" (1993، ص219)[140].

غير أنه في التقليد الهندوسي، يُنظَر إلى البراهما بوصفه مصدر كل تلفظ؛ وعلى وجه التدقيق، فالكلام الأسمى مماثل للوعي الأسمى، وهو نور وفكر، وفيه ينتج التلفظ الداخلي، اللازمني واللاخطابي، الذي يعدّ مصدر كل فعل لغوي في البراهما وفي الإنسان، المُتَّحدين لهذه الغاية. ونضيف بأن الطقس هو لحظة هذا الاتحاد؛ في التلفظ البراهماني، يستفيد الراهب /الشاعر من الطاقة المنبعثة من "الخزان المتفجر" (لويس رنو Louis Renou). إن موضوع الألغاز المرتبطة بالمواجهات الخطابية هو الروابط القائمة بين الكون والطقس والإنسان، ويعني البراهما هذه الروابط نفسها؛ فهو يعلوعلى العوالم الثلاث وعلى الآلهة التي خلقها، لذا فإن سانكارا (Sankara) ومدرسة ڤيدانطا (Vedânta) المناوئة للمذهب الثنائي، وهما تياران يقولان بالأنطولوجيا المطلقة، عمدا إلى إلحاق قيم **البراهما** بما هو غير مؤهل (نيرگونا)، وبما هو أعلى من الشخصية، وأسمى من كل شيء.

6.اللغة اللاذاتية ونقد الذات

استدعى التقليد الأنطولوجي نظرية الذات، المستندة إلى لغز شفاف نوعا ما؛ فقد فصّلت اللسانيات والسيميائيات المعاصرة، وبصورة مختلفة، مسألة الذات المتأملة لنفسها ، المماثلة لنفسها، والمتهيئة دائما للشروط (الذات المتسامية)، والتي تشبه كثيرا بديل القدرة الإلهية.

بيد أن سوسير انتقد غير ما مرة الذاتية الشخصية في المخطوطات التي تشير إلى الفكر الهندي، وانتهى به الأمر إلى نعتها بعدم الاتساق، إذ يقول في هذا الصدد: "تصميم إرادة الأنا القاضية بنكرانها، واعتبارها غير موجودة، وتتكون من الأشياء العابرة مثل العجلات أو عريش الدَّبابة" (1993، ص 221). لقد أعاد سوسير هنا، استنادا إلى صورة العجلة، مقارنة كلاسيكية في البوذية التي تنكر الحقيقة الكاملة للأنا المكونة من أجزاء وقطع[141].

وبناء عليه، لم تعد الهوية الشخصية ضرورية ولا محبذة: "أليس من السخافة، بل ومن غير المسموح به أن يكون المرء باستمرار حبيس **الأنا** الخاصة وخاضعا لتلك الأنا التي توصف بأنها صغيرة؟ وسأعطي القليل لكي أعرف أحاسيس أوكطاف بعد خوضه معركة أكسيوم (وهو بالمناسبة موضوع جيد للإنشاء باللاتينية)، ولكن سأعطي الكل لأتقمص شخصية أوكطاف نفسه مدة ثلاث دقائق ، سواء قبل المعركة أو لمدة أطول قبلها ، بل و لأتقمص أيضا شخصية طباختي، وألاحظ العالم بعيونها، من دون فقدان مثلا ملَكة مقارنة ما أرى، بمعية الصور الفريدة التي سأجلبها من هذه الرحلة" (ص 223). ومن جهة أخرى، تبدو هذه الغرابة الذاتية وكأنها صارت شرطا للمعرفة، عندما أضاف سوسير ما يلي: " هذا الأمر صالح بطبيعة الحال لكل الناس، ولكن أليس هذا في العمق نقطة تمييز بين العقول التي لا تتصور فكرا آخر إلا من خلال ذاتها، وهي التي تشكل الأغلبية الأزلية والهادئة، وبين العقول التي تطمح -عبثا ولكن بأريحية- إلى معرفة العالم من خلال شيء آخر غير ذواتهم؟". وهكذا انتقد الكاتب الأنا بوصفها عقبة في وجه المعرفة، في حين أن كل فلسفة متعالية منذ كانط تجعل منها شرطا أوليا.

---

[140] . إذا لم يكن البراهما يقارن بالضبط بالوجود، فإنه على الأقل يمثل المطلق، وهو القالب الرئيسي للوجود واللاوجود.

[141]. طبق سوسير المبدأ العام الذي يقول إن الجوهر المزعوم ليس إلا قائمة من العوارض؛ وينتج عن هذا أنه في الدلالة مثلا لا توجد دلالة لفظية حقيقية، ثابتة ومستقلة عن السياق.

وقد يشير هذا إلى الذات المتنوعة والمشروطة في البوذية، التي تفترض أن الفراغ (*synyata*) هو نتيجة تبديد الوهم (*maya*)[142]، وبما أن الأشياء توجد بالنظر إلى الأسباب، فإنها لا توجد في حد ذاتها ولا تنتسب لا إلى الوجود ولا إلى اللاوجود)؛ ومن ثم ينتج عن هذا فراغ الشخصية الأمبريقية (*pudgala-sunyata*) التي تعتبر مجموعة فارغة من كل روح جوهرية (*atman*). ويستعرض التفكير النقدي ذاتا مشروطة إزاء الأنطولوجيا، وتكون غير ثابتة، بل وذاتا وهمية، في حين أن الأنطولوجيا ذات التقليد البرمينيدسي والمتحكمة في التقليد المنطقي-النحوي تنسجم مع الذات المنقادة إلى التأمل الذاتي، المماثلة لنفسها، والمحددة للشروط (الشروط المتعالية)؛ أما الأفكار النقدية فإنها تبرز ذاتا مشروطة، مفتقرة للاتساق، بل هي ذات وهمية.

وبما أن العلامة قد تم تصورها على شاكلة الإنسان، فإن المفاهيم تنقل أيضا في مجال السيميائيات الأساسية بمعية الأطروحة القائلة إن المفاهيم نفسها متغيرة ومحددة بشروط.

7.القيمة السوسيرية والأپوها ڤادا

غالبا ما نرجع إلى الهند بصورة شاملة، مفضلين النحويين والمناطقة وعلماء الهيرمينوطيقا المنتسبين إلى التقليد الهندوسي، فقد كانت كل هذه المعارف مرتبطة بالأنطولوجيا الثبوتية ، نظرا لعدة اعتبارات دينية؛ غير أنه إذا كان سوسير قد أقام جسور التواصل التقني مع النحويين المتخصصين في السنسكريتية الهندوسية، شأنه في ذلك أن طائفة من اللسانيين الذين عاصروه، وعلى رأسهم بانيني (Panini)، فإنه قد طور من خلال دراسة مجموعة المحاور فكرا شبيها بفكر المناوئين له والبوذيين الذين عمدوا إلى نقد التقليد الهندوسي. وهكذا، وبعد فيرث، شد نا على التشابه القائم بين المنهجية الاختلافية عند سوسير ومنطق الأپوها (*apoha*) أو الطلاق المؤسس من قبل من اڭا (Dignâga)[143]. ومهما يكن من أمر منطق المواقف النظرية، فإن ذلك سيكون عبارة عن تبسيط مبالغ فيه أكد منه مجرد إشارة إلى "عطاء الهند" (أنظر أطلاني، 2003، ص 79-93)، و"إلى معالجة النص الخاص دينيو وعي" (ص 80)، مع العمل على إظهار جوهر الفلسفة الهندية (ص 84 ، 89، 90 وما يليها) المختزلة فقط أكثر في التقليد الهندوسي القديم. باللا

جمعت في القرن الخامس والعاشر من عصرنا الحديث مناظرة قيمة بين علماء الهيرمينوطيقا والمناطقة البراهمانيين الأورثودوكس والمناطقة البوذيين، وحصل الخلاف بين علماء الهيرمينوطيقا المنتسبين لمدرسة التفسير المسماة ميمانسا (*Mîmânsâ*) ومناطقة نيايا (*Nyaya*) من جهة، والبوذيين الأورثودوكسيين الملقبين بالسوترانتِكا[144] (*Sautrântika*) من جهة ثانية. وذهب الفريق الأول، وفقا للتقاليد الهندوسية، إلى القول بالخاصية الثبوتية الإيجابية للوجود، وافترضوا وجود الكوني المطلق، كما ساندوا التصورات الواقعية للدلالة اللفظية التي تفترض أن الكلمات تمثل واقعا موضوعيا، ومستمرا بالنسبة للبعض، وغير مستمر بالنسبة للبعض الآخر؛ وفي المقابل، كان المناطقة البوذيون، وفي مقدمتهم دينياگا (حوالي 480-540)، يدافعون عن أطروحة مفادها أن التصور "ليس إلا اسما [...] بل هو بناء ذهني مفتقر إلى واقع خارجي مطابق [...] ومبني عن طريق الإقصاء، وعلى أساس كل ما ليس هو" زيمرمان(Zemermann)، 1990، ص402). وهذا التعريف السلبي أو **الأپوها** (وتعني في السنسكريتية الإقصاء أو الفصل) يجعل مثلا من البقرة كل ما ليس بلا-بقرة: "إذ يؤكد دينياگا أن الاسم

[142] . الإله بوذا فارغ (sunya): فطبيعته الحقيقية هي أنه لا يملك طبيعة حقيقية.

[143]. انظر الكاتب، 1991، ص 239 وعلى الخصوص التوضيح الجيد الذي قدمه دوطاڤي (D'Ottavi)، 2010.

[144] . تظل سارڤاستڤادا (Sarvâstivâda)، وهي مدرسة بوذية، متأثرة بالبراهمانية.

يعبر عن معناه الحقيقي"، بواسطة إقصاء المعنى المضاد (ستشيرباتسكي (Stcherbatsky)، 1930، I، ص402)؛ وبذلك يكون معنى الاسم هو "مجموع الأمور المشار إليها والمتعرضة للنفي "[145].

نستخلص من هذا الكلام وجود الفرضية الاسمية، ولكن بصورة أكثر جذرية مما هو قائم في التقليد الغربي المتسم بهيمنة الواقعية، إلى درجة أن المذهب الاسمي ما هو في الواقع إلا واقعية متعلقة بالأفراد. واللافت للانتباه أن التسمية الجذرية أو مبدأ النزعة المضادة للواقعية عند المناطقة البوذيين غير مطابقة لما هو عليه الأمر في الغرب، لأنها ترتكز على رفض كل فلسفة قائمة على الأنطولوجيا. وسيكون من الوهم ربط هذا الموقف "بأنطولوجيا الفراغ" الغامضة والمقابلة "لأنطولوجيا الامتلاء" عند البراهمانية الأرثودوكسية.

وتستند الحجة الرئيسة عند دينياگا على نقد السمات الكونية؛ إذ يستبدل التعريف "الأفقي" المعتمد على عملية التضمن، والذي يقر بالسُّلمية الأنطولوجية بين الموجودات والوجود، بعلاقة عمودية للتخصيص العكسي بين المفاهيم، ومن ثم طرح لأجل ذلك مسألة النفي بوصفها علاقة أولية[146].

ويظل المناطقة البوذيون، شأنهم في ذلك شأن المناوئين لهم، فلاسفة المعرفة، ولكنهم يتميزون بتصورهم الخاص لدور الخيال والمعرفة في الكشف عن خبايا الذات. وينبغي علينا أن نحتفظ على وجه التبسيط ومن خلال النقاشات بالفكرة القائلة إن الأيوها تبدو مطابقة من حيث المبدأ لمفهوم القيمة السوسيرية، وتكمن السمة العبقرية لسوسير في تطبيقها على الوحدات اللغوية وليس على التصورات. ومن جهته، أكد دينياگا على طابعه الاسمي، من دون التمييز بين المدلولات والتصورات في سوترا تفترض- تحت إيقاع دلالي جميل- أن الأسماء تشتق من التصورات وأن المفاهيم نابعة من الأسماء (*Vikalpa-yanayah sabdah/ vihalâh sabda-yonayah* ; Gill, 2001, p. 60). وتعد هذه الوحدة الجدلية شاهدة على أن الأسماء والتصورات، والدلائل والمدلولات لم تعد منفصلة جراء الاختلاف الأنطولوجي.

إنني لا أدَّعي مع كل هذا أن **القيمة** السوسيرية مستمدة من **الأيوها**؛ غير أن هذين المفهومين يقومان بتوليف تصور متشدد فيما يخص التوجه الاختلافي للموضوعية ويستجيبان للمواقف النظرية نفسها. وهكذا أفسدت القطيعة مع الأنطولوجيا البوذية الواقعيةَ ذات التوجه الدوغمائي المتجدر في البراهمانية الأرثوذوكسية؛ الأمر الذي سمح لدينياگا باستخلاص النتائج في مجال تعريف المفاهيم. ومن جهته، توصل سوسير إلى تعريف تقابلي خالص للوحدات اللغوية، خاصة المدلولات ، وذلك من خلال نقده الفرضية المرجعية في التقليد الأرسطي؛ ومن هنا نفهم نقده لمفهوم الجوهر، وكثرة الصيغ النافية في كتاباته، الخ.

ومن ناحية أخرى، يُطرح مشكل سمة النفي عند المناطقة البوذيين بخصوص الوضع المعرفي للأشياء الغائبة وبدرجة أقل بخصوص الخيال الذي يمكّن من إدراكها؛ لذا اعتقد دينياگا بعدم وجود موضوعات خاطئة، فحتى المعرفة "الخاطئة" تشتمل على موضوع، وهو الوهم الناتج عن العقل. وسلم دارماكيرتي[147]، وهو أحد تابعيه، بأنه بالإمكان إدراج الأشياء الغائبة وحتى موضعها الفارغ في الفعل المعرفي نفسه، وقد جرى تعريف النفي إذن على أنه عملية يتم بموجبها استنباط غياب الشيء، ومن ثم يؤسسها استنادا إلى إشارة مرفوضة (انظر جيل، 2001، ص 38 والنص المترجم، ص52). وينشأ قانون التناقض، وهو أمر أساس في نظرية الأيوها ، من خلال الخاصية الأساسية للنفي. ويحددها دارماكيرتي على أنها تنافر يُترجَم باستحالة التعايش المتواصل. ويكون التناقض **على مستوى الجوهر** بتحديد طبيعة كل وحدة، حيث يتميز كل فكر عن الآخر، إما بتأكيد الخصائص

---

[145] . وفي المقابل، رفض أرسطو كل فلسفة سلبية، عندما سلم بأن التعابير من قبيل لا-إنسان (*out anthropos*) لا تعتبر أسماء ومن ثم، فهي فاقدة لكل دلالة (*Peri hermeneias*, 2, 30 sq).

[146]. غير أنه في تقاليدنا، كان الواقعيون، من الرواقيين إلى بوتيي، يسلمون بأن التأكيد أفضل من النفي.

[147] . كُتب مؤلف دارماكيرتي (Dharmakîrti) في القرن السابع الميلادي : وتم التعليق عليه في القرن الموالي من خلال بحث دارموطارا المعنون *Nyâya-bindu*، وترجم فيما بعد على يد ستشيربتسكي (Stcherbatsky)، 1932، Vol. II.

الملازمة في السياق نفسه، أو بتأكيد غياب شيء في فضاء فارغ؛ وتقتضي الممارسة العقلانية بالأساس منحَ الحضور للحالات المماثلة والغياب للحالات الخفية.

وإذا رجعنا الآن إلى المبادئ السوسيرية، فسنجد أنها تشمل التقابل بين العلاقات اللغوية الحاضرة المبنية على التطابق والعلاقات الغائبة المبنية على اللاتطابق؛ وهو ما تم بالفعل، لم يحتفظ مؤلفو كتاب «**الدروس**» إلا بالعلاقات الاقترانية المبنية على مبدأ المماثلة الجزئية، ولكن الأمثلة المذكورة في الكتاب لا قيمة لها إلا في إطار توليف المورفيمات داخل الكلمة. فعلى سبيل المثال، يتصل الفعل refaire في علاقة ترابط مع الفعل défaire، ولكن فكرة سوسير تبدو هنا ملطّفة بصورة مبالغ فيها، ذلك أن اللاتطابق[148] هو ما يؤسس على وجه الدقة العلاقة الجدولية؛ وحقيقة، لا يمكن أن نجد إلا refaire أو défaire في موضع معين من السلسلة المنتمية إلى مستوى المركّب، وقد أوضحت تجارب مريدي مبدإ الترابط في القرن الماضي أن علاقة التضاد أساسية، وأكدت ذلك التجارب المعاصرة حول تنشيط الجانب الإدراكي أو التحفيز.

وهكذا، فإن الغياب باعتباره حضورا معرض للنفي (بالمفهوم المنطقي[149])، كما أن الكبت (بالتعبير السيكولوجي) يظل أساس كل نشاط لغوي، لأن كل تلفظ يفترض في كل اختيار لأية علامة، أن يقوم بإقصاء علامات أخرى من الجدول نفسه، وهي العلامات التي يمكنها أن تشغل الموضع نفسه، فالكبت الشامل يقيد ويصاحب التنشيط المحلي.

وبكلمة موجزة، باستطاعتنا تعريف الحضور على أنه تجميع الغيابات المرفوضة، وفي نظرية المناطق البشرية المنشأ، نجد أن المنطقة البعيدة (القاصية) هي منطقة المحيط الإنساني الخالي من الطبقة السفلى الخاصة بالإدراك الفوري[150]، إذ يقع إنشاؤها وتشكيلها بواسطة النشاط السيميائي؛ وبناء عليه، يتمثل التلفظ في المرور من البعيد الغائب إلى العلامة القريبة الحاضرة بواسطة الكبت الذي نسميه عادة **تحييننا**. وبعبارة أخرى، فإن اختيار علامة ما، موصوفة على أنها تنشيط، تقترن بعملية كبت منافية لها، وكذا كبت العلامات الأخرى المنتمية إلى الطبقة نفسها.

---

[148] . أكد سوسير مثلا، تطبيقا لمبدأ النفي الذي يُغرس في قلب اللغة، ما يلي: "تستند اللغة إلى الربط بين سلسلتين من الوقائع: أولا، هناك وقائع لا تتمثل إلا في المقابلات السلبية أو في الاختلافات، وفي كلمات مختلفة وعارضة لخاصية النفي في حد ذاتها، ثانيا، لا توجد أية واقعة، حتى في سمة النفي المرتبطة بها، إلا لكونها مساوية للحالة التي يكون فيها الاختلاف من المرتبة الأولى منصهرا في كل لحظة في اختلاف من الدرجة الثانية، والعكس صحيح" (*ELG*, p.73) "ولا تعد مختلف كلمات اللغة، عوض أن تكون كلمات مختلفة مثل الأنواع الكيميائية، الخ، إلا اختلافات محددة بين الكلمات الفارغة وغير المحددة من دون هذه الاختلافات" (*ELG*, p. 64).

[149]. في المنطق، يفترض هذا الموقف أن النفي يسبق التأكيد، وعلى وجه التدقيق، نقول إن التأكيد ينتج عن مجموع القضايا المعرضة للنفي.

[150]. انظر الكاتب b 1996، 2001. تتميز قطيعة المستوى السيميائي للمحيط الإنساني بأربع عمليات انفصال ذات منحى عمومي جدا، والتي تبدو مؤكدة بصورة مختلفة في كل اللغات الموصوفة، إلى درجة أنه بالإمكان منحها، على سبيل الافتراض، مدى أنثروبولوجيا، (أ) تضع القطيعة **الشخصية** في مقابل الزوج الحواري **أنا-أنت** شخصا ثالثا يعرف على أنه غائب عن الحوار (وحتى ولو كان حاضرا ببدنه): IL,ON,ÇA؛ (ب) تضع القطيعة **المكانية** في مقابل الزوج **هنا- هناك** كلمة ثالثة، وهي **هناك** أو **في مكان** بعيد، ويتميز هذا الأخير أيضا بالغياب عن مكان ووقت الحوار، (ج) تضع القطيعة الزمنية في مقابل **الآن** و**الأمس** و**المستقبل** صيغة **الماضي** و**المستقبل**؛ (د) تضع القطيعة الجهية في مقابل المؤكد والمحتمَل صيغة الممكن وغير الواقعي. ويقع الدمج بين الأوضاع المتشابهة في محور الشخص، والزمن، والمكان، والجهة، وتكون مختلطة أو ملتبسة. ويمكّن التشابه بين عمليات الانفصال من التمييز بين ثلاث مناطق: منطقة الصدف وهي المنطقة **الهوياتية**؛ ومنطقة المجاورة وهي منطقة **القاصية**؛ ومنطقة خاصة بما هو غرائبي وتسمى منطقة **القرب**.

ويوضح الاختيار الجدولي في درجة العلامة ظاهرة عامة ينبغي ربطها **بالإدراك الدلالي** (انظر الكاتب، 1991، الفصل الثامن)، ويقيم هذا الإدراك علاقة سُلمية بين ثلاثة أنواع من الأبنية، وهي الأشكال، والخلفيات، وعمق الأشكال والخلفيات، أي جداول الأشكال والخلفيات الأخرى المنافسة التي تربط الإدراك الحاضر في المتن بالتجارب اللغوية الماضية[151].

وتعتبر السيرورة الأساسية للاختيار الجدولي خاصية تميز اللغات الإنسانية في مقابل اللغات الحيوانية. وترتبط بغزو الغياب من قبل الجنس البشري، وهو ما يمكن تسميته بالنشوء وتطور المنطقة البعيدة[152]. أما الطبقة الفيزيولوجية السفلى، فإنها ترتبط بالتطور الاستثنائي لقشرة الدماغ الأمامية عند الإنسان، وهي القشرة التي تعالج خاصة إدراك الأشياء الغائبة[153].

8. نتائج القطيعة مع الأنطولوجيا

استخدم سوسير تشخيصا غريبا وهائلا بخصوص اللغة، كما لو أن وضعيتها تحيل إلى العدم كل الوقائع المنتمية إلى نظام لغوي آخر: "وهكذا، فإن وجود الوقائع المادية والوقائع المنتمية إلى نظام آخر غير مبالية باللغة؛ إنما تتقدم دائما وتتحرك بواسطة الآلة الهائلة المحركة للمقولات النافية، إذ تظهر على أنها حقيقة منفصلة عن كل واقعة مجسدة؛ وعلى هذا الأساس، فهي مستعدة فورا لتخزين أي فكرة تضاف إلى الأفكار السالفة[154]".

وبالنظر إلى الخلفية الأسطورية لعمله، وتشخيص اللغة، والسمة التراجيدية للإهمال، هل سيتخلص سوسير من الميتافيزيقا ذات التقليد الأرسطي من أجل خلق ميتافيزيقا أخرى؟ ويلزمنا هذا السؤال المشروع بإعادة الاعتبار للنشاط النظري ذاته، في لحظة تأمل تشهد بها هنا المخطوطات السوسيرية. فلا يمكن للعلم والأسطورة أن ينفصلا بصورة نهائية بواسطة التقدم الحاصل في المعارف، ولكن يتعين على النشاط النقدي أن يعيد باستمرار تسطير الحدود بينها. ومن دون شك ستتخلص النظريات من الأساطير، وستصبح أكثر علمية حينما يجري إخضاعها لإجراءات التصديق الداخلي والخارجي، التي تلعب بالنسبة للنظريات دور مبدأ الواقعية؛ وربما لا يمثل تشخيص اللغة فقط الصورة الملحمية، ولكنه يقيّد، ويعلن عن موضعته وخضوعه للتشاكل العلمي، انطلاقا من التشاكل الأسطوري للنص السوسيري. وتغيَّر دور التشخيص بالمقارنة مع النظريات السالفة، إذ لم يعد أداة، ولكنه أصبح عاملا[155]. وكانت اللغة في الماضي تعتبر خادمة للفكر، وأصبحت بطلة مثل بطلات السرد الأسطوري، وبذلك بدا عليها التغيير إن على مستوى المظهر أو على مستوى الوظيفة.

القطيعة مع الأنطولوجيا ونتائجها المقلقة-. عمد سوسير إلى فصل المدلول عن باقي مكونات اللغة فاتحا بذلك الطريق أمام احتمال ظهور الدلالة المستقلة، وقد تم ذلك في الوقت الذي كانت فيه النظريات الغربية حول الدلالة رهينة التمثيل اللغوي للوجود بواسطة تيارين حصل بينهما توافق.

---

[151]. بخلاف الإدراك الحيواني، يترك الإدراك الإنساني ذو الطابع الثقافوي المجالَ للسيرورات التنازلية.

[152]. انظر الكاتب 1996 b.

[153]. انظر هودي (Houdé)، 1995، الفصل الثاني، حول إصرار الأشياء المختفية، والكوطيكس في مقدمة الدماغ، والكبح.

[154]. *ELG*, I, §26, p.76. تذكرنا هنا اللغة المعرضة للتشخيص بالليل البودليري، الليلة القوية والغامضة.

[155]. حول حضور التشاكلات الأسطورية والعلمية في النظريات اللسانية، انظر الكاتب 1971 و2013. وعلى وجه العموم، تنتج الفرضيات العلمية والصور الخيالية الفلسفية، بل والأدبية عن المتخيل المشترك. سلم الأرسطيون بأن العالم ممتلئ، ونهائي، ومتمركز، بينما صاغ الأفلاطونيون الجدد فرضية الفراغ، واللانهائي، وتعدد العوالم. ذلك أن حدس جيوردانو برونو قد تم التحقق منه من قبل گاليلي. ولا تختزل العلوم مع ذلك في المتخيل القابل للتحقق؛ بحيث إنها لا تبنى ولا تستمر إلا بواسطة المقاومة اللامحدودة، في مواجهة الأسطورة، لكن النتائج مشكوك فيها، حتى في الأشكال غير المدركة الممثلة في بديهيات المعتقدات العادية. ولكن قبل النهاية المؤقتة لهذا الصراع، نجد في مسودات العلماء، من أمثال كيبلر (Képler) وسوسير، بعض الحدس الشعري (بالمعنى القوي) الذي يشير من دون شك إلى الفكر الخلاق قبل بلورته في شكل أنواع أكاديمية.

إننا لا نجترأ على القطيعة مع العادات العريقة في الفكر من دون مخاطر، وقد تتخذ نتائج القطيعة مع الأنطولوجيا عند سوسير منحى استسلاميا، بل مزعجا. وسنقوم بجرد أربعة مساوئ لذلك، ألا وهي الإهمال، ونهاية الحقيقة بوصفها أمرا متطابقا مع الواقع، ونظام الصعوبة، واحتمالات النظام.

(1) الإهمال-. يقول سوسير: "يتخيل لكل من وضع قدميه فوق أرضية اللغة أنه قد تم التخلي عنه من قبل كل ياسات الأرض والسماء" (*ELG*, p. 220). وتمنح الإشارة إلى السماء والأرض هذا القول حمولة قدرية: فليس لساني، أو لنقل ليس فقط اللساني، وإنما الإنسان (بالمفهوم الفلسفي) هو المتخلى عنه. ويوجد في وضع لا يجد فيه ة ملجأ، لأن القياس كان هو ضمان الرابط الشاعري والديني مع العالم والله. والقياس هو أول أشكال المعنى ال روحي[156]، لأنه ينشئ رابطا بين مستويين من الواقع، وبواسطة الوحدة المرغوبة، يظهر على أنه انصهاري، ال ذلك أنه في إطار التوحد مع الله، يبدو وكأنه نمط من علاقة المصادفة مع الوجود. ال

(2) نهاية التمثيل.- تعرَّف الحقيقة- في المنظور اللغوي الكلاسيكي- على أنها تعبير عن المطابقة الحاصلة بين الفكر وحقيقة الأشياء (الواقع)، لكن دراسة اللغات تجعل هذا التعريف أمرا لا يمكن تصوره: "فبالكاد نستطيع القول بأن الاختلاف بين الكلمات، الذي يُكون نسق لغة ما لا يطابق البتة، ولو في اللغة المثالية، العلاقات الحقيقية بين الأشياء، وأنه لا نرى على إثر ذلك أي سبب لانتظار تحقق الحالة التي تكون فيها الكلمات مطابقة للأشياء المادية أو غيرها[157] بصورة مكتملة أو حتى غير مكتملة".

وكما نرى، تسمح نهاية التصور التمثيلي للغة بالاعتراف بإبداعيتها، ومن خلال استقلالها عن كل ما يمت بصلة إلى الأنطولوجيا المشكَّلة مسبقا، يمكن للغة أن تقدم بفعل التراكم كل الأفكار الجديدة؛ غير أنه لا يمكن تصور الإبداع اللغوي بواسطة الإشكالية المنطقية-النحوية المبنية على أساس العلامة. وهذا ما فسَّر فشل النظرية الشومسكية في معالجة هذا الموضوع، حتى وإن اختزلناها في توليد الجُمل. ولا يمكن للإبداع إلا أن يتأسس على نظرية الحركة، وليس على نظرية التمثيلات، لأن الممارسة هي الأمر الوحيد الذي يحقق الجديد، وذلك بالربط بين العناصر التي كانت إلى وقت قريب متباينة؛ ومن ثم، فالإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية التي تُستند إلى النص والإنجازات السيميائية المعقدة هي الأصلح لمعالجة الإبداع، إذ تقود بصورة طبيعية إلى لسانيات الكلام، بما أن اللغة هي أنطولوجيا صلبة قائمة على ممارسة الكلام.

وفي الأخير، يسمح المبدأ الاختلافي في اللسانيات السوسيرية المطبقة على السياقات والنصوص باستخلاص ما مفاده أن كل ورود لغوي جديد هو حالة شاذة، وهذا ما يبرر حدس شليرماخير، حينما مدد ملكة الخلق اللغوي ليشمل كل التلفظ.

(3) نظام الصعوبة[158].- إن الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي المنحدر من البلاغة العتيقة قد مَثَّلَ السندَ الذي بُني على أساسه الترميز عند آباء الكنيسة، وبواسطته طُرح التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى الروحي. وبهذا يظل الأساس الذي ارتكزت عليه كل المقاربات الدلالية ذات النزعة الوضعية؛ إذ يرتبط المعنى الحقيقي أو الحرفي بالإشارة الطبيعية والآنية، سواء تعلق الأمر بالإدراك البسيط المرتبط بطوم، أو ببداهة التجريبية المنطقية، بينما يتميز المعنى المجازي بكونه موضوع الاستدلال الذي استبدل في الوقت الحاضر بالحساب التداولي.

---

[156]. انظر:

Thomas d'Aquin , *Somme théologique*, qu. I, art. 10, conclusion

[157] . *ELG*, p. 76

[158] .ويعنى هذا النظام ببساطة أنه من الصعب إيجاد معنى حقيقي أو أساسي للكلمة، لأن الدلالة في حالة متغيرة، حسب السياقات والنصوص وتبدلات الحياة ذاتها، فلا يوجد معنى حقيقي أو مجازي، وإنما هناك دلالات متوالدة ومتجددة (المترجم).

ولكن حينما نتخلى عن تعريف العلامة من منظور علاقة التمثيل التي تحدد مرجعها، يتبدد الجهاز النظري العتيق، إذ يقول سوسير في هذا الصدد:" لا يوجد فرق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمات (أولا تملك الكلمات معنى مجازيا أكثر من المعنى الحقيقي)، لأن معناها سلبي للغاية"[159]. ويقود هذا القول إلى حذف كل ما قيل من قبل، فلا وجود للمرجع، وبذلك سيتم الاستغناء عن المعنى الحقيقي، وبما أن المرجع لا يعدو أن يكون مجرد رأي مشترك، فلن يكون هناك موطئ قدم للمعتقدات ولا للترف الفكري. ويخضع كل تأويل لنظام الصعوبة، ويصبح أيضا من الصعب التعرف على الدلالات اللفظية أو وسمها، سواء كان المعنى حقيقيا أم مجازيا.

(4) نهاية الثنائية، النظام المفارق والوحدة المتناقضة.- تعرض الثلاثي السيميائي الدائم والمنحدر من التقليد الأرسطي (علامة ⟵ التصور ⟵ مرجع) إلى عملية التفكيك. وإلى جانب العلاقة التمثيلية التي تجمع بين التصور والشيء، فإن العلاقة التي تربط بين العلامة والتصور تصبح غير ممكنة التصور. وفي الواقع، لا يُمثل الدال المدلولَ، مثلما أن المدلول لا يمثل الشيءَ.

وأكثر من هذا، اعتبر كاتبنا تعدد المدلولات وتنوع الدلائل تركيبة لا انفصام لها، وينطلق التفكير في واقع الأمر مما سماه هيلمسليف **التضمن المعكوس** الذي يميز مستويين في اللغة؛ وفي هذا يقول سوسير: "ليس هناك معطى سوى تنوع العلامات المدمجة من غير انفصام وبصورة معقدة للغاية مع تنوع الأفكار. وباتحادهما يَخلق العنصران المكونان للفوضى نظاما، ولا يوجد أمر أكثر عبثية من محاولة تأسيس نظام مع العمل على التفريق بين العناصر، ولا أحد فوق الأرض يفكر في التفريق بينها بصورة جذرية. ونقتصر في عملنا على جرد الواحد منفصلا عن الآخر، وانطلاقا من اختيارنا للعنصر الأول أو الثاني، بعد ما نكون قد جعلنا من قبل من هذا أو ذلك شيئا قائما بذاته؛ وهذا بالضبط ما نقصد بعملية التفريق بين الشيئين، وهو ما نعتقد أنه العيب الأساس في الاعتبارات النحوية التي اعتدنا عليها"[160].

ويحيل مفهوم **الفوضى** والصيغة السلبية القائلة **"لا أحد فوق الأرض"** إلى تيمة الإهمال البعيدة عن العناية الإلهية. وينبثق من هذه الخلفية استنتاج حاسم، مفاده أنه إذا كان مستويَي اللغة غير منفصلين، فإن هذا يضع حدا للثنائية التقليدية التي تجعل من التعبير الموضع المحايد للمضمون الموجود سلفا، وللتصور الأداتي للغة، الذي يخضعها لخدمة الفكر المستقل بجانب البنيات اللغوية.

أما ما يتعلق بالإحساس التراجيدي الناتج عن الإهمال، فإن القطيعة مع التقليد الأنطولوجي الذي يفترض انطلاقا من التفاهم السِّلمي امتلاءَ العالم والله، تؤدي إلى نوع من التناسق الكوني، المدرَك بصورة مختلفة في التقاليد الأرسطية والأفلاطونية. وفي معرض وصفه للقاء بين نوعين من الفوضى لخلق نظام عارض وغير متوقع، أشار سوسير إلى التيارات الفكرية المهتمة بالإهمال (dérélection)[161]، منذ لوكريتيوس[162] وصولا إلى مؤلف ألتوسير الذي طبع بعد وفاته وعنوانه *Le matérialisme de la rencontre*[163].

ومن دون الاستكانة إلى وجود كائن نمتثل إليه، فإن الأخلاق المعيارية قد تُعوَّض بأخلاقيات المسؤولية؛ وعلى الأقل، تظل تراجيديا الإهمال غير معروفة في البوذية، التي تجد في الخير أساسا لعلاقة جديدة مع العالم.

---

[159] . *ELG*, I, §23, p.72

[160] . *ELG*, I, § 11, pp. 51-52

[161] . الإهمال يعني ترك البعد الديني في المنظور اللغوي (المترجم).

[162] . لوكريتيوس (Lucrèce): شاعر وفيلسوف مادي روماني، تبنى فلسفة أبيقور لمقاومة الخوف والعقاب بعد الموت. ولا داعي للخوف من الآلهة لأنه باعتقاده ليس لها نفوذ على حياة الإنسان، وكان لشعره تأثير على تطور الفلسفة في عصر النهضة (المترجم).

[163] . انظر *Le courant souterrain du matérialisme de la rencontre* (1982), in Althusser, 1994, pp. 553-594. وهذا النص المضاد للأنطولوجيا يعيد أطروحة سوسير القائلة بأن " البنية تسبق العناصر" (ص 588)، وذلك بتكييفها مع التاريخ.

القسم الثالث

مستقبل السيميائيات

إلى جانب اللسانيات بطبيعة الحال، وضعت الثورات السوسيرية بصمتها على السيميائيات والأنثروبولوجيا وغيرهما من العلوم الاجتماعية، وذلك بانتهاجها قطيعة مع الأنطولوجيا والمقولات الأرسطية التي بررت دائما مختلف أشكال الوضعية. ونتيجة لذلك، أسس الإطار الاختلافي للسوسيرية قواعد جديدة في الفكرالبنيوي المعاصر.

رفض سوسير المبادئ العامة التي كانت وراء التقليد الأنطولوجي الغربي، متجنبا- بشكل خاص-المرجع ونظرية تمثيل المفاهيم، وقد بدا ذلك من خلال:

(1) تقليص الوحدات اللغوية إلى شبكات من العلاقات التي ترسم الأشكال وليس الجواهر، وتتكون هذه الأشكال من ضروب من الاختلافات.

(2) وبناء على النقطة السابقة، أصبح السياق القريب أو البعيد مكوِنا، ولا يتم اللجوء إلى تطبيق أي مبدأ تعريفي. ولا يمكننا التأكيد بأن "أ" يساوي "أ"، فكل ورود يختلف عن التواردات الأخرى.

(3) وهذا يؤسس، كما سنرى، إبستيمولوجيا ومنهجية الوصف العلمي بخصوص التنوع اللغوي، في إطار سيميائيات الثقافات[164] المتسمة بالطابع التاريخي والمقارناتي.

لقد سلط سوسير الضوء على جوانب جديدة في العلاقات بين اللغة والفكر، وبين العلامات والموضوعات الثقافية، معتمدا في ذلك على التصور القاضي بعدم انفصال الأشياء ووجهات النظر، وأشكال الصيرورة الزمنية، وديناميةالأنساق؛ وهكذا، كشف فكره عن مدى إبستيمولوجي عام يهم التصور العلمي نفسه. وبعد أزمة هوية علوم الثقافة[165]، نرى أن الثورات السوسيرية تساعد على تصور مشروع إعادة تأسيس جديد، ويتعين علينا في الوقت الحاضر تقييم هذه الحالة الجديدة لكي نخطط للتفكير فيما ستؤول إليه الأمور في المستقبل.

[164] . للمزيد من التفاصيل حول سيميائيات الثقافات، انظر الخطاب، 2017، الفصل الثالث (المترجم).

[165] . والسؤال الذي يطرح في هذا الشأن هو هل علوم الثقافة هي علوم منطقية أم تأويلية؟ حيث تؤكد الدراسات الإبستيمولوجية أنها علوم إيديوغرافية، نقدية، وتقوم على التأويل بدل التفسير، ومن خصائصها أن منهجيتها ترتكز على التداخل المعرفي وتعتبر علوم اللغة أنموذجها المفضل، انظر الخطاب، 2017، الخاتمة (المترجم).

الفصل السادس

سوسير ومسألة النصوص

بدأنا القسم الأول من هذا الكتاب بمساءلة نصوص سوسير، وسنشرع في القسم الأخير منه في تناول أسئلة حول النظرية النصية عند هذا المفكر، وذلك من خلال جملة من الأسئلة:

- لماذا قضى سوسير عدة سنين في دراسة متون نصوص تعود إلى العهد القديم، أي العهد الفيدي، والإغريقي، واللاتيني، والجرماني، ولم يكن هذا من أجل العثور على شواهد نحوية ولكن بهدف التساؤل حول بنياتها الدلالية واطراداتها الصوتية؟
- لماذا لا يشير مؤلَف **دروس في اللسانيات العامة**، وهو ترجمة للسوسيرية، إلى دراسة النصوص، في حين لم تكن لسانيات تلك الحقبة تفصل بعد وبوضوح تام بين دراسة النصوص ودراسة اللغات؟
- لماذا منحت الدراسات اللغوية حول النصوص، والأساطير الجرمانية، وقلب الحروف في الشعر العتيق - على وجه التحديد- المصداقية لأسطورة سوسير آخر،غامض، ومن المرجح أن يفسد هذا ما بناه أستاذ جامعة جنيف؟ وعمدنا إلى التنقيب عن سوسير ليلي في ضوء الجامعة النهارية[166]، في الوقت الذي كان عليه القيام ببحث عن "الكلمات تحت الكلمات"[167]. إنني أشك في وجود سوسيرَين، وأشك أن الأستاذ المحترم قد خاطر بسمعته حين أقدم على مغامرة البحث في الشعر الهندوسي القديم أو اللاتيني، مثلما كان من الممكن أن يغامر في أماكن سيئة السمعة.
- لماذا عالج أكبر مريدي سوسير في اللسانيات، وهما هيلمسليف وكوسيريو، النصوص؟ فالأول جعل من النص الوحدة الأساسية ونقطة بداية التحليل اللساني؛أما الثاني، فقد طرح لسانيات النص (1981) التي تصف المقولات الوصفية. وبخصوص السيميائيات الأوروبية، وعلى الأقل تلك التي حققت نجاحاتها الرئيسة، المنحدرة من لسانيات سوسير، فإنها تعد سيميائيات نصية، ولا أدل على ذلك وجود "السيميو-لسانيات " التي طرحها گريماس.

1. السيميولوجيا بوصفها لسانيات النص

لا يتعلق مشكل السيميوزيس فقط بالعلامة، ولكن بالعلاقة الرابطة بين مستويَي النص، وفي داخل كل مستوى يتعلق الأمر بالعلاقة بين الأشكال والخلفيات. وبرفضنا الحدود الأنطولوجية القائمة بين درجات اللغة، وعلى وجه الخصوص درجة الجملة، نود اقتراح حل توحيدي لمشكل السيميوزيس، من أجل تشجيع إعادة توحيد علوم اللغة.

أولا: إعادة التوحيد النظري.- في إحدى الفقرات التي أوضح سيمون بوكي أهميتها، و"التي يمكن اعتبارها نظرية ليس "لعلامة اللغة" ولكن "لعلامة الكلام" (بوكي، 1999، ص41-42)، نجد أن سوسير يصرح بوجود وحدة متماسكة، وسط السيميولوجيا (وتسمى حاليا السيميائيات)، تضم المورفولوجيا، والنحو، والتركيب، والترادف، والبلاغة، والأسلوبية، والمعجمية، وحقول معرفية فرعية في اللسانيات (انظر *ELG*, p.45).

---

[166] . انظر داركو سيلڤيو أڤال D'Arco Silvio Avale : "إن قراءة التدوينات المتعلقة بالأساطير الجرمانية تكشف لنا سوسيرًا آخر، يختلي بنفسه ليُقدِم، وبصورة مفارقة، على تفكيك أسس العلم الذي كان يدافع عنه أمام الملأ" (1973a, p.60-61)؛ انظر أيضا أعمال الندوة التي نظمت بجامعة كولومبيا تيمة "السوسيرَين" (Bucher et al., *Recherches*, 16, 1974)، وانظر أيضا رودار (Redard)، 1978. وتبرز ازدواجية الشخصية عامة انفصامية النقد؛ إذ كان هذا هو شأن الماركسَين، ماركس الهيگيلي الذي أتاح المجال لظهور الماركسية التي تحولت إلى ماركسية أرثودوكسية، ويمكن أن نسوق مثال شخصيتين في شخص ڤتگنشتاين، ...الخ.

[167] . يحيل الكاتب هنا بطريقة غير مباشرة إلى كتاب جان سطاروبنسكي (Jean Starobinski) الصادر سنة 1971 بعنوان " *Les mots sous les mots*" ، وقدم فيه مؤلفه جميع نصوص سوسير حول قلب الحروف، كما تطرق إلى طبيعة البحث عند سوسير والمراحل التي قطعها في مسيرته الفكرية (المترجم).

وللإشارة، تعتبر توقعات إعادة توحيد الحقول المعرفية في غاية الأهمية، غير أن هذا المشروع ما زال في طور البداية، وفق الأطر التالية:

(أ) تمتد السيميائيات إلى كل مستويات المضمون اللغوي، وإذا ما سلمنا بأن اللسانيات هي عبارة عن سيميولوجيا اللغات، فإن السيميولوجيا التي عرفها المقطع السوسيري هي دلالة لغوية حاضنة للعديد من التخصصات؛ وهكذا، في التعداد المقدم، يشير مصطلح **ترادف** على وجه الاحتمال إلى الدلالة المقتصرة على الدرجة المعجمية. وفي الواقع، تنبثق الدلالة المعجمية من النزعة الترادفية عند مفكري الأنوار[168] .

(ب) تقوم السيميولوجيا في نص سوسير (2002) على توحيد الدرجات الثلاث في الدراسات التقليدية، وهي الكلمة (المورفولوجيا، والمعجمية، والترادف)، والمركَّب، والجُملة (التركيب، والنحو)، والنص (البلاغة والأسلوبية تفضلان بطبيعة الحال النص الشفوي أو المكتوب)[169]. ومن جهتنا أشرنا مرارا إلى ضرورة توحيد الدرجات الثلاث في حقل الدلالة (انظر، 1987).

(ج) وأخيرا، تتموضع الحقول المعرفية خاصة بالنظر إلى وظائف مستويات اللغة، وليس إلى أوجه العلامة. وتتمثل النتيجة في نظرية المستويين اللذين طرحهما هيلمسليف.

إن التوحيد النظري وإعادة ضم عناصر الموضوع أمران منبثقان من لسانيات الكلام، والدليل على ذلك هو حضور البلاغة والأسلوبية في التعداد الموجود في نص سوسير (2002) الآتي: "غير أن التفكير في لسانيات الكلام كان بالفعل مشروع سوسير وخاصة في القسم الأخير من درسه الأخير حول اللسانيات العامة. وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب قد أعلن في هذا القسم عن عنوان في بداية السنة، وهو "فطرية اللغة وممارستها عند الأفراد"[170].

ثانيا: تمديد الموضوع **والملحوظة حول الخطاب**.- في هذا السياق، يمكننا تقييم ورقة **الملحوظة حول الخطاب**[171]، ونسجل بصددها ثلاث نقط أساسية، وهي كالآتي:

(أ) " لم تخلق اللغة إلا من أجل الخطاب"، ولكن ما الذي يفصل الخطاب عن اللغة، أو ما الذي يقودنا إلى القول في بعض الأحيان بأن اللغة **تتحرك لكي تصبح خطابا؟** (أنظر *ELG*, p.277، التسويد من عندنا). ونصادف هنا التمييز العتيق بين *dunamis* و *ergon* (اللغة) و *energeia* (الخِطاب). ولكن هناك مصطلح "حركة" الذي أوليناه اهتماما خاصا، لأن البعد البراكسيولوجي في اللغة أمر مؤكد ولا غبار عليه.

(ب) واستنادا إلى ما سبق، لا يسبق المعنى الخطابَ، بما أنه يتبلور فيه :"ما الذي يجب عمله لكي تكون لدينا فكرة أننا نود التدليل على شيء، وذلك باستعمال ما بحوزتنا من المفردات اللامتناهية والموجودة في اللغة؟ والسؤال نفسه يطرح إذا ما أردنا أن نعرف ماهية الخطاب (المرجع نفسه)"؛ بحيث إن النموذج الواقعي للتلفّظ المقدم سالفا يجسّد بالضبط هذه الإشكالية.

---

[168]. قد يميل الاعتقاد بأن النزعة الترادفية والمعجمية ينتميان إلى التقليد المنطقي- النحوي، لأن هذه الإشكالية تفضل العلامة؛ غير أن الأبحاث حول الترادف تدرس الاختلافات على مستوى السياق، وتفضل المعجمية ما ينتج عن السياق، وهذا التوجه مخالف لما هو عليه الحال في المعجمية التطبيقية (la lexicographie).

[169]. وكانت هذه الحقول المعرفية عرضة للاختزال النحوي، منذ دومرسي (Dumarçais) إلى برامج المباريات المعاصرة؛ إذ غالبا ما تقتصر البلاغة على المجازات، وتختزل الأسلوبية في الوحدات الأسلوبية ، وفي الجزيئات التلفظية، ...الخ.

[170] . انظر بوكي، 1999، ص 42 و *CLG*/E,1.24.122

[171] **. الملحوظة حول الخطاب** (Note sur le discours) عنوان ورقة كتبها سوسير على الصفحة الأخيرة من دفتر مكون من 20 صفحة، دون تاريخ وغير مصنفة، ويوجد هذا الدفتر في خزانة جنيف . للمزيد من التفاصيل، انظر طسطنوار (Testenoire)، 2015 (المترجم).

(ج) ما هو موضوع هذه الحركة ؟" نلاحظ أن وظيفة الخطاب، مهما كان بدائيا ومصاغا بطريقة نجهلها، تتجلى في التأكيد على الرابط بين مفهومين مقدمين في شكل لغوي" (المرجع نفسه). ويمكن أن يكون هذا الرابط عبارة عن إسناد ثنائي، كما يمكن أن يأخذ شكلا أوليا لتفعيل التشاكل (isotopie) أو لانقطاعه بين المدلولات؛ إذ إن التنشيط أو التفعيل الخطابي للغة يقوم إذن على تأكيد الرابط الذي يجمع بين كلمة وأخرى، من دون أن يكون الإسناد بالضرورة محط شك. غير أن التشاكل، وعلى الرغم من أنه يلعب دورا ملحوظا، يعتبر ظاهرة مرتبطة بالمُرَكَّب وليس بالتركيب. ويضعف هذا التحليل الأطروحات المنطقية-النحوية التي تقلص المعطيات المركّبية لتجعلها مجرد معطيات تركيب، من أجل إعادة التأكيد على الخاصية المعيارية للجملة.

ومع سوسير، تجاوزت السيميائيات نظرية الوحدات لكي تصبح نظرية العلاقات؛ وبناء على هذا المعطى، جعل منها هيلمسليف نظرية الوظائف والوحدات الوظَفية[172]. وهكذا، وبمعية مختلف الوساطات، قادت بلورة النموذج النصي للعلامة إلى اقتراح نموذج سيميائي للنص؛ وبالإمكان إذن تخطي التناقض الواضح الذي لاحظه فير (2000، ص110) بين المخطوط المتعلق بالأعمال المهداة إلى ويتني (1894)، وفيه نقرأ ما يلي:"إن اللغة ليست إلا حالة خاصة للعلامة"، وبين تدوينة درس يعود لسنة 1908 (دفاتر ريدلانجي) وفيها يسلم سوسير بأنه " لا يمكن أن تُرى طبيعة العلامة إلا في اللغة"، هل نحن أمام تناقض أم تطور؟ إذا ما نظرنا إلى الفرق بين السنة المفصلية ،1894، (وفيها بلور سوسير مفهوم السيميولوجيا) والسنوات 1903 و1906، فإننا نلاحظ أن الأعمال الجديدة الهادفة إلى دراسة الأساطير الجرمانية (ابتداء من سنة 1903) وقلب الحروف (ابتداء من سنة 1906) أرغمته على ترك إشكالية العلامة للبحث في إشكالية النص، وهذا الأمر يظهر على مستوى تعبيراته (قلب الحروف) وعلى مستوى المضمون (التطريزات والرموز). وقد كوّن النص بالفعل الحلقةَ المفقودة بين اللسان والعلامة، إذ إن دراسته تمكن في آن واحد من التأكيد على هيمنة النشاط الكلامي على نسق اللسان، وعلى تحديد الكلي بواسطة المحلي.

ثالثا: علم النصوص السوسيري.- إن العديد من الكُتاب الذين يسندون إلى سوسير نظرية لغوية سانكرونية والذين يؤاخذون عليه، وبالوتيرة نفسها، نسيان الذات، والتاريخ، والمجتمع؛ لا يعيرون أي اهتمام بدراساته النصية. والسبب راجع إلى أن هذا قد يناقض بالفعل الحكم المسبق حول سوسير، مُنظِّر اللسان، الذي جرى تعريفه بأنه نسق سانكروني.

كيف والحالة هاته الإقدام على استرجاع الخاصية التناسقية للمشروع السوسيري؟ تمت ولادة السوسيرَين من رحم الفكر الثنائي الأكثر نزوعا نحو التقليد ؛ إذ إن كل عنصر من الثنائية يحدد بأنه الوجه الآخر للمادة نفسها، كما لو أن الدراسات النصية لم تكن إلا الأناجيل المحرَّفة لكتاب «**الدروس**»، الذي سما ليصل إلى درجة القاعدة. ولفهم سوسير، يتعين تعميق البحث في تصوره حول النصية، المصاغة في التدوينات (مثل ورقة **الملحوظة حول الخطاب**) والموجودة في دراسات المتن الذي سنشير إليه لاحقا.

إذا سلمنا بأن النصوص (المكتوبة والشفوية) تعتبر **موضوعا أمبريقيا** للسانيات، فإنه يتعين عليها التفكير في ممارساتها الوصفية. ولكي يتم وصف نص ما، فإن المعلومات النحوية ضرورية ولكنها غير كافية؛ إذ يستلزم الأمر ربطها بمعلومات ومناهج تعود إلى تقاليد أخرى (مثل الفيلولوجيا العتيقة، عندما كان دوني لوطراس يسلم بأن القسم الأخير والأجمل للنحو يوجد في الجزء الخاص بنقد الشعراء)، ولهذا ترتكز لسانيات سوسير على الدراسات التي تسلط الضوء على الشعر والأساطير.

[172] . ترجمة لمصطلح "fonctifs"، انظر الفاسي الفهري، 2009، ص 155 (المترجم).

أنجز سوسير دراساته النصية المبنية على متنَين للغات القديمة (الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية والقوطية)، وذلك بطرحه لمشكلات تبدو ظاهريا أنها غير متساوية، وهي مشكل قلب الحروف، ومشكل العلاقات بين البنيات السردية والرواسب التاريخية. سننجز بحثا حول هذه الدراسات مسلّمين بفرضيتين قمنا بصياغتهما، من دون الادعاء بأنهما ينتسبان إلى سوسير بصورة واضحة، وهاتان الفرضيتان هما:

(أ) **أسبقية الشمولي (النص) على المحلي (الشكل)**[173].- "إن قيمة شكل ما توجد كليا في النص ومنه نستقي هذه القيمة" (*CLG*, 1972, p. 351). لقد صاغ سوسير هذا المبدأ من أجل توضيح خاصية أساسية هي الخاصية السياقية والنصية التي تميز تصوره للسيميائيات، وسنتبناها بهدف دراسة متن أعماله.

ويقود هذا المبدأ إلى تجاوز الإشكالية المنطقية-النحوية في اللسانيات، بغية ترك المجال للتفكير في النص الذي يمكّن من تصور فرضية تحديد النصي مقارنة بما هو مورفو-تركيبي. وبالاستناد إلى مناهج التصنيف الآلي المطبق على المتون الموسومة، أثبتت التجارب مؤخرا صحة هذا التحديد، بما أن الخاصيات الشمولية الممثلة في الخطابات والأنواع وأساليب المؤلف تقيد أجزاء الخطاب، ومتغيرات أخرى يمكن الوصول إليها بواسطة المُوسِم الآلي (انظر الكاتب، 2011).

(ب) **الأسبقية المنهجية للكلام على اللسان**.- يعالج مفهوم الكلام السوسيري كل ما من شأنه تفعيل اللسان، على الرغم من الالتباس الذي يكتنف لفظة **كلام** وتفضيل الشفوي في التداوليات؛ وبالنظر إلى اللغة الاصطلاحية عند هيلمسليڤ، فإن الكلام هو الفعل الحدثي واللسان هو الخطاطة؛ فكل نص إذن يعتبر تمظهرا للكلام[174]، ونفترض أن لسانيات النص تنتمي إلى لسانيات الكلام.

ومن وجهة نظر الإبداع اللساني، يُعتبر الكلام الموقع الرئيس في الثنائية التي يقيمها مع اللسان، بمعنى أنه إذا سلمنا بأن "الكلام هو القوة النشيطة وهو منبع حقيقي للظواهر التي تلاحظ فيما بعد وبصورة تدريجية في نصف الثاني من اللغة" (*ELG*, p. 273)، فإن سوسير يتبع في هذا المضمار هومبولت الذي افترض أن من شأن ل استعمال للسان أن يغير النسق، ولا يجسد البتة الفكر السابق لشومسكي الذي جعل من اللسان آلة توليدية، الـ ك

معتقدا بذلك أنه توصل إلى حل مشكل الإبداع.

---

[173] . مبدأ الشمولي يحدد المحلي: لا يقوم التحليل اللساني عند راستيي (2010) على تعيين المستويات اللغوية كما هو متداول في جل المقاربات اللسانية المعاصرة، وإنما يرتكز تحليله على مفهوم الدرجة (palier). فقد أعاد النظر في التفرقة بين الدلالة والتداوليات، معتبرا أنه لا يوجد فرق بينهما من ناحية المستوى، ولكن من ناحية درجة الوصف. وهكذا، فالدرجات الوصفية في المقاربة الدلالية عند راستيي هي درجة المورفيم، ودرجة الليكسيم، ودرجة المكوّن، ودرجة السلسلة الجُملية المتسقة، ودرجة النص، وكل وحدة من هذه الوحدات تأخذ دلالتها من الوحدة التي تعلوها؛ وبعبارة أخرى، تتحدد دلالة المورفيم في الليكسيم، ودلالة الليكسيم في المكوّن، ويستنتج معنى المكوّن من خلال السلسلة الجُملية المتسقة، التي تحدد من خلال النص؛ ويتحدد مدلول هذا الأخير في الممارسة الاجتماعية التي أنتجته، وبالنظر إلى علاقته بالنصوص الأخرى. ويتضح من كل هذا أن المبدأ الذي اعتمده راستيي في طرح نظرية الدلالة الاختلافية أو الدلالة التأويلية يرتكز على أطروحة أن الدرجة العليا في البنيات اللغوية تحدد دلالة الدرجة السفلى، ومن ثم، فالشمولي (النص) يحدد المحلي (العلامات). وتجدر الإشارة إلى أن هذا المبدأ مستعار من التقليد الهيرمينوطيقي الذي أقحمه الكاتب في مقاربته (المترجم).

[174] . وضع النص المكتوب هو الوضع نفسه الذي يتمتع به النص الشفوي الذي لا يصبح حقيقة موضوعا للسانيات إلا عندما يكون مثبتا على ركيزة، رقمية أو غير رقمية، وبطريقة تجعله خاضعا للنقاش والظرفية.

وانطلاقا من التمييز بين **الكلام** و**اللسان** بوصفهما مفهومين يمثلان ثنائية من وجهة نظر إبستيمولوجية تكميلية، آثر سوسير بالفعل على أن يقيم بينهما توازنا. ولكن ونظرا لأن المتن السوسيري كان يقرأ عامة من وجهة نظر اللسان، يبدو لنا الآن أن الفرصة سانحة على المستوى المنهجي لكي نعيد إلى الواجهة لسانيات الكلام عند سوسير[175]؛ وللإشارة فإن لسانيات الكلام تُكوّن، في علاقتها بلسانيات اللسان، الابتكار الأكثر صحة في نظريته.

2. الدراسات النصية عند سوسير

وكما سنرى، تقود الدراسات النصية عند سوسير من وجهة نظر مبادئها ومناهجها إلى إعادة الاعتبار للسانيات نفسها، وعندما تساءل گوديل بالمناسبة عن المكانة التي تحتلها اللسانيات في النشاط العلمي عند سوسير (1959، ص24)، نفهم من سؤاله عدم رضاه الذي أبداه إزاء جهود سوسير اللغوية، وما يعتورها من قصور، مما قاده إلى طرح برنامج السيميولوجيا كي يتوصل إلى أساس إبستيمولوجي: وهو بالفعل مشروع عام يهدف إلى التوحيد الإبستيمولوجي الذي نعقد عليه آمالا كبيرة.

غير أنه حتى عند الكُتاب المساهمين في تجديد البحث في أعمال سوسير والآخذين بعين الاعتبار كل المصادر المتاحة، فإن التحليلات النصية تظل ضعيفة الاستغلال؛ إذ لا يتطرق إليها بوكي في مقدمته القيمة الكامنة في مؤلفه*Introduction à la lecture de Saussure* ، كما سلك نورمان الطريق نفسه في كتابه *Saussure* الصادر سنة 2000، أما أوتاكير فقد خصص لها عشر صفحات، في حين أن هذه المصادر تمثل نصف المخطوطات على وجه التقدير، أي 4500 صفحة تقريبا.

أما ما يتعلق بقلب الحروف، فإن الأبحاث الخاصة بالكاتب تركز على السنوات الأولى للقرن، في الفترة التي سبقت أول درس في اللسانيات العامة (1907)، واستمرت إلى غاية خريف 1908. وبموازاة ذلك، انتعشت الدراسات والبحث في الأساطير، وامتدت من سنة 1903 إلى غاية 1910. ومن المعلوم أن «الدروس» في اللسانيات العامة انتهت سنة 1911 بموازاة الدراسات النصية وبلورة «الدروس».

1.2 قلب الحروف.- تمثل هذه الدراسات التي كانت آنذاك حديثة العهد، 3700 ورقة، وقد تم تركيز جزء منها على قلب الحروف وخصص معظمها للإبدال (paragrammes)[176] في الشعر الهوميري، والبيت الشعري اللاتيني، كما خصص للكتب الهندية المقدسة (الفيدا) والشعر الجرماني المسمى *Hildebrandslied*[177]؛ ويتعلق الأمر بالدراسات النصية الأكثر شيوعا، والأقل عرضة للقراءة، وقد تكون من دون شك الأقل قابلية للفهم، إذ جلبت اهتمام مؤرخي الأدب مثل سطاروبنسكي، والمحللين مثل جوليا كريستيفا (*Pour une sémiologie des paragrammes*)، والفلاسفة مثل جاك دريدا (*La dissémination*)، الذين أسسوا في ضوئها

---

[175] . في **كتابات في اللسانيات العامة** (2002) ، يتضح أن العلامة مرتبطة بالكلام وليس باللسان كما هو معروض في الكتاب الأول. ولا شك أن الناشرين الذين قاموا بطبع «الدروس» قد أسندوا إلى سوسير نظرية لغوية مجردة وساكنة. ولوحظ أن كتاب **«الدروس»** جعلت منه على نحو خاطئ لسانيا متخصصا في اللسان؛ غير أن التطورات التي حصلت فيما بعد، بخصوص تصور نظرية الكلام، أوضحت أن النصوص هي إبداع نابع من الكلام، لأنها إنجاز فردي وليس جماعي. إن النص تمظهر للكلام وتصرف في اللسان، وعلى هذا الأساس، تم تطوير اللسانيات النصية التي قدمت تحاليل علمية وموضوعية، متجاوزة البحث اللغوي الذي يستند في متنه على الجمل الفاقدة للسياق (المترجم).

[176] . ننوه بالطبعة الجيدة لكتاب *Anagrammes homériques* التي قدمها بيير-إيف طسطنوار (Pierre-Yves Testenoire(2013)، ونشير إلى أن سوسير استعمل أيضا مصطلحات paragrammesوhypogrammes وparonomasie , ونستعمل المصطلح الأكثر شيوعا وهو مصطلح anagramme "قلب الحروف" ونمنحه معنى عاما.

[177] . يشير مفهوم *Hildebrandslied* في الثقافة الألمانية إلى الأشعار البطولية التي تعود إلى العصر الوسيط (المترجم).

مجدا براقا بجانب اللسانيات. أما اللسانيون، فقد كانوا حذرين جدا، فها هو گوديل يتحدث عن " بحث طويل وعقيم" (*CFS*,17, p. 6 ,1960) ، ويشير أماكير إلى " تزجية وقت عبثي"، وروگار إلى "ضلال بئيس"، كما تحدث في هذا الشأن إنگلير عن "مشروع غامض" و ڤوندرلي عن" حركة عبقرية فاشلة" (انظر فير، 2000، ص 190).

أوضح ڤوندرلي أن هذه الدراسات تبدو وكأنها تناقض بعضا من مواقف كتاب «**الدروس**»، مثل الخطية والتلاحم القائم بين الدال والمدلول، ...الخ. لأن قلب الحروف لا يعد بالنسبة له ظاهرة لغوية، ولكنه ظاهرة شعرية عرضية، بالنظر إلى الاستعمال "المعياري " للغة (2005، ص181). غير أننا نجد صعوبة في فهم السبب الذي يجعل علوم اللغة وبصفة عامة الأساليب والأجناس والخطابات لا تنتسب إلى اللسانيات- اللهم إذا اعتبرنا معيارا كل استعمال يدعي "المعيارية"- مع أنه فاقد لكل أسلوب ولكل خطاب، وهي من دون شك المحادثة المصاحبة للمشي عند النحاة أو اللغة العادية" كما هي متداولة اليوم. إن التمييز بين الشِّعرية واللسانيات لا يبدو واردًا بالنسبة لسوسير الذي لا يعتبر البتة مُنظِّرا للغة العادية، ونجد بالمناسبة في الأبحاث الخاصة بقلب الحروف التواردات الأولى للتيمات المحللة في كتاب «**الدروس**»، مثل "الخاصية التتابعية" و"الخطية" (انظر سطاروبنسكي، 1964، ص254).

إننا لا نسعى هنا إلى الحكم على صحة أو نتائج الدراسات النصية، ولكننا نود الإحاطة بالمكانة التي تحتلها في المنطق الداخلي لنظرية سوسير، أما ما يثير اهتمامنا فهو بالتحديد رهاناتها السيميائية وليست سمعتها المزيفة؛ إذ إن الهدف هو الكشف عن المعايير المرتبطة بالعلاقات التي تنسج في الدرجة النصية بين مستويات المضمون والتعبير، والتي تحدد بالتالي السيميوزيس النصي.

وتعتبر الدراسات التي أولت اهتماما بقلب الحروف شاهدة على التفكير الأساسي القاضي بدراسة التعالق القائم بين مستوى الدال ومستوى المدلول، ولا نجد عند سوسير نظرية العلامة المعزولة عن السياق، ولكننا نعثر على أكثر من نظرية للعلامة؛ إذ نجد أنفسنا أمام تفكير عميق يخص مفهوم الوحدة اللغوية المرتبطة بنهاية الإغلاق الأنطولوجي. وتشكّل العلامة بصورة أدنى أساس علاقة رباعية بين فكرتين وصوتين، وهي إذن علاقة سياقية تساهم في تثبيت وحدتين غير قابلتين للتعريف بطريقة أخرى، وفي هذه الحالة فهما غير موجودتين مسبقا.

وفي إحدى التدوينات الناقصة والمتعلقة بالدرس الثالث، عرَّف سوسير اللغة على أنها "مجموع العلاقات بين الدال و[المدلول]".[178] ثم إن هذا التعريف **السيميائي** للغة، بوصفها نمطا للتعالق بين مستوى المضمون ومستوى التعبير(بالمفهوم الهيلمسليڤي)، قد أحدث قطيعة مع التعريفات التقليدية الناظرة إلى اللغة على أنها نظام تأليفي للعلامات. واللافت للنظر أن هذا التصور التشفيري الذي يعود إلى التقليد المنطقي-النحوي قد لقي صدى ونجاحا في النظرية الشومسكية، وهو التصور المهيمن حاليا في حقل اللسانيات الداخلية.

وفي مواضع أخرى، قدم سوسير سلسلتين متوازيتين، ولكن لا يوجد في نصوصه ما يثبت ادعاءه أن الحلقات قابلة للعزل وأن نصفها الأول يتكون من الدال ونصفها الثاني من المدلول. و بالإشارة إلى "سلسلة

[178] . تصحيحي هذا يُقوّيه ما أوردتُه في الفقرة السالفة، وهي أن تغير اللغة الدياكروني مقدَّم على أنه "التحريك الشامل للمفردات والقيم" والكلمات هي الدلائل والقيم هي المدلولات. انظر أيضا النص الآتي : "نرى فجأة أنه لا يوجد فرق البتة، من لحظة إلى أخرى، بين مجموع الأفكار المميزة ومجموع العلامات التمييزية" (*ELG*, p. 231)؛ وفي المخطوطات، تضاهي كلمة **علامات** و **أفكار** من حيث القيمة كلمة **دال** و**مدلول**).

متواصلة ومزدوجة، وهي سلسلة المفاهيم وسلسلة صوتية سمعية"، قدم هذه الخطاطة **(الدرس** الثالث، IIIC 1714-16 ,E/*CLG*):

سلسلة المفاهيم _____

سلسلة سمعية ----------

الشكل رقم 8: السلسلتان

لا يمكن إذن لخطاطة العلامة الموجودة في كتاب «**الدروس**» أن تمثل منتهى التصور السوسيري، بمعنى أن الكاتب رفضها في المخطوطات، مفضّلا بذلك تمثيلات أخرى تتسم بالتدريجية (انظر أعلاه، الفصل الثالث). ومن جهة أخرى، بما أن الوحدة اللغوية لا تعتبر مفصولة ومحددة مسبقا، لا نعثر عند سوسير على دلالة معجمية صافية، في حين كان بريال (Bréal) الذي أتى بعد ريزيگ ودارمستتر(Darmsteter) يركز على المعجم في موضوع الدلالة[179].

وبالرغم من الشكوك التي صادفها سوسير، والانتقادات الموجهة إليه، فإن فرضيات التعالقات المنشورة بين المضمون والتعبير ليست غير ذي مصداقية؛ ذلك أن تطوير لسانيات المتن، وبالخصوص استعمال المناهج الكمية لدراسة المتون الأدبية المرقمة أصواتيا، تؤكد صحتها. مثلا، أوضحت ڤاليري بودوان (Valérie Boudouin) (2002) أن في مسرحيات راسين، التي يشير فيها العنوان إلى اسم الشخصية الرئيسة، تعرف فونيمات هذا الاسم ترددا عاليا ودلالة. ويمكننا الإشارة في هذا السياق إلى المعايير العروضية، إذ توجد هذه الأسماء بكثرة في القافية وتستدعي بالتالي الأسماء المجانسة (paronymes)؛ ولكن وضع اسم في القافية ذات الوضعية الرفيعة تمنحه حظوة متعلقة بالألقاب العتيقة.

أدرك سوسير بعض تقنيات النصية الكهنوتية التي كانت رائجة في العصر القديم، وكانت تقنيات قلب الحروف أو السياق المتناظر (أي الجُمل التي تقرأ بالعكس) مثلا رائجة عند هيراقليط، وتنتمي هذه الأشكال المعقدة إلى ما يسمى *الخطاب المترابط الوحدات*، وهو نوع من اللغة المتماسكة، أي نوع من الشعر "المحبوك" (انظر بدير (Bader)، 1989، حول لغة الآلهة).

وقد رسخت هذه الأشكال التنظيمية من دون شك سيرورات البث (diffusion) والجمع (sommation) التي كانت عادية، سواء على مستوى المضمون أو على مستوى التعبير. وسأضرب مثالا بسيطا في هذا الشأن: في رواية مدام بوڤاري، لا نعثر إلا على أربعة تواردات لكلمة "ملل"، ومع ذلك كانت إمّا (Emma) تشعر به على الدوام. وفي متن مشتمل على ثلاث مائة وخمسين رواية فرنسية، وإذا قمنا بالتمحيص في التواردات والتضام المعجمي[180] الخاص بكلمة "ملل"، نجد مفردة "يوم الأحد" و"العنكبوت"؛ وبصورة إجمالية، يشير يوم الأحد إلى يوم بدون نهاية (استعمال المضارع) ويرمز العنكبوت إلى الكائن الذي يدور (ورود سمة التكرار). وبإسقاط

[179]. بريال هو اللساني الذي ابتكر في نهاية القرن التاسع عشر علما جديدا سماه الدلالة، وقدم خطوطه العريضة في كتابه Ess*ais de sémantique* الصادر سنة 1897 (المترجم).

[180] . ترجمة لمصطلح collocation (المترجم).

السمتين الدلاليتين/ تكراري / و /غير تام/ على جملة مثل "كان حديث شارل مسطحا مثل رصيف الشارع، وتمر أفكار كل الناس في معاطفهم العادية"، نلاحظ اطراد هذين العنصرين الدلاليين: إذ إن /غير تام/ توسم مفردة "رصيف" ومفردة "مسطح"، وتظهر بجلاء في صيغة المضارع؛ كما أن سمة / تكراري / توسم مفردة "تمر" و"عادية"، ...الخ. باختصار، عندما تظل كلمة "ملل" غائبة، فكل النص يسبح في الملل، لأن كل السمات الدلالية المرتبطة بهذه التيمة منتشرة في النص[181]. وإذا ما توافقنا على تصور "مصطلحي" للغة، وإذا اعتبرنا أن كل شيء قيل في الدلالة اللفظية الخاصة بالمفردة، فإنه لا يمكننا إدراك هذه الأنماط من الانتشار، والتركيز على الأشكال الدلالية التي تؤلف بطريقة ما "عمليات قلب الحروف" الموضوعاتية.

وإذا نظرنا إلى أبعد من أشكال تأليف النصوص الدينية والأدبية الخاصة بتقليد معين، فإننا نملك الأساس الذي يقودنا إلى ما توصل إليه أوتاكير القائل بأن " التحديد العلائقي يكشف بأن " الجوهري " ليس هو الأساس، وبأن الواقع (ما هو موجود) في اللغة يوجد بواسطة ما يُسمع: السجع، والتناوب، ولعبة الصوت التي تعتبر نسيجا أو نحو لغة ما"،((2002)، ص 270). وإلى جانب هذا القول الثاقب، نضيف بأن اللعب الدلالي يضاعف بمعية الطباق اللعبَ السمعي؛ بمعنى أنه على وجه التدقيق، تؤسس التواردات الدلالية التشاكلات أو الخلفيات الدلالية، التي تجعل الإدراك يقوم ببناء وتطوير عدة أشكال (حول الإدراك الدلالي، انظر الكاتب، 1991، الفصل السابع).

فالدراسات السوسيرية حول قلب الحروف لا تشير فقط لأهمية البحث الأدبي[182]، وإنما تعكس أيضا أسئلة سوسير حول السيميوزيس النصي المنبثق من تصوره السيميائي للغات. وبالنسبة لنا، فإن السيميوزيس هو مجموعة التحديدات الانعكاسية الناتجة عن المسارات التأويلية التي تنتقل باستمرار من مستوى التعبير إلى مستوى المضمون ومن مستوى المضمون إلى مستوى التعبير. وسيكون التصور الساكن لمفهوم السيميوزيس بوصفه تضمنا معكوسا أو (أو تضامنا بالمفهوم الهيلمسليڤي) غير كاف، لأنه لا يعالج الصيرورة الزمنية في المسارات التأويلية المكونة للسيميوزيس.

وهناك أربعة أنواع من المسارات المتباينة المستوى التي تؤسس السيميوزيس: المسار الذي ينتقل من الخلفية الدلالية[183] إلى الخلفية الشكلية (وهذا ما يسمى المتجانس النغمي)، والمسار الذي يمر من الشكل الدلالي للوصول إلى الشكل التعبيري (مثل ما نلاحظ في التسمية)، والمسار الذي ينتقل من الشكل الدلالي إلى الخلفية التعبيرية (انتشار تعبيري، تجميع دلالي)، وأخيرا هناك المسار الذي يربط بين الشكل التعبيري والخلفية الدلالية. وفي كل مستوى، نلاحظ أن العلاقات بين الطبقات هي علاقات بث وتجميع.[184]

2.2 الأساطير الجرمانية

ساهم كتاب *Nibelungenstreit* في خلخلة الفيلولوجيا الجرمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان سوسير يُدَرّس القوطية لمدة طويلة، لذا كان على دراية بالسجالات التي كانت تحوم حول هذا المتن

---

[181] . للمزيد من التدقيق في هذا الموضوع، انظر راستيي، 2001 [2010]، الفصل السابع (المترجم).

[182] . سبق وأن أشرنا إلى نقده الأدبي وهو عبارة عن تقارير قرائية معدة لجائزة هينتش (Prix Hentsch).

[183]. الخلفية الدلالية (fond sémantique): في أبحاث راستيي، لا يختزل المضمون الدلالي في تشاكل واحد، ولكنه يتجلى في شبكة من التشاكلات؛ ولهذا لا يعتبر المضمون الدلالي متجانسا، لأنه يحتوي بطبيعة الحال على حالات غير مطردة (المترجم).

[184]. انظر أعلاه، الفصل الثالث، الفقرة4. إن البث والجمع لحظات مرتبطة بتكوين وانحلال هوية الوحدات السيميائية، ويمكن تحديد العلاقات بين الأشكال والخلفيات على أنها شبكات يتم توجيهها مؤقتا ، ولكن في زمن شبكي يكون بموجبه الجمع والبث غير محدد في نفس الفواصل الزمنية.

الأسطوري. بالفعل - وعلى ما يبدو- لم يكن مِيي يخوض في هذا النقاش ذي الطابع الألماني، وأشار إلى "الموضوعات الجديدة، التي كانت جزئيا غريبة عن حقل اللسانيات، مثل القصيدة الملحمية [185]:"أصحاب أرض الضباب"(1913، ص78-79)، ولكن سنرى أنها ليست غريبة عن اللسانيات السوسيرية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الموضوع موجود في مصنَّف مكوَّن من 814 ورقة، وهي وثائق مكتوبة في أغلب الأحيان على الوجه والظهر، ومؤرخة على وجه التقدير ما بين 1903 و1910. وتتميز هذه الكتابات بالسعي الحثيث إلى ربط **اللسانيات الخارجية**، والتي هي بالمناسبة اللسانيات الموسومة بتاريخ مملكة بورگوند، و**اللسانيات الداخلية** المتحكمة في تحليل الدائرة الأسطورية، عبر فرضية الدياكرونيا التناصية (وقد تكون الدائرة عبارة عن تحويل لأسطورة طيزي (Thésée))[186]. وكما لاحظ دي ماورو (1972، ص 347) في هذا السياق، يناقض المشروع من حيث المبدأ الصورة التبسيطية لمُنظِّر يقول إن "اللغة تدرس لذاتها ومن أجلها".

وتكشف هذه الدراسات عن تفكير عميق بخصوص تعريف الوحدات، مهما كان امتدادها، والملاحظ أن الرموز الشاملة للسلسلة المكوّنة للأساطير تخضع " للقيود نفسها وللقوانين نفسها، شأنها في ذلك شأن الأصناف الأخرى من الرموز، مثل الرموز التي تعتبر مفردات اللغة" (المرجع نفسه). وللإشارة إلى وجهة نظر شاملة وقادرة على تحقيق التوحيد، استخلص سوسير فيما يخص الرموز، والكلمات، وكذلك الوحدات النصية ما يلي: " تنتمي كل هذه الوحدات إلى السيميولوجيا"، وبذلك صاغ الكاتب المبدأ الإبستيمولوجي الذي يسمح بوضع تصور يجمع بين اللغة والنصوص من جهة، ودرجة الكلمة ودرجة النص من جهة ثانية.

ولا يهم هذا المبدأ فقط التعالق الحاصل بين الوحدات المكوّنة لدرجة المعجم ودرجة النص، لأنهما مبرران بظواهر التضامن السلَّمي، ولكنه ينطبق كذلك مثلا على المقارنة بين الحرف الجرماني والشخصية؛ وهكذا قام سوسير بمقارنة جريئة بين الوحدة الأساسية للتعبير الكتابي والوحدة الدلالية الأكبر حجما.

ومن جهة أخرى، فإن كل الوحدات غير مستقرة إلى الأبد، والشيء نفسه ينطبق على الشخصيات، حيث "يمكن لكل سمة ملتصقة بالكائن الأسطوري أن تختفي مع أول هبة وبالسرعة التي يختفي بها اسمها" (انظر الأساطير، 7/3958، 35). ويضيف بأن الرمز "غير قادر بصورة مطلقة على أن يفصح عن هويته في اللحظة القادمة" (انظر **الأساطير**، 4/3958، 1). ولا تعد الوحدة اللغوية سوى توارد بسيط لنمط معين، وتتغير بدون حدود، وذلك بحسب المواقع واللحظات. ونتيجة لذلك، ناقش سوسير، بالتوافق مع دراسات الأساطير في عصره (من شطاينطال[187] (Steinthal) إلى ڤيسلوڤسكي (Vésselovski)، نظرية **الأشكال الجمالية** ونظرية **المشاهد**، وللتذكير فإن المشهد يحدد من خلال المواقع واللحظات (انظر توربان (Turpin) ط.2003، ص408). لقد وقع توحيد الأسطورة واللغة من وجهة نظر سيميولوجية مهيمنة على ثنائية اللسان والكلام، ومثَّل هذا التوحيد العملَ الإبستيمولوجي الخاص في علوم الثقافة.

وتكشف هذه الدراسات عن وجود تفكير حقيقي في قضايا النصية، وعندما تفقد اللغة سطوتها الأنطولوجية بالتخلي عن الحكم المسبق المرجعي، فإن هذه الوحدات لا تستقي معناها من عالم ما، ولكنها تستمده

---

[185]. وعنوانها *Nibelungen* وهي كلمة ألمانية تعني "أصحاب أرض الضباب" أو "الأقزام الذين يعيشون تحت الأرض"، وللتذكير فهي مجموعة أغاني ملحمية جرمانية تعود إلى العصر الوسيط، وقد تم نظمها في القرن الثالث عشر (المترجم).

[186]. أسطورة طيزي هي أسطورة يونانية بطلها طيزي الذي انتصر على المينوطور، وهو وحش له رأس ثور وجسم إنسان، وكان هذا المخلوق يعيث في الأرض فسادا إلى أن جاء البطل الأسطوري ليخلص أثينا من شروره (المترجم).

[187] . هايمن شطاينطال (1823-1899) فيلسوف ولساني ألماني، أما ڤيسلوفسكي (1906-1938) فهو منظر روسي للأدب، وهو من وضع أسس الدراسات المقارنة (المترجم).

من النصوص؛ وبخصوص عدم استقرارها، الذي لا يعتبر نقصا، فإنه ينتج عن الإبداع النصي. وفي هذا الشأن، ذهب سوسيرإلى أن "ما يمنح النبل للأسطورة وللغة هو كونهما محكومين على أنهما لا يُستعملان إلا بوصفهما معطيات وعناصر حاملة لمعنى ما، ويعملان على جمعها، ويستخلصان باستمرار معنى جديدا" (سوسير ضمن توربان، ط.2003، ص421). ويتجاوز هذا التصور المتعلق بالإبداع النصي من حيث الأهمية العلمية نظرية التوليد الشومسكي، وهو مجرد قوة تأليفية بسيطة، ومضبوطة بواسطة القواعد[188].

لقد أصبحت القضايا المطردة المثارة في تعريف الوحدات والتغيرات التي تطرأ عليها بحسب التواردات، أساسية في تحليل الأساطير، وأصبحت على وجه الخصوص خاضعة للتنظير في الكتابات، وفي «الدروس» الخاصة باللسانيات العامة، لكونها كانت حاضرة في الكتابات السابقة مثل الدراسة التي قام بها حول حالة الرفع في اللتوانية (1894) ؛ إذ "لا توجد وحدات ولا ذوات معطاة في اللغة المعروضة أمامنا، والمقدمة دون وساطات. ويجب بذل مجهود للكشف عما يُكَون مختلف الذوات الكامنة داخل اللغة [...] لسنا أمام كائنات منظمة أو أشياء مادية" (*LLG* 3, § 1710). لقد أقامت النظرية "التكوينية" للذوات قطيعة حاسمة مع تقليد منطقي- نحوي يعود إلى آلاف السنين، وكان هذا التقليد يعرّف الوحدات بواسطة الجواهر، مثل ما هو ملاحظ في الدلالة المرجعية. وتبتعد هذه النظرية كذلك عن صورة الشفرة لكي تفضل الإبداع؛ وهكذا فإن صورة لعبة الشطرنج، المستعملة في كتاب **«الدروس»** والتي استشهد بها هيلمسليف، تظل غير كافية، لأن القواعد تتغير أثناء ممارسة اللعبة، شأنها في ذلك شأن القطع التي يجري تغيير قيمتها أثناء اللعبة. وعلى الرغم من الحكم المسبق الصوري والعادي، لا تعتبر اللغة شفرة، بمعنى أن الشفرة تظل ثابتة، ومعطاة بشكل نهائي، بينما تتغير اللغة بسرعة فائقة. وتصبح فكرة لسانيات اللسان - باعتبارها نسقا- واهية، وتفسح الطريق أمام وصف التحولات بين النصوص. ومن وجهة نظر لسانيات الكلام ولسانيات النصوص على وجه الخصوص هنا، فاللغة ليست إلا التجريد المؤقت والقابل لمراجعة المتغيرات الزمنية داخل السلسلات التحويلية.

وهكذا تقود الدراسات النصية إلى التخلي عن كل نزوع نحو الموضوعية، سواء كانت موضوعية أرسطية أو هيگلية، لأن الذوات لم تعد تعتبر وحدات، وتختلف بحسب التوارد من دون أن تسنَد إلى أي نوع من المتغيرات[189]. وبناء عليه، فاللغة غير قابلة للعزل لا في الزمان ولا في المكان، وتصبح الدراسة الموضوعية بواسطة المسارات العادية للبحث الموضوعي مستعصية، لأنها ليست مادية فقط وليست ذهنية فقط[190]؛ ولهذا السبب فشلت الاختزالات المنطقية الجديدة، والسلوكية، والمعرفية، ولهذا السبب أيضا أضحت السيميائيات مبحثا يكتسي أهمية كبيرة بالنسبة لمجموع علوم الثقافة.

3.2 نحو لسانيات النصوص

---

[188]. لمعالجة هذا الإبداع، يتعين اقتراح نظرية معممة للتحويلات- بدءا بتحويلات الأشكال الدلالية (الميتامورفوزات)، والخلفيات الدلالية (التنقلات)، بهدف تمديده إلى المشاكل الأساسية الثلاثة المتصلة بالتحويلات (التعليق، والترجمة، والإرسال الثقافي)؛ انظر الكاتب، 2001.

[189]. وبصورة أدق، "تصبح " الذات" (entité)"وحدة" (unité) في التحديدات القائمة على مستوى الكلام، وهذا هو الفرق الوحيد بين المفهومين اللذين صاغهما سوسير: "لم نقم بعد بفعل شيء دون تحديد هذه الذات أو هاته الذوات. ويعتبر تحديدها عملية غير مادية صافية، ولكنها ضرورية أو محتملة لأن هناك عنصر مادي. وفي حالة ما قمنا بتحديد معين، فإنه[290] باستطاعتنا استبدال اسم "وحدات" بمصطلح "ذوات" (كونسطانطان III، ص 289-290).

[190] . انظر *LLG*3 (1701§): "وهكذا، إذا أخذنا الجانب المادي، أي متتالية من الأصوات، فإنها لن تكون لغوية إلا إذا تم تصورها على أنها الركيزة المادية للفكرة؛[288] ولكنه إذا اعتبر لذاته (الجانب المادي)، فإنه يُكوّن المادة التي لا تكتسي صفة لغوية، ويمكن لها أن تتعلق فقط بدراسة الكلام، إذا كان غلاف الكلمة يمثل لنا مادة غير لغوية".

تتسم الدراسات حول قلب الحروف والأساطير بالتميز والتكامل؛ فالنوع الأول من الدراسات يطرح مشاكل العلاقة بين مستويَي اللغة، اللذَين يساهمان في تشكيل السيميوزيس النصي،إذ إن الأمر في هذا السياق لا يتعلق البتة بتطابق مصطلح بمصطلح مثل ما تم تثبيته في العلامة الواردة في كتاب «**الدروس**»، ذلك أن سوسير قام ببحث لمعرفة كيف أن وحدة دلالية مدمجة يمكن أن تكون لها دلالة منتشرة بواسطة فونيمات مبعثرة. والنوع الثاني يبحث في المعايير الناظمة للأساطير، متضمنة التحولات المعمَّمة، مثل حالة أسطورة طيزي، دون إهمال مشكلة جذورها التاريخية بواسطة علاقاتها مع اللسانيات الخارجية، وقد لاحظنا هذا الإهمال عند بروب في فترة لاحقة.

هذان النمطان من الدراسات النصية متكاملان بالنظر إلى محورين هما محور السيميوزيس (الذي يربط المضمون بالتعبير)، ومحور النصية (الذي يمَكن من الربط بين الكلمة والفقرة والنص والمتن)، وهذا ما يوضحه الرسم الآتي:

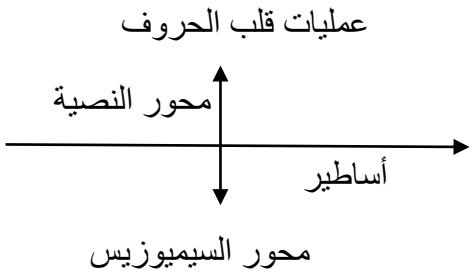

الشكل 9: محورا السيميوزيس والنصية

فالمحوران مطابقان للعلاقات السيميائية الأساسية، بحسب دفتر قسطنطين (طبعة كوماتسو ، ص301-302) ، ونلاحظ في الدرس الثالث أن الشكل

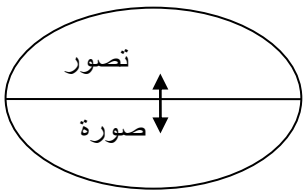

الشكل 10: العلامة المعتبرة على أنها "سوسيرية

قد تبعه هذا الشكل التكميلي:

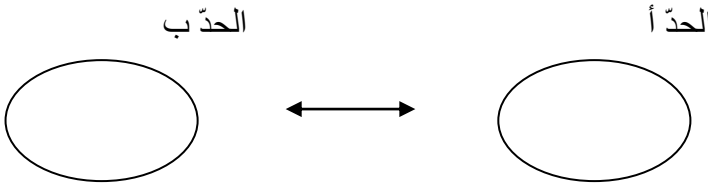

الشكل 11: مبدأ السياقية

هاتان العلاقتان السيميائيتان غير قابلتين للانفصام، لأن العلامة لا تحدد إلا في إطار السياق عن طريق التعيين الترابطي "للوجهين"، وسيمثل التطابق أحادي الدلالة القائم بين الدال والمدلول أيضا علاقة ثنائية بين العلائق الأولية والقارة، والقابلة للاختزال في العلاقة التي بُني على أساسها كل منطقنا الإسنادي (وجود علاقة بين أ و ب)؛ غير أن التحديدين الخاصين بوحدات المضمون والتعبير يُلغيان بمجرد القيام ببناء هويتهما، آخذَين بعين الاعتبار كل عنصر على حدة.

ويتوجب علينا- والحالة هاته- التقليل من حدة المؤاخذة التي وجهها كل من بالي وسيشيي إلى سوسير بخصوص غياب الدلالة. بالفعل، لم يقدم سوسير على متابعة البحث في دلالة بريال، وهي الدلالة اللفظية المشتقة من دلالة ريزيگ[191]،ومن ثم فقد انتقد *" ملاحظات "*[192] هذا الأخير قائلا :" تطرح على الدوام قضية **ما يحدث** بين مصطلحات اللغة، غير أنه لتتبع الأمور يتعين أولا معرفة ماهيتها، وما نعتبره كائنا، قبل التحدث عن الظواهر تي تتجلى بين المصطلحات الموجودة" (*ELG*, pp. 256-257). إن الدلالة مرتبطة بنظرية الوحدات اللغوية، ا أن المدلول لا يتمتع باستقلالية أكثر من الدال، ثم إن العلاقات بين مستويات اللغة وحدها هي التي تستطيع وسم ال لامات على هذا النحو. ويمكن القول بعبارة أخرى بأن مبدأ السياق (ويشير في نهاية المطاف إلى النصية) بم **د** السيميوزيس، وأن الكلمة عبارة عن مقطع في النص. وبناء عليه، تستطيع السيميائيات تأسيس الدلالة؛ وهذا الع لسبب الذي جعله يشير إلى ما يلي:"السمة الدلالية هي الكل بالنسبة للساني"(*ELG*, p. 115 ، وللإشارة، فإن **يحد** مصطلح "سمة دلالية" مستعمل هنا بمفهوم **العلامة**)[193]. هو ا

3. من النصوص إلى الثقافات

لا تحتوي أعمال سوسير على "نظرية النص" التي قد تتمتع باستقلالية نسبية داخل نظرية اللغة، كما صيغت في كتاب **"الجوهر"**، ولكن يتوجب علينا حاليا التدقيق في مدى دراساته النصية من أجل التفصيل في النتائج.

ويرتبط التحليل اللساني بالفعل بالمتن المستهدف كما أن جودته وأهميته العلميتين مرتبطتان بالتحليل نفسه؛ إذ إننا لا نستخلص «الدروس» و العبر نفسها من متن مرسل على مدى قرون ومن تسجيلات لحوارات غير موجهة مع منشطي الحي.

---

[191] . كارل ريزيگ (Karl Riesig) فيلولوجي ألماني ولد سنة 1792 وتوفي سنة 1829، ويرجع له الفضل في ابتكار مبحث جديد في اللسانيات وهي السيمازيولوجيا أو الدلالة ، وتعتبر أبحاثه النواة الأولى لدلالة بريال (المترجم).

[192] . قام بريال بتوليف كتاباته حول السيميولوجيا الجرمانية بغرض تقديمها إلى القارئ الفرنسي، وللتذكير، فإن بالي ألماني النشأة والثقافة.

[193] . وكلمة "سمة دلالية" تبعد، أو تسعى إلى إبعاد كل هيمنة وكل تفرقة أولية بين الجانب الصوتي والجانب الإيديولوجي للعلامة، فهي تمثل الكل في العلامة، أي أن العلامة والدلالة اللفظية مجتمعتين في نوع الشخصية" (*ELG*, p. 105).

وفي الوقت الراهن، يمكن للسانيات المتن أن تمنح الوسائل النظرية والتقنية لدراسة فضاء المعايير وتحويل التضاد الخاطئ بين اللسان والكلام إلى ثنائية. فلا يوجد نص مكتوب فقط "في لغة معينة"، لأنه مكتوب بالاعتماد على النوع، وفي داخل الخطاب، مع مراعاة بطبيعة الحال القيود المفروضة على اللغة؛ وما بين الفضاء المعياري للقواعد والفوضى الظاهرة للاستعمالات، وبين كونية اللغة وفردية الاستعمال، يمتد فضاء المعايير (راجع الفصل الرابع). ويمكن للشعرية الأدبية ولكتابة الأساطير أن يخلقا الشعرية المعممة [194]التي تم تمديدها للدراسة اللسانية والتقابلية بخصوص الخطابات، والأجناس، والأساليب.

وتظل لسانيات سوسير ثورية لأنها تدخل في إطار لسانيات النص وليست في إطار لسانيات العلامة؛ نقول هذا ليس لأنها سعت إلى طرح "نحو النص"، ولكن لأن تعريف الوحدات النحوية ارتبط بالبعد النصي الذي تأخذ فيه الوحدات الفارغة وغير القابلة للتعريف قيمتها في مواقع أخرى. ولهذا -على الخصوص- لم يكن سوسير مفهوما، وسيظل عسير الفهم بسبب غياب لسانيات قائمة على توحيد العلامات والنصوص، ولعدم الاعتراف خاصة بالوحدة القائمة بين الدلالة المعجمية والدلالة النصية. وتجدر الإشارة إلى أن السواد الأعظم من اللسانيين لم يدركوا دور دراسات سوسير النصية في تأسيس لسانياته العامة.

إن العناصر البيوغرافية كفيلة بتوضيح مشروع سوسير، ذلك أنه استنادا إلى المعلومات المتطابقة لأصدقائه من أمثال ه. مولير (H. Möller) و أ. كوني (A. Cuny)، حول المغالطات التي أثارتها **رسالته الجامعية**، كان سوسير في أواخر سنة 1880على وشك التخلي عن ميدان اللسانيات لكي يتجه إلى دراسة الملحمة الجرمانية (انظر، 1972، ص329)؛ غير أن ذلك لم يحدث، بمعنى أن رفض التقليص المرتبط آنذاك بالنحاة الجدد قد قاد الكاتب إلى توحيد نظرية العلامة ونظرية النص في إطار الحقل المعرفي نفسه، وصاحب هذا الاختيار التركيز على التفرد الثقافي للغات. وفي إحدى الرسائل الموجهة إلى ميي، أفصح سوسير سنة 1894 بما يلي: " وفي نهاية التحليل، فإن الجانب الأصيل في لغة ما، أي الجانب الذي يجعلها تختلف عن كل اللغات الأخرى، كونها تنتمي إلى شعب معين، ذي أصول معينة، هو الجانب الشبه الإثنوغرافي الذي يحظى بأهمية بالغة بالنسبة لي" (بنڤنست، ط. ص 95).

في الماضي، كان ڤوندرلي[195] (1972، ص 174) يود أن يوضح فكرة "الضوء الذي عكسته التوقعات المفتوحة من قبل كتاب «**الدروس**» على نظرية قلب الحروف"، ولكن ألم يكن هذا الضوء الذي سطع بواسطة **نظرية قلب الحروف** و**الأساطير** قد أفضى إلى سكوت كتاب «**الدروس**» عن مسألة النصوص؟ وفي السياق ذاته، أوضح إنكلر بأن "السيميولوجيا اللغوية والسيميولوجيا الأسطورية متطابقتان بشكل شبه مطلق، وبأن القليل من الفروقات يُفسّر بتطبيق المبدأ نفسه على مجال واسع، أكثر ضيقا من اللغة على المستوى البنيوي" (1980، ص14). وهذا ما يفسر نموذجية المتون الأدبية والأسطورية، بحيث إن عمليات التأليف المفكَّر فيها تفترض تحليلا معمقا للغة.

إذا كان سوسير قد أخفق بشأن التصورات حول أصل اللغة، فإنه قد ألمح إلى إشارات تهم قضية أصل معرفتنا بها. ونطرح السؤال: ألا تكون المعرفة اللسانية مستمدة من عمل الشعراء القدماء، وهم أول محترفو اللغة، الذين

---

[194] . للمزيد من التفاصيل حول الشعرية المعممة، انظر راستيي ، 2010، الفصل الثامن (المترجم).

[195] . بيتر ڤوندرلي (Peter Wunderli) أستاذ باحث من جامعة هامبورگ (ألمانيا) متخصص في أعمال سوسير، وعضو هيأة تحرير مجلة *Les cahiers Ferdinand de Saussure* التي تصدرها الجمعية السوسيرية للبحث في إرث سوسير، ويوجد مقرها بجنيف (المترجم).

أبانوا عن معرفة جيدة تعكسها ممارساتهم؟ وتفترض اللغة الكهنوتية عند الفيدا واللغة الفنية في أشعار هوميروس معارف عميقة، أي أن فنون اللغة سطرت بشكل من الأشكال الطريق لدراستها. وهكذا، بالنسبة لكاتبنا، يكون السؤال كالآتي: هل يمكن اعتبارأول التراتيم الفيدية "الدليل على وجود أقدم تحليل نحوي-شعري" (سطاروبنسكي، ط. 1971، ص 37)؟ وبناء عليه، اقتُرحت الفرضية التالية: "لن أستغرب من أن علم النحو الهندي كان على المستوى الصوتي والمورفولوجي سلسلة من التقاليد الهند-أوروبية المرتبطة بالعمليات الواجب اتباعها في الشِعر، بهدف تأليف كارمين آخر، مع الأخذ بعين الاعتبار أشكال اسم الله" (سطاروبنسكي، ط. 1971، ص 38؛ انظر أيضا أوتاكير، 2002، ص 153).

وعلى أية حال، تأسست فيلولوجيا الإسكندرية لوضع وتأويل المتون الهوميرية، كما أن الأنحاء الأولى قد وضعت لهذا الغرض؛ وهكذا كان الأمر بالنسبة لكتاب *Technè Grammatikè* لدوني لوطراس، وهو من دون شك تلميذ لأريسطارك. أما المثال الآخر، فيتجسد في الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا التوراتية، وهي الأسس المنهجية الهامة في اللسانيات المقارنة، المنبثقتان من النصوص المقدسة التي ألهمت الإصلاح. وفي الأخير، تلعب اللسانيات السوسيرية الجديدة، وبالخصوص دلالة المتن، في الوقت الحاضر، دورا تصاعديا في خضم حركة تطبيع وتشفير النصوص الإلكترونية، التي سميناها **الفيلولوجيا الرقمية**[196]،

بالفعل، لا تعتبر اللسانيات ملحوظة في أسفل صفحة الأدب، مثل الفيلولوجيا المعرَّفة بسخرية من قبل سوسير، ولكن يجب أن تعتبر أحد فروع الفيلولوجيا، ولا يجب أن نعتبرها نظرية حول فطرية اللغة. غيرأننا نعتبرها حقلا معرفيا يدرس هذه الموضوعات الثقافية المتنوعة الممثلة في النصوص الشفوية والمكتوبة. وبشأن مضمونها، يمكن طرح المشاكل الأساسية التي تهم التمفصل بين اللسان والكلام من جهة، والتوازن بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية.

[196] .للإطلاع على طبيعة وأهداف الفيلولوجيا الرقمية، انظر راستيي، 2010، الفصل الثالث (المترجم).

الفصل السابع

اللسانيات السوسيرية وفلسفة اللغة

تكوّنت فلسفة اللغة من جهود كلٍ من فريجة وبورس، ثم لاحقا انضم لهما موريس وكارناب، لتظهر ثمراتها في حقول ثلاثة، ألا وهي التركيب والدلالة والتداوليات ، وهذه هي الحقول المعرفية التي تعتبر الأساس السيميائي للأنحاء، والدلالات الصورية، والتداوليات المعاصرة. وللمفارقة، فإن هناك من يشير إليها بأنها تتناسى أو تنكر علم اللسانيات، وفقا لما أوضحه مشروع أوستين (Austin)القاضي بتأسيس علم اللغة في القرن الواحد والعشرين، وذلك بالإقدام على الدمج بين النحو والفلسفة. وسواء كان أصلها عائدا إلى بورس و/ أو سوسير، فإن السيميائيات المعاصرة تظل في معظمها فلسفة للغة (انظر إيكو،**السيميائية وفلسفة اللغة**،(1984)[197]؛ وحتى السيميائيات الگريماسية، التي فتحت المجال لدراسة العواطف و/ والدراسات الظاهراتية، فقد ابتعدت بشكل ملحوظ عن اللغات، ونظرت إليها على أنها ظواهر محلية و"سطحية".

وإذا كان اللسانيون عامة قد رحبوا بحفاوة بالدلالة المنطقية (أو" الفلسفة الصورية") وبالتداوليات في جميع الميادين (تحليل الرموز الإشارية، أفعال اللغة، المحادثات)، فإن السبب في ذلك لا يعود إلى التقليص الأمين الذي طرأ على تعقيد موضوعاتها، ولا إلى أبحاثها التي تطرقت إلى محيط الأشياء القابلة للملاحظة في الواقع فقط، ولكن لأن سيميائيات اللغات ظلت بدائية وقليلة التمحيص. واستطاع سوسير من خلال تركيز تفكيره النظري على السيميوزيس والثنائيات، أن يحدث قطيعة نهائية مع التقليد الثنائي لفلسفة اللغة التي ما زالت تشكل محاور نظريات المعرفة ونظريات التواصل؛ ولكن الصعوبات التي اكتنفت مشروعه، مثل نشر درس مزيف، وبعض الانحرافات[على مستوى الفهم والتلقي والتطبيق]، واحتمالات استقبال مؤلَّف بالوساطة، ثم عملية النشر ذاتها التي تمت بعد وفاته، فكل هذا أحدث تشويشا على مشروعه.

وباستنادنا إلى كتاب "**الجوهر المزدوج للغة**"، نقترح في هذا الفصل إعادة الخطوط العريضة لهذا المشروع، بهدف المساءلة العلمية التي نضعها إزاء المطالب المشروعة المطروحة من قبل اللسانيات السوسيرية الجديدة. ونضيف هنا بأن رهان إعادة التأسيس السيميائي للسانيات التاريخية والمقارنة يتجاوز بطبيعة الحال فلسفة اللغة، من أجل الانكباب على البحث في مجال السيميائيات وعلوم الثقافة بشكل عام.

إبستميولوجيا أم نظرية المعرفة.- أضحت اللسانيات المعاصرة ضحية لإفلاسها النظري وضعفها الوصفي، لذا تخلت في جزء كبير منها عن الأبحاث التاريخية والمقارنة، لصالح نظرية مختلف الأنحاء الكونية، وهي تيار صوري شديد القوة، لكنها لا تتمتع بقدرة حسابية وليست لها حمولة تجريبية؛ وهكذا، عندما نشر ميلنر كتابه المعنون *Introduction à une science du langage* ، فإنه قد تحلى بالشجاعة حين اعتقد أنه أسس بعد شومسكي حقلا معرفيا كان موجودا منذ قرنين، وادعى طرحه لوجهة نظر "فائقة العلمية" (1995، ص10)، لكي يجعل منها "علما گاليليا" مثل "علم اللغة الذي ينفصل بصورة جذرية عن "علوم" الثقافة" (1995، ص214).

إن العلاقة بين شومسكي وسوسير، هي علاقة متوازية ومطردة بينهما، منذ الترجمة الإنجليزية لكتاب «**الدروس**» سنة 1959، غير أنها ليست مبنية على أسس حقيقية؛ وعلى النقيض من النزعة العلمية والدوغمائية التي قادها تيار النحويين الجدد، أي المدرسة المهيمنة على حقل اللسانيات في تلك الفترة، كان سوسير يتوق إلى

[197] . من مزايا أبحاث إيكو حول السيميائيات وفلسفة اللغة أنها أكدت على الأسس الطومية والأسس السكولائية بصورة أعم.

التفكير العميق في اللسانيات التاريخية والمقارنة، بجعلها لصيقة بعلوم الثقافة؛ إذ في نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبفعل الإحباط الذي أصابه بسبب تنامي الدوغمائية، كان ينوي ترك اللسانيات المعمَّمة، وهذا ما كتبه سنة 1894 في رسالة لميي، استشهدنا بها سالفا، أو لنقل بأنه ذكر فيها أنه لم يعد يهتم إلا بما يسمح بوصف لغة من اللغات، أي الجانب "القابل للوصف" و"الشبه الإثنوغرافي"[198]. ولا تعترف الأنحاء الكونية المعاصرة، وهي وريثة النزعة العلمية عند النحويين الجدد، بأية ملاءمة معيارية للخصوصيات التي تميز اللغات.

وجعلت العزلة النسبية من سوسير مؤسسا مفترَضا، لأنها تعكس بشكل جيد الصورة الرومانسية للعالِم العبقري، غير أنه لم يكن ينوي تأسيس علم اللسانيات، بما أن تصوره للعلم كان منفصلا عن إشكالية التأسيس الفلسفية، المرتبطة بصورة العلوم المنطقية-الصورية التي تبنتها مدارس الوضعية الجديدة ، من شومسكي إلى ميلنر.

وبطبيعة الحال، مثَّل سوسير إلهاما لأعمال كبرى مثل أعمال هيلمسليف (المتسمة بالعزلة والغموض) أو كوسيريو، بل وحتى جاكبسون وليڤي-ستروس، ولكن القراءة "البنيوية" لسوسير هي إعادة بناء واسع، ذي صبغة إسقاطية مرتكزة على القراءات البسيطة لكتاب «**الدروس**»؛ فمثلا، عظَّم لاكان العارضة التي تفصل الدال عن المدلول، والتي سمحت له بالالتفاف حول الدال، إذ تظهر العارضة بالفعل في مؤلف «**الدروس**»، إلا أنها لا تظهر في المخطوطات (التي تحتوي على نقط مسطرة أحيانا بشكل مائل، انظر أعلاه الخطاطة رقم3).

الحرب الوهمية بين العمالقة.- دأب الباحثون على إحداث علاقة تواز[199] بين سوسير وشومسكي، غير أنه ليس من المجدي افتراض حرب عبثية بين العمالقة؛ وكلما زادت شهرة أسماءهما أكثر من أعمالهما في الوسط الثقافي، أصبحا رمزين، أو على الأقل أيقونتين تذكرانا بتصورين للسانيات، وللغة، واللغات، فسمة التوازي بين الرجلين المرموقين لا تؤدي إلى أمور بعيدة، لأن التكوين الإبستيمولوجي لكل منهما، وأيضا توجهاتهما، مختلفان جملة وتفصيلا.

ويظل الأمر مطروحا للنقاش، غير أنه في المؤتمر الدولي للسانيين الذي انعقد بجنيف بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة سوسير، لم يقل المحاضر النجم، شومسكي، أي كلمة عن كاتبنا. وفي الحقيقة، لم تكن قط اللسانيات التاريخية والمقارنة التي عرض سوسير مجملها موضوعا لأفقه التذكري الذي توقف عند التوزيعيين (أي البنيويين) الأمريكيين الذين داع صيتهم في الأربعينيات. وفي المقابل، خصص شومسكي كتابا ناقصا حول "اللسانيات الديكارتية"[200]، مع أن لسانيات القرن السابع عشر كانت تقتصر على الأنحاء العامة المبنية على المنطق والمتصفة بالمعرفة قبل الأوان، بما أن الأمر، كما أشار إلى ذلك بوزي (Beauzée)، يتعلق بالكشف " عن العمليات الحقيقية للفكر تحت غطاء التفكير".

وعلى غرار النحاة-الفلاسفة في العصر الكلاسيكي، فضل شومسكي النحو وشدَّد على"تحويل الاهتمام باللغة لتسليط الضوء على النحو"؛ وأضاف أيضا: "بالنسبة للسانيين البنيويين ومن سبقهم في هذا التيار، فإن موضوع البحث هو اللغة، ومنطقيا، فالمقابل الأكثر قربا من النحو الكلي (أي النحو الكلي عند شومسكي) هو نظرية الخصائص العامة للعديد من اللغات أو لكل اللغات. أما وجهة النظر التي دافعتُ عنها هنا، فإنها تستند إلى

---

[198] . انظر بنڤنست ، éd.، 1964، ص95.

[199] . استهل جيوليو ليبسي (Giulio Lepschy) سنة 2006 تقديمه لكتاب *Ecrits de linguistique générale* على غلاف الطبعة الإنجليزية كما يلي: " جرت العادة عموما على اعتبار سوسير مؤسس اللسانيات المعاصرة والبنيوية، ويمكن اعتباره بجوار شومسكي أحد اللسانيين الأكثر تأثيرا في القرن العشرين".

[200] . لم تكن اللسانيات موجودة في عصر ديكارت؛ ويعود ابتكار كلمة "لسانيات" للإشارة إلى حقل معرفي إلى بداية القرن التاسع عشر.

موقف مغاير لما هو معهود، ذلك أن مركز الاهتمام هو النحو، واللغة مفهوم مشتق منها، ومن المحتمل أن تكون غير ذي أهمية (1984، ص21).

وبالنظر إلى اللسانيات التاريخية والمقارنة، نستخلص أن الموضوع قد تعرض لاختزال مزدوج؛ إذ يتمثل الاختزال الأول في الانتقال من دراسة اللغات للاهتمام باللغة الفطرية، ويتمثل الاختزال الثاني في إهمال اللغة لصالح النحو(الكوني)، مع ملاحظة أن النحو ليس هو النظرية، ولكنه يحدد موضوعه بوصفه "مكوّنا افتراضيا للموروث الجيني"؛ وفي هذا السياق، يدافع شومسكي عن لسانيات خالية من اللغات، يكون هدفها وصف النزعة اللغوية الفطرية التي وُصفت بأنها قدرة فطرية ومحددة بيولوجيا.

وبالعودة إلى سوسير، نجد أنه في المحاضرة الافتتاحية التي ألقاها سنة 1891 بجامعة جنيف، وكأنه يجيب مسبقا على من سيأتي بعده، أزاح وجهةَ النظر "الحيوانية" التي كانت مزدهرة وقتها كما هو الحال اليوم، واعتبرها "خاطئة للغاية"، لكي يشدد على المفيد في رأيه وهو أن "دراسة اللغة، باعتبارها واقعة إنسانية، تَكمُن بشكل كلي أو شبه كلي في دراسة اللغات" (*ELG*, p. 146).

وفي مسودة هذه المحاضرة، على النحو الذي علق عليها ماتسوزاوا (2003)، فقد أهمل سوسير اللغة الفطرية (le langage) لصالح اللسان عندما كتب على ظهر طبعة فوليو20:

Je considérerai donc uniqu~t auj pour aujourd'hui

سأعتبر إذن (...) بخصوص هذا اليوم

De la langue اللغة

La marche ~~d'1 langue~~ du ~~langage~~ dans le temps

مسيرة ~~اللغة اللغة الفطرية~~ عبر الزمن

وبحذفه على التوالي عبارة *d'une langue* و *du langage*، وقع اختياره على عبارة *de la langue*. ويتعين استحسان هذا الإبدال الأخير في ضوء مقولتة التي ذكر فيها : "بإمكان الفيزيولوجي، وعالم النفس، والمنطقي أن يأخذوا الوقت الكافي لتقديم الأطروحات، وبإمكان الفيلسوف أن يتناول من جديد، في وقت لاحق، النتائج المركبة في المنطق، وعلم النفس، والفيزيولوجيا، ولا أستطيع أبدا قول هذه الحقيقة، وهي أنه لا يمكن إدراك وتصنيف وفهم بوضوح الظواهر الأكثر صغرا في اللغة الفطرية، إذا لم نلتجئ في بداية الأمر وفي نهايته إلى دراسة اللغات" (*ELG*, p.146).

جعل سوسير من اللغة مفهوما كونيا مجسدا، وأصبح وصفه مبدأ منهجيا، في حين أن الفلسفة التقليدية تطرح مفهوم اللغة الفطرية باعتبارها أمرا كونيا مجردا، يقول سوسير: "لنفترض جدلا أن ممارسة الكلام تُكوّن عند الإنسان وظيفة طبيعية، وهذه هي وجهة النظر الخاطئة للغاية والتي تتبناها بعض مدارس الأنثروبولوجيين واللسانيين. ويتعين أيضا الاستدلال بصورة قطعية على أن ممارسة هذه الوظيفة لا تتأتى على مستوى العلم إلا من جانب اللغة أو من جانب اللغات **الموجودة**؛ ولكن وفي مقابل هذا، سيكون مصير دراسة هذه اللغات الموجودة هو أن تظل شبه عقيمة، وتظل على أية حال فاقدة للمنهج ولأي مبدأ موجّه، إذا لم تحاول باستمرار إعطاء أمثلة لمشكل اللغة الفطرية العام، وإذا لم تحاول استخراج من كل واقعة خاصة المعنى والمنفعةَ الواضحة الناجمة عنها، والمفيدة بالنسبة لمعرفتنا للعمليات الممكنة المرتبطة بحدس الإنسان المطبّق على اللغة" (*ELG*, p.146).

ولا يستثني رأي سوسير المشكل العام الذي تطرحه اللغة الفطرية، وعلى العكس من ذلك، فإنه يسمح بطرحه على النحو الصائب. وينطبق الحدس على أية لغة، أي اللغة الموجودة قبلا في المحيط الاجتماعي للفرد، ولكن، وبطبيعة الحال، فإن المحيط لا يخلق اللغة ؛ وعلاوة على ذلك، نرى أن مثل هذه الفرضيات حول الحدس تظل عاجزة عن معالجة مسألة تنوع اللغات.

وفي المقابل، تقود إشكالية المعرفة إلى اختزال موضوع اللسانيات، بشكل يجعلها تنصهر في علم النفس المعرفي ثم في بيولوجيا العضو الخاص باللغة الفطرية، ذلك أن شومسكي إذا لم يكن قد أولى أي اهتمام باللغات لصالح اللغة الفطرية، وإذا كان قد ترك مجال هذه الأخيرة بغية دراسة النحو (الكوني)، فإنه كان يهدف إلى تحقيق هذا الاختزال. ففي مقابل تعقيد اللغات، نراه يلجأ إلى مجموعة من التعقيدات الصورية في النحو الكوني .

مقاومة الأنطولوجيا.- أقدم سوسير، باعتباره مفكرا ينتمي إلى تيار ما بعد البنيوية وبالنظر إلى طريقة تفكيره، على بلورة المشروع العقلاني في حقل اللسانيات، ولكن المشكل أن هذا التصور جرى تأسيسه في خضم هيرمينوطيقا التعقيد، المنحدرة بصورة غير مباشرة من أبحاث شليرماخير وهومبولت بالخصوص؛ والمرتكزة إلى المعرفة والملتزمة بمنهجيتها، وكلاهما مجالان تم عرضهما ببراعة في كتاب **الجوهر**، في حين لا تظهر القضايا الإبستيمولوجية لا من خلال إشكاليتها ولا من خلال مضمونها. والملاحظ أن هذه المعرفة قد تأسست من جهة على تصور قبلي غير جوهري للواقع[201]، بمعنى أن موضوعات اللسانيات غير مماثلة لنفسها أو متجانسة، وغير مفصولة وثابتة، ولكنها تتواجد في وضع تتعرض فيه لضروب من التحولات المستمرة التي تجعل من كل توارد حالة فريدة. ويعارض كل هذا كبريات الأحكام المسبقة التي تقود إلى التقليد المنطقي-النحوي الكلاسيكي، وهو التقليد الذي كُتب له الاستمرار في الأنحاء الكونية.

وكانت هذه القطيعة مع الأنطولوجيا واضحة جدا إلى درجة أن موضعة الظواهر اللغوية أضحت متعلقة **بوجهات النظر** المتسمة بخاصيتها التكوينية التي تتجنب التصور القائم على علم الأسباب، وهو ما لاحظه بنڤنست وقال في شأنه ما يلي:"ومجمل القول أن واقع الموضوع (لا) يعد أمرا منفصلا عن المنهج الكفيل بتحديده" 1966، ص119). ويحظى مفهوم وجهة نظر المنبثق من مصطلح "هيرمينوطيقا" بأهمية قصوى، لأن كل الثنائيات السوسيرية هي ثنائيات مبنية على مفهوم وجهة النظر.

وفي الأخير، فإن مفهوم الثنائية نفسه يقيم جدلية فريدة تضع حدا للفكر الثنائي الذي كان سائدا في فلسفة اللغة؛ ففي *Peri hermeneias*، وضع أرسطو تقابلا بين التمثيلات الذهنية الكونية والأصوات المتغيرة في اللغات من جهة، وبين الإدراك العقلي والإدراك الحسي من جهة أخرى، وهذا التقابل مستمر إلى يومنا هذا في اللسانيات، ولا علاقة البتة بين هذه الجدلية وجدلية هيگل، كما أنها لا تمت بصلة إلى الجدلية الماركسية.

باختصار، لم يكن سوسير مدشّنا لإبستيمولوجيا اللسانيات التي تضطلع باحتمال تموضعها على أنها جزء من فلسفة العلم، بالمفهوم الميلنيري[202] أو بوصفها جزءا من فلسفة اللغة. فبالنسبة لسوسير، تختزل مسألة اللغة

---

[201] . انظر أعلاه الفصل الخامس. يطرح سوسير تصورا خاصا بشأن المطابقة " سيكون مفهوم المطابقة بجميع أشكالها القاعدة الضرورية، تلك التي تستخدم بوصفها قاعدة مطلقة: إذ بواسطتها ومن خلالها نتوصل إلى تحديد الوحدات المقترنة بكل نظام، أي المصطلحات الأولى التي يستطيع اللساني الاعتماد عليها (*ELG*, p.33). ويشير هذا، في حالة ما إذا قمنا بقراءة سريعة، إلى مفهوم المطابقة الجوهرية ذات الارتباط بالتقليد الأنطولوجي، كما هو معبر عنه في مبدأ المطابقة (أ=أ)؛ وهذا خاطئ، لأنه بالنسبة لسوسير، المطابقة ليست جوهرية، ولكنها منهجية، بحيث إنها ترتبط بوجهة النظر التي تتحكم في تعيين الوحدة المدروسة، مثل "المطابقة **التي نبلورها** (المرجع نفسه، التأكيد من عندنا).

[202] . نسبة إلى اللساني الفرنسي جان كلود ميلنير (المترجم).

الفطرية بالأساس في دراسة اللغات، وقد تناولها من زاوية غير فلسفية، وكانت آراؤه بالمناسبة خالية من كل إحالة إلى الوحدات الفلسفية؛ لذا سيكون من الخطأ إدماج أعماله في متن فلاسفة اللغة من أمثال فتگنشتاين أو حتى فريجه. وهكذا، نـأسف لكون ناشري الكتاب المعنون ب *Ecrits de linguistique générale* لم يحتفظوا إلا بالكتابات الخاصة باللسانيات العامة، واختاروا على الخصوص هذا العنوان الذي يشير للوهلة الأولى إلى **دروس في اللسانيات العامة**، والذي يقيم مواجهة مصطنعة - نوعا ما- بين العنوانين. ويمكِّن هذان العنوانان بالفعل من منافسة بالي وسيشيي، بروح رياضية، ولكنهما يعكسان صورة خاطئة عن سوسير، فقد بدا بصورة فيلسوف وعالِم المناهج (انظر على الخصوص توطئة كتاب *ELG*، ص4).

وفي الواقع، فإن كتاب "**الجوهر**" يحتوي على مدى إبستيمولوجي، شأنه في ذلك شأن مجموع أعمال سوسير، غير أنه لا يعتبر نصا في الإبستيمولوجيا، حيث يشمل هذا الكتاب نصا علميا به مظاهر نقدية داخلية قد تبدو على أنها تتوفر على سمات إبستيمولوجية، وفقا لما اعتدنا عليه من التقيد بالأعراف التي يسميها كوهن (Kuhn) "العلم العادي" والمنتمية إلى عالم البحث التقني-العلمي السائر في طريق البحث العادي[203] .

وكان المدى المنافي لأنطولوجيا أعمال سوسير غير مفهوم بما فيه الكفاية في اللسانيات، بحيث إن فلسفة اللغة كانت دائمة الرجوع إليها، لأنها مبنية على نظرية التمثيلات (المنطقية أو الفينومينولوجية)، التي ترتكز بدورها على نظرية الوجود؛ غير أن الأصوات المسموح لها بإبداء الرأي في هذا المجال، من بورس إلى إيكو، تجعل الوجود في صلب السيميائيات، لأنه (أي الوجود) هيمن على تاريخ الأفكار الغربية مثل إله الفلسفة، الذي لم يستطع أن يتجاوزه حتى الملاحدة، بما فيهم الماديون.

ولم يكن النقاش يدور البتة حول ضرورة أو مصداقية الأنطولوجيا، وإنما كان يدور حول نمط حضور الوجود، وهو التيار الأرسطي والطومي الذي ناصر فكرة المحايثة والتيار الأوغوسطيني الذي تبنى فلسفة التعالي[204]. وفي مرحلة ثانية، قاد التقابل بين الاسميين والواقعيين[205] إلى مواجهة شكلين من الواقعية، واقعية الأنواع أو المقولات العامة وواقعية الأفراد.

إن المعنى نمط من أنماط الكشف عن هذا الحضور، فللكلمات معنى بحسب أرسطو في *Métaphysique* لأن للأشياء وجود، وللكلمات ميزة خاصة، إذ كانت وما تزال إلى يومنا هذا تظهر في أول كل قوائم أقسام الكلام، والكلمات هي الأسماء، لأنها مقولات تحمل وسما (عنونة (labels) عند إلينور روتش). أما النتائج العبثية الناجمة عن التسلط الأنطولوجي، فإنها لا تلقى اهتماما كبيرا، بما أنها تنتمي إلى المعتقدات[206].

فحتى المؤلفون المشاكسون في القرن العشرين مثل كارناب وهايدگر قد توافقوا على التسليم بأن الوجود هو أكبر قضية فلسفية، وأن الفكر وكل المعرفة تنبع من التصور القبلي للوجود. وفي هذا السياق، فإن التصور اللا-إحالي عند سوسير لا ينافس مثلث أوگدين (Ogden) وريشار(Richard) المتكون من **الرمز**، و**الفكر**، و**الإحالة**، وهي المفاهيم التي اعتبرت استمرارا للمثلث السكولائي المتكون من الصوت (*vox*) والتصور

---

[203] . لم تتكون الإبستيمولوجيا كحقل فلسفي إلا في العشرية الأولى من القرن العشرين. وفي العصر الذي بدأ فيه سوسير عمله الثقافي، لم يكن وقتئذ إلا مجال للتفكير يسمى " نقد العلوم".

[204]. كانت الأفلاطونية الجديدة تضع الواحد في مرتبة أعلى من الوجود.؛ وفتح هذا الوضع الطريق للتقليد الأنطولوجي السلبي، منذ بسودو دوني (Pseudo-Denys) وصولا إلى إيكارت (Eckhart) وهيگل.

[205] . ترى فلسفة الاسميين أن الكليات ليست إلا أسماء صيغت لتعبر عن صفات في أشياء معينة، وأنها توجد بعد التسمية، أما فلسفة الواقعيين، فإنها تذهب إلى أن الكليات هي حقائق موجودة قبل الأسماء (المترجم).

[206]. نجح كريبك (Kripke) في ترسيخ المعتقد، وذلك من خلال شكل من أشكال المذهب الإيماني المرجعي، إذ إن نظريته تعمد إلى تثبيت دلالة الاسم العلم في كل العوالم الممكنة.

(*conceptus*) والإحالة (*res*))، كما أنه لا ينافس موريس وكارناب اللذين ارتكزا على هذا التقليد لكي يطرحا التقسيم الثلاثي المتكون من التركيب والدلالة والتداوليات.

وفي الوقت الحاضر، تعددت الأنطولوجيات وأصبحت هيكلا عاما لتمثيل المعارف؛ ويتعين على كل معرفة أن تتجسّد في تمثيل خطي يتخذ شكل الويب الدلالي الذي يطمح إلى الاستحواذ على المعارف، مثل ما يطمح أيضا إلى محوها رقميا، بل وأيضا مراقبتها. وفي مجال المعلوميات المألوف في الدلالة المنطقية، يهيمن التوقع الإحالي وبالإجماع إلى درجة أن هياكل التمثيلات تستند إلى فكر غير نقدي.

ويفسر استمرار الفكر الأنطولوجي من خلال طرح السؤال: لماذا لم يكن سوسير مفهوما من دون السعي إلى إعادة تأسيسه، استنادا إلى الأنطولوجيا؟ حيث نجد التصور الإحالي للسوسيرية عند كليبر ومارتان أو التصور الجوهراني عند أطلاني (Atlani)[207]؛ غير أنه في غياب تصور قبلي للوجود واستنادا إلى فكر النفي وليس إلى جدلية الأنطولوجيا المتعرضة للنفي، طرح كتاب **"الجوهر"** بقوة نقدا جذريا غير مسبوق للفكر القائم على مفهوم الجوهر، والثبات، والإحالة، سواء في تاريخ اللسانيات أو في الفلسفة، مما سمح بتصور استقلالية العالم السيميائي وموضعته ، وفق نمط خاص من التفكير العلمي.

اللسانيات الموحدة.- السؤال المطروح في هذا المحور هو كالآتي:ما هي إذن العلاقة الترابطية بين اللسانيات العامة واللسانيات الوصفية؟ فالكتابات التي نشرها سوسير درست اللسانيات الهند-أوروبية ولم تعالج اللسانيات العامة. والكرسي الذي منح له بجنيف سنة 1891 كان كرسي اللسانيات التاريخية والمقارنة، الهادفة إلى دراسة اللغات الهند-أوروبية. وتظهر اللسانيات العامة حقيقة في العنوان الأكاديمي المتعلق بالتدريس، والذي كرَّس له سوسير جهوده ابتداء من سنة 1909، عندما عوَّض منصب ڤيرتهايمر (Wertheimer)؛ ولكنه لم يكن ليتناول هذه العموميات إلا بوصفها مواد تكميلية للسانيات الخاصة. وجاءت «الدروس» التي ألقاها سوسير إذن في ظرف ثلاث سنوات بعد دروس اللسانيات الوصفية، واللسانيات القوطية، والسنسكريتية، وللإشارة فقد استغرق تحصيل هذه المواد المقدمة للطلاب عشرين عاما في كل من جنيف وباريس؛ وهكذا وعلى الرغم من الانبهار الديداكتيكي للعموميات، فإن الاختيار القاضي باختزال فكره في اللسانيات العامة لا يتيح استعراض الكثير من الحالات التي تسمح بالوقوف على تطورات فكره (وللعلم فإن الكاتب لم يتطرق بصورة صريحة لمشاكل اللسانيات العامة إلا بعد مرور عشر سنوات على مناقشة أطروحته) وبالخصوص مشروعه الهادف إلى ربط اللسانيات العامة باللسانيات الخاصة. أضف إلى كل هذا أنه تعمّق في البحث في ثنائية اللغة الفطرية واللغات، وهي الثنائية التي تحتفظ بخاصية الصدارة اليوم، في وقت تنتشر فيه بقوة نظريات اللغة الفطرية، ووقع في المقابل إهمال وصف اللغات.

ما هي إذن والحالة هذه مشروعية مفهوم "اللسانيات العامة"؟ يبدو هذا السؤال غير متوقع، لأن سوسير يظهر في كثير من الكتب المدرسية على أنه مؤسس اللسانيات العامة. ولقد عرفت هذه الصيغة نجاحا، وعلينا أن نتذكر العناوين التالية: *Linguistique historique et linguistique générale* لميي (1921)،و

Linguistique générale et linguistique française لبالي (1932)، وصدر على الخصوص في الفترة ما بين 1960 و1970، كتاب مارتيني وعنوانه *Eléments de linguistique générale* (1965)، وصدر كتاب *Essais de linguistique générale* (1963) لجاكبسون، و*Problèmes de linguistique générale* (الجزء الأول، 1966، والجزء

[207] . ينتقد راستيي دلالة كليبر ومارتان ويعتبرها خارجة عن مجال اللسانيات، لكونها تقوم على مبدأ الإحالة؛ ولهذا فدلالة كليبر تنتمي إلى الفلسفة وليس إلى اللسانيات (المترجم).

الثاني، 1975) لبنڤنست، و*Linguistique générale* (1974) لبوتيي (Pottier). أما *Ecrits de linguistique générale* (سوسير، 2002) و *Les leçons de linguistique générale* (گاليمار، سيصدر قريبا)، فإنها تشير إلى استمرارية هذه الصيغة في ذهن الناشرين والقراء من دون شك.

وإذا لم يستعمل سوسير هذه الصيغة السالفة الذكر في عنوان كتاباته، فإن هذا عائد إلى أن التفرقة بين اللسانيات العامة واللسانيات الوصفية كانت واهية بالنسبة له، بما أن دراسة اللغة الفطرية متضمنَة في تلك التي تعالج اللغات[208]؛ إذ لا توجد إلا لسانيات واحدة، وسماها بالمناسبة **"علوم اللغة"**. وعندما عنونوا الطبعة الصادرة بعد وفاته ب**"دروس في اللسانيات العامة"**، أعاد كل من بالي وسيشيي صيغة أكاديمية تترجم العبارة الألمانية *Allegemeine sprachwissenschaft* ، فذلك مفهوم عام يشمل كل الدراسات اللسانية، إلا أن كلمة **عام** تتضمن في الفرنسية معنى التجريد الذي يعتبر كثير الوضوح منذ الأنحاء العامة الرائجة في العصر الكلاسيكي.

وفي الواقع، صاحب الرواج الذي عرفه مصطلح "اللسانيات العامة" اختفاء طفيف للسانيات التاريخية [209] والمقارنة، واحتلت "لسانيات اللغات" المرتبة الثانية من حيث الأهمية. وجعل هذا الوضع سوسير على درجة متساوية مع كُتاب مثل شومسكي الذي لا يعير أي اهتمام للغات لصالح اللغة الفطرية، والنحو الكوني. إن الفكرة الرائجة القائلة بأن سوسير هو من أسس اللسانيات العامة تقود إلى الوهم الاسترجاعي الذي يسمح بقراءته على أنه فيلسوف لغة، أو على أنه رائد الأنحاء الكونية المعاصرة.

وقد يقود هذا المعطى إلى قراءة جزئية لا تنصف آراء الكاتب، فمن وجهة نظر معرفية- كما هو موضح في كتاب **"الجوهر"**- يمكن استنتاج قضايا منهجية كبرى من قبيل: كيف سنميز ونصف "وحدات" تتسم بالازدواجية، وحدات متباينة، وغير ثابتة، وغير موجودة قبلا، إذا أخذنا بعين الاعتبار العملية القاضية بالتعرف عليها أو تكوينها؟ ونتيجة لذلك، يسعى كتاب **"الجوهر"** على العموم إلى وضع بحث في المنهج؛ ونعني هنا منهج الموضعة ومنهج العرض، اللذين تم إعطاء أمثلة بخصوصهما من خلال دروس قام الكاتب بإلقائها في الفونيتيكا والتصريف اليوناني-اللاتيني. وظل هذا البحث معلقا، لأنه يطرح مشاكل لا حلول لها بشأن وضع هذه الممارسات الثقافية المتمثلة في اللغات والنصوص بوصفها موضوعات ثقافية.

الصيغة المفقودة.- اضطر سوسير إلى ابتكار منهجية عرض جديدة وإيجاد نوع حديث من البحوث اللسانية، بما أن البلورة النظرية غير مستقلة عن أشكالها التعبيرية؛ إذ نجد هنا مسألة النوع المرتبطة بكتاب **"الجوهر"**، فأنماط العرض الأكاديمي، بدءًا بالمختصر وانتهاء بالمصنّف، تجسِّد التقليد الأرسطي ثم السكولائي الذي يفرض الانطلاق من المبادئ وإظهار نتائجها بواسطة مختلف الوساطات، بغية التوصل إلى استخلاص المقولات الوصفية. وتظل هذه المنهجية الاستنباطية حاضرة في كل البحوث اللسانية، وتخص حتى خطاطات الأشجار التركيبية- التي تبدأ بالرمز المُطَمئِن P (الذي يشير إلى **الجملة**). فتحليل وتوليف، واستقراء واستنباط، ومعرفة اطرادات الظواهر عن طريق القوانين العامة، كل هذا الصرح المرتبط بالتصورات القبلية للعلم يصبح غير قابل للاستعمال في النظرية السوسيرية.

---

[208] . انظر أيضا بنڤنست : " يجب أن نضع نصب أعيننا الحقيقة التي تقول بأن التفكير في اللغة الفطرية لا يكون مثمرا إلا إذا كان يستهدف في المقام الأول اللغات الواقعية. وتظل دراسة هذه الأنظمة الأمبريقية والتاريخية، المكونة من اللغات، الولوج الوحيد والممكن لفهم ميكانيزمات وآلية اشتغال اللغة الفطرية" (1966، ص 1).

[209]. هناك الكثير ما يقال بخصوص المظاهر "التاريخية" المرتبطة بنظرية التقعيد التي راجت كونيا في السنوات 1990، والتي تتبنى توجها مضادا للسوسيرية، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار النقد الذي وجهه سوسير للطرق المعتادة في الأبحاث الخاصة بتاريخ اللغات (انظر ريشلير-بيگلان، 2010.

إذن، كيف سنؤول صمت سوسير؟ أو على الأقل كيف سنؤول عدم اكتمال، وعدم نشر كتاب مثل كتاب "**الجوهر**"؟ من المحتمل أن الكاتب قد تخلى عن مشروع كتابه بسبب الصعوبات المنهجية المتعلقة ببنية النظرية اللسانية، والتناقض مع **أنماط العرض** المعياري، التي تفرض شكلا محدودا من العقلانية ذات المنحى الأرسطي، مع مراعاة النظرية الضمنية للمعرفة المتصفة بالمعنى المشترك. وبالنسبة للباحث الذي يأخذ الثنائية بين المضمون والتعبير مأخذ الجد، مثل مسألة السيميوزيس النصي، فإن فكرا جديدا لا يمكن التعبير عنه في أشكال عتيقة، ولكنه يخلق بموازاة ذلك أنماط عرض تساعد على تكوينه وتأسيسه؛ مثلا، أشرنا بالمناسبة بأنه في ملف كتاب "**الجوهر**""توجد على الأقل أربعة مستهلات مختلفة وصريحة (*Note item* 4§1,9,27)" (انظر دي ماورو، 2005)، ولكن هذا يؤكد على حالة التخبط السوسيري بصورة أقل من الاستحالة النظرية القاضية بوقف ما تم البدء به، إذ يقول سوسير بهذا الشأن: "نسمح لأنفسنا بإعادة الفكرة نفسها أمام أعين القراء، حتى ثلاث أو أربع مرات تحت أشكال مختلفة، لأنه لا نجد في الواقع أية نقطة انطلاق أكثر إشارية من أخرى لكي نؤسس عليها برهانا" (*ELG*, p.198).

ويضاف شكل من التشاؤم أو من النباهة إلى هذه الصعوبات الخاصة، وقد نختار التعبير الأول أو الثاني؛ وكان سوسير يشك أنه لن يكون مفهوما ولن يكون باستطاعته تحقيق ذلك، فالأحداث اللاحقة أنصفته، وهناك الكثير من الأمور التي يجب فعلها.

وعلى وجه الاحتمال، يعمل نمط العرض المصمم في كتاب "**الجوهر**" على إسقاط وتجسيد التصورالهيرمينوطيقي المصاغ في نظرية اللغة الفطرية، من خلال تعبيره؛ فمثلا، نعلم أنه ليس للغة الفطرية أصل (حتى في التاريخ)، مثل ما أن نظرية اللغة الفطرية لا تملك بداية مطلقة. ويصل بنا الأمر إلى أن نتساءل ما إذا كانت علاقة التمثيل، التي تربط في البراديغم المنطقي-النحوي بين اللغة/الموضوع واللغة الواصفة، غير مطابقة هنا لعلاقة المنافسة التشاركية بين اللغة ونظرية اللغة. ويبدو أن التصور السوسيري للسيميوزيس يسمح بفكرة هذا التشارك الانعكاسي، بما أن الموضوع يوجد في علاقة ارتباط كلي بوجهة النظر التي تُكونه.

كانت النظرية غير النقدية للمعرفة العلمية التي قرر الكاتب التخلي عنها، تفترض الوهم المرجعي، المشترك مع التجريبية المنطقية، حيث تُقدَّم لنا مجموعة من الأشياء، وتتوقع منا أن نقوم بمقوَلتها وتقسيمها وإخضاعها للتجريد بغية الكشف عن العلاقات المنطقية بينها، والمتوفرة على المدى السببي. وشكل هذا الخليط غير المستقر من التجريبية والنزعة المنطقية، باعتباره مفارقة واضحة للوضعية الجديدة، نظريةَ العلم المهيمنة، من كارناب إلى بوبر،وأصبح [أي الخليط]الأساس القطعي للطموحات التقنية-العلمية، مثل تلك التي نجدها في الويب الدلالي على الخصوص (انظر الكاتب،2011)؛ ومع ذلك لن يكون هذا التوجه ذا مصداقية إلا إذا تم اختزال العلامات في الدال المكوّن من الرموز المنطقية والإشارات، غير أنه إذا اعتبرنا أن الدلائل ليست معطاة، بحيث وجب عليها أن تكون مبنية، وأن العلامات وحدات ثنائية، بحيث لا يمكن الفصل بين الدال والمدلول، فإنه لا يمكن تحديد ومعرفة العلامات إلا بتوجيه مساراتها التكوينية، أي تأويلها.

هل كان سوسير ينوي بناء لغة واصفة؟ وبالإضافة إلى كونه مستندا إلى الوهم المرجعي، فقد جسَّد مفهوم اللغة الواصفة تصورا منطقيا للغة والسيميائيات، ويعود هذا المفهوم إلى العدة الهوسيرلية. بالفعل، كان سوسير يحيل باستمرار على الجبر، وخلص بعض الباحثين إلى ما مفاده أنه كان ينوي صورنة اللسانيات. وبإدخاله مفهوم الجبر، كان سوسير يشير إلى نمط من العمليات حول النكرات. وبالفعل، فإن كل الوحدات اللغوية الكبرى تعتبر **قبلا** نكرات، بمعنى أنها لا تحدَّد اختلافيا إلا بواسطة وضعها في الجدول أو في المركَّب، مما أحدث بطبيعة الحال قطيعة مع أنطولوجيا الجواهر، وقاد إلى الانفتاح، برأينا، على تصور خاص للسانيات، بوصفها نظرية الأشكال.

وهكذا، قام هيلمسليف في كتابه *Résumé d'une théorie du langage* بتعميق وتفعيل المشروع السوسيري من دون إنهائه؛ إذ إن كل مفاهيم النظرية وكل الوحدات الكبرى والأساسية المُعرفة يتم تعويضها بالكتابة الجبرية، من دون تصورها في شكل عمليات حسابية.

لماذا لا يعتبر سوسير "فيلسوف لغة؟".- في حقل اللسانيات، يمكن للفلسفة أن تصبح قوة نقدية اقتراحية، فقد كان التفكير الفلسفي عند هومبولت مثلا منسجما مع لسانياته الوصفية. وبتطوير وتعميق فكر هومبولت، صاغ سوسير بحثا يتسم بمدى إبستيمولوجي كبير- في حين لا نجد في كتاباته أي أثر يشير إلى إحالات وصياغات فلسفية[210]. وبالفعل، قدَّم هذا الأخير في الدرس الثاني لطلبته بانوراما عن اللسانيات وعلاقاتها بالمعارف المجاورة (مع الأسف، لم يشر الناشرون إلى هذا القسم في كتاب «**الدروس**») ولكن، وبغض النظر عن هذا التنازل الديداكتيكي النافع، فإن الإبستيمولوجيا الكلاسيكية[211] لا تحتل أي مكان صريح لها في فكره.

غير أنه عرض معرفة هيرمينوطيقية أصلية، قائمة على ما مفاده أن وجهة النظر تخلق الموضوع وأن دور الوصف يتمثل في تنويع وجهات النظر من ناحية المنهج. وللإشارة فإن وجهات النظر المفضَّلة هي أقطاب الثنائيات (مثل اللسان والكلام، الدياكرونيا والسانكرونيا، الجدول والمركب، الخ.)، فالمنهج محايث للموضوع، ويجعله قابلا للفهم ومرتبطا به بصورة خاصة.

إن للمنهجية أهمية أكبر من الإبستيمولوجيا على نحو ما هو معروف في التقليد العلمي، فهي تعوضها إذا صح التعبير، لأن مبادئها تبتعد عن التقليد الإبستيمولوجي المبني على التصنيف، والتجريد، والسّلمية الأنطولوجية، والبحث عن الثوابت، والتمييز بين الجواهر والعوارض، وما يسمى بطبيعة الحال قوانين الفكر، مثل مبدأ الهوية، وعدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع؛ مثلا، لا تملك الكلمة أي جوهر ولا تقوم بتأليف دلالاتها، لأن استعمالاتها المختلفة، مهما كانت متقاربة، تُكَون علامات مختلفة، بما أننا نتعرف على التفرد المطلق للتواردات.

هذا ويفترض التضامن السيميائي القائم بين المضمون والتعبير أن النظرية تتمثل كلية في عرضها ، ويقود في الوقت نفسه إلى هذا الاستنتاج، ولكن الرفض الصريح للأنطولوجيا يقصي نوع المصنف المرتبط به، كما يقصي كل تحليل سببي قادر على عزل وإقامة تراتبية بين الأسباب والنتائج، ويمنع تنظيم العرض انطلاقا من الآراء الموثقة، والمبادئ، ثم عمليات الاستنباط الذي ينتهي بها الأمر إلى الالتقاء بالموضوع التجريبي لكي توضحه. ولا يمكن للنظرية اللسانية أن تُعرض في أشكال تقليدية، لأنها لا تملك أية نقطة انطلاق أكسيوماتيكية؛ إذ عليها أن تسلك طريق التغيرات المقعدة لكي تمثل موضوعاتها، آخذة بعين الاعتبار مختلف وجهات النظر. لقد كان سوسير متشائما إزاء هذه النزعة، وهذا ما جعله يتخلى بشكل صريح عن هذه الموضوعات عبر مختلف الأحاديث والرسائل. وفي الأخير، حتى وإن تم تقديم النظرية، فإنها لن تكون مفهومة، ثم إنها تبدو في غالب الأحيان معرضة لعدم الاستيعاب في أيامنا هذه[212].

وتعود صعوبة العرض إلى الخاصية غير النسقية للغة، على الأقل اللغة التاريخية التي شبهها سوسير بركام حجارة، بهدف الإشارة إلى الاكتظاظ الذي يمس الوقائع؛ وعلاوة على ذلك، لم تقم اللسانيات بصياغة

---

[210] . إذا كان مؤلف أريلد أوتاكير حول سوسير يحمل عنوان *La philosophie du langage*، فهذا راجع إلى المبادرة التي قام بها الناشر والتي كانت منافية لرغبة المؤلف، وهذا الأمر يوضح مدى أفضلية فلسفة اللغة مقارنة باللسانيات في مخيلة الجمهور؛ غير أن العنوان الفرعي *Une archéologie saussurienne* يوضح بجلاء أن المؤلف يهدف إلى دراسة فلسفة اللسانيات.

[211] . الحقل المعرفي الذي كان معروفا في عصر سوسير هو "نقد العلوم".

[212] . اصطدم هيلمسليف بنفس الصعوبة : فمؤلفه الكبير *le Résumé de la théorie du langage* قد نشر بعد وفاته ولم يُعثر له على قراء. وضاعفت معاقاته التحليل الموصوف.

القوانين السببية، وبالنسبة لمصطلح "قانون"، انفصلت القطيعة عن نموذج العلم عند نيوطون، وهو النموذج الذي مثَّله النحاة الجدد في زمن سوسير، وتمثّله في الوقت الراهن النظرية المعرفية الباحثة دوما عن العلاقات السببية بين "الحالات الذهنية" المفسرة للعلاقات اللسانية. وهكذا، أعرب الكاتب عن أمله في زوال هذا المصطلح قائلا: "قانون: سيكون تحررهم من هذه الكلمة بالنسبة للسانيات أمرا إيجابيا " (*ELG* , p.235، وهذه الملاحظة تستهدف من دون شك النحاة الجدد).

وبناء عليه، ستصبح اللسانيات علم الخاص: " فآخر تفاصيل الظواهر هي أيضا سبب وجودها الأخير، و[...] من ثم، يمكن للتخصص الأقصى أن يقدم خدمات للتعميم الأقصى" (*ELG*, p.147)؛ وهذا على وجه التدقيق هو مبدأ الحقل الإيديوغرافي وليس التعميمي، في حين أن النحاة يبذلون دائما قصارى جهدهم من أجل وضع القواعد ... وجرد الاستثناءات.

وكان كل من هيلمسليف وبنڤنست وكوسيريو من بين الكُتاب الذين تأثروا بسوسير، و ساهموا، كلّ بطريقته، في تطوير **فلسفة اللسانيات**، وذلك بفصل مجال اشتغالهم عن فلسفة اللغة، سواء تعلق الأمر بلوجستك راسل في نظرية هيلمسليف، ولوجستك أوستين في مقاربة بنڤنست، أو نظرية المعرفة في مقاربة كوسيريو الذي انتقد نظرية النموذج الأمثل.

وهكذا يتمثل استحقاق سوسير في القطيعة مع النحو المدرسي وأيضا مع فلسفة اللغة؛ ثم إن التيارات السوسيرية المنتمية إلى اللسانيات (الأوروبية في مجملها) احتفظت بالإشكالية التاريخية والمقارنة التي طبعت اللسانيات المنفلتة من سطوة النحو المدرسي وفلسفة اللغة.

إن النحو التاريخي والمقارن جزء مركزي من اللسانيات. ولكن انطلاقا من المشاكل المنهجية التي تعترض عملية مقارنة اللغات، أصبح من الممكن وضع حد للنزعة السكونية وللتوجه الأنطولوجي اللذين طبعا كلا من النحو وفلسفة اللغة. وبمراجعة نقدية للسانيات التاريخية والمقارنة في زمانه، وبإعادة تأسيسها بطريقة مغايرة لما كانت عليه في مجال أنثروبولوجيا التنوع، وليس في إطار أنطولوجيا التماثل، منحها سوسير استقلالية بجوار هاتين المعرفتين التقليديتين المقبولتين إلى حد الآن بطريقة غير نقدية، لأنهما يحددان الإطار الإشكالي بخصوص اللغة الفطرية؛ ولهذا السبب وسم عمله لحظة تفريع، بحيث اكتسبت بفضله اللسانيات القدرة النظرية على إحداث قطيعة مع الإشكالية المنطقية-النحوية، كما يُعبر عنها في النحو المدرسي وكما تعكسها فلسفة اللغة. ومع ذلك لم تستغل اللسانيات هذا السبيل، فعلى العكس من ذلك، تخلت عنه، وبالغت في التركيز على التقسيم الثلاثي المكون من التركيب والدلالة والتداوليات، وهو تقسيم فلسفي وضعه مؤلفون لم يكونوا لسانيين، ولم يكونوا يستحيون من جهلهم في مجال اللسانيات؛ وهذا ما منع سوسير من تقديم نظرة عامة عن موضوع اللسانيات.

خاتمة

محددات في مشروع علوم الثقافة

1. قراءات تاريخية وقراءات معاصرة

يمكن قراءة سوسير في الوقت الحاضر باتباع طريقتين متكاملتين: الطريقة الأولى تقتضي استرجاع فكره، بالنظر إلى اللسانيات التي كانت سائدة في عصره، والطريقة الثانية تتوخى المساهمة في تطوير التيارات السوسيرية المنتمية إلى اللسانيات المعاصرة، وفق أسس ومنطلقات يمكن بلورتها في النقاط الآتية:

أولا: يظل عمل سوسير بعد مضي قرن على وفاته عسير الفهم، إلى درجة أن الفضاء المستشكل لزمانه لم يعد معروفا، لأن استمرارية اللسانيات قد تعرضت لقطيعة بسبب العديد من الحركات الدوغمائية ذات النزعة الاستقصائية. ومن جهة أخرى، عرفت وحدة العلوم التاريخية (وتسمى حاليا **العلوم الاجتماعية**، و**العلوم الإنسانية**، و**علوم الثقافة**) قطيعة منهجية منذ ثلاثينيات القرن العشرين[213]. وفي الوقت الذي كان هايدگر ينتقد مفهوم الوحدة (بدعوى أن "العلم لا يفكر") ومفهوم التاريخ لصالح الوساطة حول الأصل، كان كارناب الذي تعوّد على توجيه انتقاد صريح لفكر هايدگر يرفض كل المعارف التي تطرح قضايا لا تنتمي إلى الملفوظات الواقعية، واعتبرها مباحث ميتافيزيقية. وكان آنذاك تقطيع أوصال اللسانيات المعاصرة وتحويلها إلى علم صلب (علم الأعصاب المعرفي، بحسب تعبير ستيڤن بينكر) وإلى فلسفة اللغة القارية أو غير القارية، مشروعا في طوره الجنيني.

وبما أن سوسير كان يرفض الأفكار المهيمنة في ساحة اللسانيات، نتساءل ما إذا كان كاتبنا يُقرأ "لذاته ومن أجله"؛ غير أنه للكشف عن مشروعه، يتعين ليس فقط دراسة متن أعماله، ولكن دراسة المتن العملي لمعاصريه، سواء آمن به أم رفضه. وباختصار، من الأفضل قراءة سوسير في علاقته بويتني أو كروزيڤسكي (Kruszewski)، على أن يقرأ في علاقته بڤتگنشتاين أو شومسكي.

ولقيت أعمال سوسير تقليدا تأويليا خاصا به نظرا للسمعة التي حظي بها بعد وفاته، لكن المؤلفين الذين فهموه على الوجه الأفضل، على الرغم من المتن المختزل، من أمثال هيلمسليڤ وكوسيريو، كانوا بدورهم غير معروفين أو منسيين، مع وجود برنامج اللسانيات التاريخية والمقارنة، ما عدا في بعض المجالات مثل الدراسات الرومانية. وإذا كنا إذن نقرأ سوسير باعتباره مفكرا نشيطا، وكلاسيكيا يصعب تصنيفه، ومؤلفا نجما أو مجرد مُهَيج ثقافي، يمكن بطبيعة الحال تشبيهه بڤتگنشتاين، ولكن اعتباره "فيلسوف لغة" يقوّض مشروعه العلمي ومشروع اللسانيات التي كان ينوي بناء أسسها.

---

[213] . لكل فترة من تاريخ المعرفة العلمية عوائقها، وعندما تحدث قطيعة إبستيمولوجية داخل فكر علمي، ينهض فكر علمي جديد؛ فمفهوم القطيعة الإبستيمولوجية هو المفهوم الذي يعبر عن القفزات الكيفية المساهمة في تطور العلوم؛ كما تتحقق القطيعة بفرض مناهج جديدة تعكس نظرة حديثة للموضوعات داخل العلوم الإنسانية أو داخل حقل من حقولها (المترجم).

وبعد قرن، كان من المتوقع أن تفسد الاختزالات والمغالطات الاستعادية قراءة إنتاجه الفكري؛ فمن جهة، وأمام فكر صعب المراس، من المفيد البحث عن أولياء آخرين للاستنجاد بهم ولو بصورة عابرة، ومن جهة ثانية، عادة ما تحمل قراءاته صبغة "الإغواء"، وذلك للاعتبارات الآتية:

(أ) جعل منه الاختزال المنطقي-الوضعي رائدا لفكر شومسكي أو سبيربر، وأصبح معرفيا قبل ظهور التيار المعرفي؛ وليس نادرا حتى في سويسرا أن يوظف الكاتب لتلميع صورة المؤلفين الاختزاليين.

(ب) رأينا أن الخطأ "الإبستيمولوجي" قد حوّله إلى فيلسوف اللغة.

(ج) يستدعي الإغراء الإبستيمولوجي، وهو في الواقع نادر الحدوث، قراءةَ سوسير عبر هايدگر أو گادامير، بينما اتسمت الهيرمينوطيقا مع هؤلاء بطابع الروحانية، وابتعدت عن النصوص واللغات، وبعد ذلك، نظمت مبدأ التفكيك في شكل نسق، وهو المبدأ الداعي إلى تعنيف النصوص. وكما أوضح لودويگ جيگور[214](Ludwig Jäger) في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، فإن الهيرمينوطيقا المادية، الفيلولوجية، لصاحبها شليرماخير،وهيرمينوطيقا هومبولت على وجه الخصوص، هي التي توصف بأنها واردة.

ثانيا: ثمة أسئلة مثارة ضمن هذا المشروع وأبرزها: ألا يعد سوسير مجرد موضوع تاريخي؟ وماذا سيكون مآل "السوسيرية الجديدة"، وهو مصطلح وضعه بوكي منذ عشرين سنة خلت، بخصوص كتاب كورسيل (Coursil)؟[215] وفي الوقت الذي انقطع فيه خيط تاريخ الأفكار اللسانية، كيف سنعيد ربط العلاقة مع اللسانيات التاريخية والمقارنة، ومع علوم الثقافة التي تنتمي إليها؟ وبعبارة أخرى، توجد اللسانيات الآن في مفترق الطرق، إذ يمكن أن تتعرض اللسانيات العامة بكل بساطة للانقراض، لصالح النظريات اللغوية مثل تلك التي توجد في مؤلَّف *Formal philosophy* لمونطاگ، أو أيضا لصالح النظريات المنتمية إلى علوم الأعصاب. وسيظل تعليم اللغات قائما على نحو ما نشاهده في بعض الدول، على الأقل تعليم اللغات التي ما زالت تعتبر نافعة، ولكن لسانيات اللغات تُختزل في مجال الديداكتيك، ويصاحب هذه السيرورة بصورة خفية اختفاء اللغات قليلة التوثيق.

وفي هذه الحالة، من الأفضل تعميق برنامج اللسانيات التاريخية والمقارنة، التي لم تفقد حظوتها، على الرغم من تعرضها للنسيان من قبل أصحاب القرار والخبراء (المرتبطين بالفكر الوحيد في "العلم العادي" المرتبط بشومسكي[216])؛ وبهذا المعنى عنونتُ إحدى مداخلاتي ب **"ما بعد شومسكي، سوسير؟** في إطار مائدة مستديرة نظمت على هامش ندوة **الثورات السوسيرية** التي أقيمت بجنيف.

لنميز هنا بين التقليد النحوي والتجديد الذي أتت به اللسانيات. لقد عرف النحو، وهو مبحث مدرسي أساسي، متمركز في مقدمة الفنون الثلاثة ، نواقصَ هامة، وأسس استنادا إلى قائمة قاعدية من أقسام الكلام، وهي مصنفة وخاضعة لسُلَّمية بحسب الوضع الأنطولوجي لمراجعه المفترضة (الأسماء تحيل على الذوات، والصفات على الحوادث، والأفعال على الحركة، الخ.). وكان التحليل المورفولوجي مختصرا، لكي لا يربك التوازي النحوي-المنطقي، وهذا ما يفسر مفهوم الحالة الإعرابية، والإعراب، الخ؛ التي توسم الحوادث المرتبطة بالذوات. وبما أن الإسناد النحوي ينقل موضع الحكم المنطقي، فإن التحليل الإسنادي يقتصر على الجملة، التي جرى

---

[214] . لودويگ جيگور(Ludwig Jäger) أستاذ باحث بمعهد اللسانيات وعلوم التواصل بالجامعة الراينية الفستفالية العليا بآخن (ألمانيا) . وتدور أبحاثه حول النظريات اللسانية والإعلام وتاريخ النظرية اللسانية (المترجم) .

[215]. يتعلق الأمر بكتاب جاك كورسيل (Jaques Coursil) وعنوانه *La fonction muette du langage* (المترجم).

[216] . تشتغل العديد من المدارس العلمية على منوال الشركات المتنافسة، في وقت فرضت فيه الإيديولوجية المقاولاتية هيمنتها على العالم الأكاديمي، وأصبحت تعتمد على اللوبيات مثل عمليات وسم العلامات التجارية، متنكرة لأهمية المدارس التي ترى فيها منافسا.

تصورها على أنها تعبير عن القضية. وتضطلع نظرية الإسناد النحوي بالتحليل القائم على سُلّمية الجملة، وهو التحليل المبني على مفهومي التعدي والمطابقة. أما التعبير والأصوات اللغوية والتطريز، فتلك عناصر كانت شبه غائبة (كان اللغويون يفضلون الحرف، وتسمية النحو تذكرنا بهذا التفضيل).

ظلت فلسفة اللغة، وإلى حدود وقتنا الحاضر، وريثةَ التقليد السكولائي (وللإشارة فقد غيَّر عصر النهضة التصور التقليدي للغة وساهم في تهميشها) وكانت مرتبطة بالتصور النحوي. واقترضت الأنحاء الصورية من التقليد النحوي ما تعتبره مختصرا، أي أن أقسام الكلام بحسب شومسكي ظلت على ما كانت عليه عند دوني لوطراس، وبنفس الرتبة[217]؛ وهكذا استوعب النحو الجامعي، شديد الارتباط بالتقليد النحوي، بسهولة الأمور الجديدة (الخاضعة لعملية التجميل) التي طرحها شومسكي، مثل الأشجار التركيبية.

غير أن اللسانيات التاريخية والمقارنة، المستفيدة من اكتشاف الأنحاء السنسكريتية، خلخلت في بداية القرن التاسع عشر هذا الصرح الممتد لألفي سنة والذي بناه النحاة القدامى من دوني لوطراس إلى بريسيان، لكنه تعرض بعد ذلك للانتقاص، في فترة الأنحاء التأملية في القرون الوسطى وصولا إلى الأنحاء الفلسفية في العصر الكلاسيكي؛ بالفعل، وبخلاف النحو المرتبط دوما بالتعريف الأنطولوجي لأقسام الكلام ومنطق الطبقات والقضايا، يمكن للسانيات التاريخية والمقارنة أن تتخلى كليا عن الفرضيات الأنطولوجية (مثل نظريات التمثيل، ونظريات المرجع، الخ.) لصالح وصف الأشكال اللسانية الواقعية والسيميوزيس المتعلق بها.

وفي الأخير، وبطرحها لمفهومي الفونيم والمورفيم، وسَّعت اللسانيات التاريخية والمقارنة من مجال الوحدات اللغوية القابلة للملاحظة، في الفونيتيكا والدلالة (ريزيگ). غير أن هذين المفهومين اللذين مكنا من مقارنة اللغات وفتحا مجال الدياكرونيا ظلا في غياهب النسيان إلى يومنا هذا ضمن فلسفة اللغة، وفيها يقتصر التحليل على الكلمات والقضايا، التي لا تعتبر مفاهيم لسانية[218].

ومن جهة أخرى، ظلت مفاهيم الوثيقة والنص والعمل الفني خارجة عن نطاق النحو، وأصبحت ذات أهمية قصوى لقراءة المتون التي كونت منذ مدرسة الإسكندرية أفقَ هذه الحقول المعرفية المساعدة، أي "علوم اللغة". وهكذا، أصبح البحث في قضايا الأسطورة والأدب أمرا مبتذلا في اللسانيات المقارنة، فعلى سبيل المثال، كتب بريال أطروحته حول هرقل وكاكوس، وفي العشرية التي تلت تحريرَ كتاب **الجوهر** قام سوسير بإنجاز دراسة حول الملحمة الجرمانية (*les Nibelungen*)، كما اجتهد في أبحاثه حول الشعر اللاتيني، وقلب الحروف الهوميرية؛ باختصار، نلاحظ أنه تجاوز بكثير مجال النحو الضيق.

2. اللسانيات السوسيرية الجديدة وعلوم الثقافة

تعرض حقل اللسانيات إلى حال من التوسع والتشتيت ثم تكللت بعض الجهود بمشروع إعادة توحيد تخصصات اللسانيات، مما أسفر عن نتائج عديدة في علوم الأديان، في أعمال دوميزيل على وجه الخصوص، وفي الأنثروبولوجيا مع ليڤي-ستروس، الخ، ولكن هذه العمليات التوحيدية تعتبر ضرورية اليوم في اللسانيات نفسها، ذلك أننا نلاحظ أن خلق كيانات معرفية قد تضاعف بفعل تكاثر النماذج الجزئية: إذ إن علماء المورفولوجيا لا يريدون التخصص في التركيب، والتركيبيون بدورهم يتركون مجال المورفولوجيا. وهذه الأمور تدعو إلى ضرورة بلورة برنامج "التداخل المعرفي" بالنسبة للسانيات المجزأة إلى عدة تخصصات في"علوم اللغة".

---

[217] . لا أتحدث هنا عن الأنحاء المقولاتية التي تمزج بين هذه المقولات، ولكن من دون انتقادها.

[218] . تعتبر الكلمة أمرا خطيا متوافقا عليه ولم يتم طرحها إلا مؤخرا، والقضية مفهوم منطقي، لأنها تتعرض للاحتكام إلى قيمة الحقيقة.

يمكن القول إنه لا يمكن لاستخلاص نتائج اللسانيات السوسيرية إلا أن يكون سابقا لأوانه، ولكن تطوراتها الأساسية، مثل أبحاث هيلمسليف حول تشكيل طبقات اللغات أو أعمال كوسيريو التي ركزت على العلاقة بين اللسان والكلام؛ قد سبقت في مجملها نشر الوثائق الخطية[219]. ومن جهة أخرى، ارتكزت السيميائيات المنبثقة من سوسير على نموذج العلامة، الذي لم يستفد قط من المظاهر الأكثر حداثة في فكره.

إعادة البناء السيميائي لعلوم الثقافة.- في سنة 1963، وبمناسبة تخليد الذكرى الخمسين لوفاة سوسير، كتب إميل بنڤنست ما يلي: "للظواهر المرتبطة بالوسط البين-إنساني [...] خاصية مفادها أنها لا تستطيع أن تُحلَّل على أنها معطيات بسيطة، كما أنها لا تحدد بالنظر إلى طبيعتها ولكنها تعتبر دائما "مزدوجة"، بحكم أنها ترتبط دائما بشيء آخر، مهما كانت "مراجعها"؛ ولا تحدَّد الواقعة الثقافية على هذا النحو إلا لكونها تحيل على شيء آخر، وفي اليوم الذي سيتشكل فيه علم الثقافة، فإنه سيتأسس لا محالة على هذه الخاصية الأولية، وسيبلور ثنائياته الخاصة به انطلاقا من النموذج الذي طرحه سوسير بخصوص اللغة، من دون التقيد به بالضرورة. ولا ينفلت أي علم للإنسان من هذا التفكير في موضوعه ولا من وضعِه داخل علم الثقافة العام ، لأن الإنسان لا يولد في الطبيعة، ولكن في الثقافة (*PLG*, I, p. 44).

وفي الوقت الذي دعا فيه تيار "ما بعد البنيوية" إلى رفض كل مشروع علمي، لم يفقد رأي بنڤنست من وروده بالنسبة لكل علوم الثقافة، إذ إن السوسيرية تستأثر باهتمام مشروع علوم الثقافة حول الأنثروبولوجيا المقارنة ومقتضياتها النقدية، سواء الهيرمينوطيقية أو الفيلولوجية، وتسعى جاهدة إلى إعادة النظر في تعقيد الموضوعات، وذلك لأسباب عديدة:

(أ) إن علوم الثقافة هي مشروع وصفي يمتد من دراسة المجتمعات إلى الموضوعات الثقافية الفريدة. وفي كل ميادين التحليل، يكتسي مبدأ الاختلاف في السوسيرية أهمية كبرى على المستوى النظري والمنهجي، ذلك أن المعنى ينتج عن الاختلافات. فما الهويات إلا الرصيد المتبقي في الوصف، والتي تختزل في الواقع في الخصوصيات. وبناء عليه، حدثت قطيعة مستهلكة مع كل ما يمت بصلة إلى النزعة الماهوية.

(ب) إن لمفهوم **"الثنائية"** بعدا نقديا، بما أنه يحدث قطيعةً مع كل فكر أحادي التوجه، كما بعض الثنائيات السوسيرية تهم اللغات على وجه الخصوص ، ولكن أغلبها يملك مصداقية سيميائية عامة؛ وجوابا على متمنيات بنڤنست، بالإمكان بلورة ثنائيات أخرى، مثل تلك التي تجمع بين الفحوى والمدى.

(ج) وفي الأخير، تظل مسألة التعقيد التي أشار إليها بنڤنست أساسية، في حين أن السيميائيات الحديثة، المنحدرة من المنطق (منذ لوك وبورس ومونطاگ) انشغلت بتصنيف العلامات، ولكن من دون التخلي عن النزعة الماهوية الكلاسيكية.

ومن جهة أخرى، فإن **الكتابات** والتحليلات النصية المدونة في الدراسات حول قلب الحروف والأساطير الجرمانية تستطيع تجاوزَ فكرة أنه يتعين على السيميائيات أن تتأسس انطلاقا من نموذج العلامة، وأن تطور تصنيف العلامات. ويقود الاعتراف بالتعقيد الداخلي الذي يطال الإنجازات السيميائية إلى العلو من شأن مفهومي السيميوزيس والتحولات (المتامورفوزات، انظر أعلاه، الفصل السادس)؛ من أجل **اشتقاق** مفهوم العلامة والتحولات والوحدة بشكل عام، مع التركيز على الأطروحة التي تذهب إلى أن الوحدات النصية ليست بالضرورة

---

[219] . صدر مؤلَّف هيلمسليف *Prolégomènes à une théorie du langage* سنة 1943، أما *La stratification du langage* فقد صدر سنة 1954. والكتاب القيم الذي يحمل عنوان *Sistema, norma y habla* ، فيعود إلى كوسيريو الذي ألفه سنة 1952، وهو نقد وتطوير لمحتويات كتاب «**الدروس**».

وحدات مفصولة. وتمكن نظرية التحولات من الولوج إلى المتون: إذ إن التحولات داخل النص تعرف الاستمرارية، وذلك بالانتقال من نص إلى آخر. وفي المتون المتعددة المظاهر السيميائية تُظهر النصوص الاستمراريةَ مع الصور(مثل ما أوضحه بتفصيل بانوفسكي (Panofsky) في الإيكونولوجيا أو في الموسيقى)، الخ.

لكن لوصف الثقافات، نحتاج إلى تجاوز التصورات الأنطولوجية للعلامة، التي اقترحتها نظريات السيميوزيس. إن العلامات ليست بداية انطلاق التحليل، ولكنها نقطة الوصول، وبالضبط، هي لحظات استقرار في المسارات التوليدية لكل من التلفظ والتأويل. وفي الصيغة التي يقترحها هذا الكتاب، تجعل نظرية السيميوزيس السوسيرية من العلامة نتيجةً، ونقطةَ استقرار المسارات التلفظية والتأويلية.

وفي الأخير، ترتبط سيميائيات التعقيد بمسألة التفاعلات بين الأنظمة اللغوية داخل السيميائيات التوفيقية، ثم إن ثنائية الفحوى والمدى بالخصوص تستدعي تطورات داخل السيميائيات العامة، فيما يتعلق من جهة بالسيميائيات الخاصة وعلاقاتها بالممارسات الاجتماعية التي أنشأتها، ومن جهة أخرى، بالنظر إلى الروابط القائمة بين السيميائيات الخاصة؛ إذ من الطبيعي أن الوحدة السيميائية لا تعد وحيدة ولكنها توجد دائما في علاقة تفاعل مع وحدات سيميائية أخرى، وقد يؤثر فيها هذا التفاعل. مثلا، يتم تغيير نغمة الحوار المسرحي بواسطة الإخراج، ويتغير فهم النصوص الدينية بفعل الاستعمال الطقسي، وتتغير الصورة السينمائية بواسطة الموسيقى، الخ. غير أن كل وحدة سيميائية تستغل قدراتها التعبيرية والدلالية الخاصة بها، ويستقي الفنانون من بين الوحدات السيميائية العناصرَ التكميلية والمتناقضات، فيوظفونها، إن بين فحوى العلامات أو بين مداها.

توقعات.- وفي ضوء المتن المستعاد، تفرض عملية المراجعة العامة للفكر السوسيري نفسها اليوم، ليس من أجل إقامة أرثودوكسية غير ممكنة، لحسن الحظ، بما أن فكر كاتبنا يظل في إحدى نواحيه غامضا، ولكن من أجل الاعتراف به، واستغلال قوته وأصالته.

وعلى المستوى الفلسفي، كان سوسير سباقا إلى طرح تصور أصيل وقبلي حول الموضوعية، وهو التصور الذي يشهد بالقطيعة مع التقليد الأنطولوجي، بما أن طرحه العلائقي الصافي للوحدات يفرغه من كل جوهر. ومن جهة أخرى، حرر نظرية اللغة من مشكل المعرفة، بنفس الطريقة التي مكنته من التخلي عن المشكل المتافيزيقي الذي ربط بين الكلمات والأشياء؛ فإذا كنا نرى عند سوسير عناصر تعود إلى نظرية المعرفة، فإنه يبتعد عن التقليد العتيق والمعاصر بواسطة مقاربة غير معرفية. وفي الأخير، طرح مشكل الأخلاق العلمية الصارمة إزاء الكل، وقد كانت من دون شك السبب في ثنيه عن نشر أعماله التي كان يعتبرها غير ناضجة.

وعلى المستوى الإبستيمولوجي، كان سوسير يتميز بسعيه الحثيث إلى إيجاد منهجية خاصة تساعده على القيام بعملية تأسيس، مرتكزةً على تحديد الثنائيات الكبرى التي تعتبر محاور لوصف وتحليل موضوع خاص؛ وبذلك ابتعد عن نماذج العلوم المنطقية-الصورية، مثل نماذج الطبيعة والحياة، وساهم بهذا العمل في توضيح الوضع الخاص الذي يميز علوم الثقافة[220]. وهكذا امتنع سوسيرعن تبني كل تصور اندماجي متعلق بالتداخل المعرفي، إذ بتسطيره ومراجعته الحدود، قام بتطوير التداخل المعرفي أكثر من قيامه بتصفح تخومه، حتى لو

[220] . يتمثل مشكل وضع علوم الثقافة في كونها علوم تعتمد على الهيرمينوطيقا والبعد التاريخي في تناول الموضوعات، كما أنها تعتمد على مناهج العلوم الطبيعية. وعلى المستوى الإبستيمولوجي، اعتُبرت علوم الثقافة هيرمينوطيقا تاريخية وتكثلا معرفيا يهدف إلى مقاربة الأشكال؛ وفي هذا السياق افترض كاسيرر في كتابه *منطق علوم الثقافة* أن لها منطقها الخاص. للمزيد من التفاصيل، انظر الخطاب 2017، الفصل الأول (المترجم).

كانت معرفية. وعلى الرغم من غياب المظاهر الإبستيمولوجية في كتاب «**الدروس**»، فإن كُتابا من قبيل ليڤي-ستروس أدركوا رهاناتها[221].

وفي الوقت الراهن، أصبحت إعادة التأسيس السيميائي للسانيات والمراجعة الإبستيمولوجية المصاحبة لها أكثر نضجا من حيث التصور، لأن اللسانيات وجدت نفسها في مواجهة متطلبات اجتماعية جديدة. وفي سعيها إلى البحث حول سبل ربط علاقة جديدة مع المنحى الأمبريقي، تعالج لسانيات المتن أساسا النصوص الرقمية؛ لكن هذه النصوص، والنصوص المترابطة على وجه الخصوص، تتسم **بالتعقيد السيميائي**، إذ تتضمن الأمور الآتية: خط النص، وشفرة هوطمايل (html) المتنوعة، والألوان، والصور، والتنقيط السمعي، الخ، وكل هذا يفرض تطوير البحث السيميائي. ومن جهة أخرى، تمكنت لسانيات المتن من وضع **روابط غير مدركة** بين مستويات التحليل التي كانت إلى يومنا هذا إحدى المكوّنات الأساسية لموضوعات دراسات متفرقة (مثل الترابط القائم بين الفاصلة المنقوطة والمضارع في متن الروايات).

لذا يجب بلورة نظرية تهم **السيميوزيس النصي**، الذي لا يعد تمددا في مجال اللسانيات، ويلعب دورا مركزيا، لأن النص (المكتوب والشفوي) هو الوحدة الصغرى للدراسة ولا يعد الوحدة الأساسية. ومن جهة أخرى، يحدد السيميوزيس النصي سيميوزيس الدرجات السفلى ويُمَكن من طرح تصور قائم على وحدة المضمون والتعبير[222]. تبدو اللسانيات السوسيرية المستحدثة في الوقت الراهن المعرفةَ الوحيدة الكفيلة بمعالجة هذه الظواهر المعقدة، بالارتكاز على السيميائيات وبطرح ثلاث عناصر تكميلية عامة، وهذه العناصر هي كالآتي : (أ) عناصر تكميلية مرتبطة بمستويات اللغة والوصف (من الترقيم والتطريز إلى الدلالة)، (ب) عناصر مرتبطة بدرجات التنظيم والتعقيد: من الكلمة إلى المقطع، ثم إلى النص وإلى المتن، (ج) عناصر تشير إلى أنظمة العلامات المستعملة في الوثائق المتعددة المظاهر السيميائية، وفي مقدمتها النصوص المتعددة الوسائط.

كما مكنت المقاربة السوسيرية الجديدة التي تتطور حاليا في لسانيات المتن[223]- بفضل معالجة المستوى السياقي والنصي وتداخل النصوص- من الإجابة على الطلبات الاجتماعية المتعددة التي تهم في الوقت الراهن الوثائق الرقمية، في حين فشلت اللسانيات الصورية في المعالجة الآلية للغة (أنظر راستيي، 2011).

ويعتبر فكر سوسير محفِّزًا على البحث سواء باقتراحاته أو بأعماله غير المكتملة. وفي بعض المجالات، مثل الدلالة، تبقى الإشكالية التي تُستلهم من أفكاره السبيلَ الوحيد لموضعة المعنى اللغوي، في استقلال عن

---

221. كتب گريماس مرتكزا على أعمال ليڤي-ستروس وميرلو-بونتي (Merleau-Ponty) ما يلي: " أعتقد أن أصالة مساهمة ف. دي سوسير تتمثل في تحويل نظرة للعالم خاصة به- والتي تستند إلى إدراك العالم وتصوره على أنه شبكات واسعة من العلاقات، مثل هندسة أشكال مثقلة بالمعاني، وحاملة في ذاتها لعدة معاني- كما تتمثل في طرح نظرية ومنهجية لسانية [...]، وقد عرف كيف يختبر القيمة الإبستيمولوجية لفرضيته، وذلك بتطبيقها على علم من العلوم الخاصة بالإنسان، وهو اللسانيات" انظر *L'actualitédusaussurisme* (1956), in *La mode en 1830*, Paris, PUF, p. 372).

222. لاحظ سوسير ما يلي:" يصطدم الشروع في تصنيف الظواهر اللغوية بمشكل عدم تصنيف الموضوعات المتزاوجة والمتباينة (العلامات-الأفكار) كما هو مفترض عند القيام بتصنيف الموضوعات البسيطة والمتجانسة، وسيكون الأمر كذلك لو أننا أقدمنا على تصنيف العلامات أو الأفكار. هناك نحوان، نحو ينطلق من الفكرة والثاني ينطلق من العلامة؛ والاثنان معا خاطئان أو ناقصان " (*ELG*, p.20). للمزيد من التفاصيل، انظر راستيي، المرجع نفسه، 2004.

223 . لسانيات المتن : على علوم وفنون النص أن تواجه الصعاب المنهجية التي تطفو حينما ندرس الوثائق الرقمية، ولهذا الغرض ينبغي تطوير لسانيات المتن؛ لقد كانت مركزية اللغة في البحث الثقافي فرضية صائبة لأنها تربط النصوص بوسائل الاتصال الحديثة، وأصبحت النصوص الرقمية تقرأ في الشبكات العنكبوتية. ولتحقيق هذه الأهداف، يتعين تطوير الفيلولوجيا الرقمية والهيرمينوطيقا، واستحضار منهجية اللسانيات التاريخية والمقارنة التي تطبق على النصوص الرقمية. ويفترض راستيي (2013، 2014) أن هذه المعايير المنهجية صالحة لجميع علوم الثقافة (المترجم).

تمثيلات المتكلمين الذهنية، المتغيرة والمتلاشية، والمعتبرة بوصفها مراجع مزعومة؛ إذ إن هذه المراجع ليست سوى أحكام مسبقة مجهرية للأنطولوجيا المرتبطة بفلسفة الجوهر والهادفة إلى تحقيق "المعنى الصائب". وبعد عشرات السنين من البحث الخاضع للتمويل، ظلت الدلالة المنطقية، على الرغم من كونها مناسبة للغات الصورية، غير قادرة على وصف اللغات والنصوص، وغير قادرة على حساب تغيرات التواردات، كما أنها لا تملك الوسائل الكفيلة بحل مشاكل الاطراد الموضوعاتي، وبصورة أقوى، لا تستطيع معالجة التغيرات الدلالية بحسب الخطابات، والأجناس الأدبية، والأساليب.

ونطرح السؤال: هل من الواجب وصف عوالم أخرى، عوالم التمثيلات الذهنية أو تمثيلات الفيزياء الساذجة، لكي نتمكن من دراسة المعنى؟ والجواب هو أن إلحاق الدلالة بالمنطق أو بالسيكولوجيا المعرفية إجراء من شأنه أن يكرر ما كان متداولا منذ آلاف السنين، وهو أن اللغة أداة (والحقيقة أنها أداة معيبة) للفكر.

ويمكن للسوسيرية مع ذلك أن تزيح كمًّا هائلا من الأحكام المسبقة ومشاكل وهمية تهدد اللسانيات إذا ما تكررت بصورة غير نقدية. ونورد في هذا الشأن ثلاثة أمثلة:

(أ) في الميدان المزدهر المتعلق بالرقمنة الدلالية الحاسوبية، نرى أن الدلالة، المستندة إلى التوجه المنطقي الخالص، هي دلالة لغة المحمولات الأولية أو ما يسمى اختصارا (RDF)[224]، وتتحقق الإحالة على كل موضوع بواسطة مساعد تعيين المعلومة الرقمية[225](URI) الذي يمكّن من العثور على موضعه في الشبكة. ويستخدم كل موضوع بوصفه اسم علم تتحقق إحالته بصفة صارمة بواسطة رابط، مثل ما كان رائجا في الماضي، حيث كان النموذج المثالي للذهن يضمن الإحالة الصحيحة لأفكارنا.

غير أن نظرية سوسير حول ثنائية الدال والمدلول (التي أسهمت في تأسيس السيميوزيس) قد تتطور للكشف عن مظاهرها الإيجابية. مثلا، تخلت "الأنحاء التكوينية"، التي تطورت في اللسانيات المعرفية منذ 15 عاما والى حدود اليوم، عن التفكير الثنائي التقليدي لكي تهتم بالسيميوزيس، لأن البناء اللغوي ساهم في الربط بين التعبير والمضمون.

(ب) في لسانيات المتن، تم تجاوز النظريات الحاسوبية المنبثقة عن النظرية الشومسكية، الجزئية والمحلية، المرتبطة بالبنيات النحوية، عندما بدأت الأبحاث تولي اهتماما للمعلومات التي تفوق الكلمات/المفاتيح؛ ولكن إشكالية تعريف الوحدات السياقية والنصية والمستلهمة من كتاب "**الجوهر**" مثل المقطع؛ تستطيع تحقيق نتائج جيدة، لأنها لا تفترض ذاتية الوحدات، وتسلم بوجود وحدات غير مفصولة أوغائبة (بالمقارنة مع الفقرات والنصوص المنتمية إلى نفس المتن، انظر راستيي، 2011).

(ج) وأخيرا، يفرض التكاثر الذي تشهده الوثائق المتعددة الوسائط توسيع نطاق التفكير السيميائي، وذلك بنهج تصورغير-جوهري يتجاوز تصنيف العلامات بواسطة القنوات الحسية أو "المُوَجّهات"، ويبدو أنها مثمرة. وستجد الإنسانيات الرقمية التي يدعو إليها أصحاب القرار في هذا التوجه العلمي برنامجا نظريا قابلا للتطوير.

وهكذا، وبدون إهمال المشاكل المرتبطة بنوع النصوص أو المشاكل المتعلقة بتاريخ الأفكار اللسانية، سيسمح التفكير المقدم بخصوص مشروع سوسير من إعادة صياغة الشروط العلمية لحقل اللسانيات وتوسيع نطاقها، وذلك

---

[224] . تشير الحروف اللاتينية المختصرة RDF إلى الإطار الخاص بوصف الموارد الإلكترونية (Ressource Description Framework).

[225] . مساعد تعيين المعلومة الرقمية (Unique Resource Identifier). أما عنوان الموقع أو الرابط في الأنترنت (URL) فهو صنف من أصناف تعيين المعلومة الرقمية (URI) وهو الأكثر رواجا.

بالالتزام ليس فقط بتعميق الروابط بين الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا، ولكن أيضا بتطوير مستلزماتها الثقافية، والعمل على انفتاحها على مجالات تطبيقية جديدة.

يتصف الوقت الراهن بموجة إعادة قراءة أعمال سوسير، التي تستدعي تمديد متنه، كما يتميز بإيلاء الأهمية لفكره الذي لقي إقبالا بسبب الإفلاس النظري والتطبيقي لنحو شومسكي، وبسبب الضعف الوصفي للنظرية المعرفية والتحليل الخرافي الملاحظ في التداوليات العادية. وهذا ينبئ بإعادة الاعتبار لفكر سوسير وبروز طفرة جديدة للسانياته. وإذا ما لم نقم ببذل ما يكفي من الجهد لقراءته مع تجاوز النسخة الأصلية، بدعوى عدم معرفة طريقة إعادة الرهانات الأساسية لفكره، فإننا لن ندرك التأسيس الجذري لفكره؛ أو بدعوى أننا لم نمتلكه بطريقة تمكّننا من نقده وتجاوزه، إذ إن الرجوع الحقيقي إلى الوراء يقود لا محالة إلى الأمام.

إن وضع اللسانيات قد تغير كثيرا منذ قرن، وتفاقمت على الخصوص منذ عشرات السنين الصعوبات الإبستيمولوجية التي أحاط بها سوسير، وتطرح أيضا في الحاضراستنادا إلى ملاحظة گريماس الثاقبة في مقاله "راهنية السوسيرية "، بحيث وصفها بأنها "فاقدة للمدى وللمشروع". وحاليا، تحتفظ الإشكاليات المهيمنة، أي إشكاليات المعرفة وإشكاليات التواصل، بالأسس الخارجية للحقل اللساني؛ وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار مكتسبات اللسانيات التاريخية والمقارنة، فإن هذه الإشكاليات تستند بصورة صريحة إلى فلسفة اللغة الأنگلوساكسونية، التي ما زالت مرتبطة بالسيميائيات الهشة المنحدرة من الوضعية المنطقية، وهذا ما يفسر التمسك بالتفرقة بين اللغة والفكر، وبالتصور الأداتي للغة، وعدم إدراج البعد التاريخي في دراسة اللغات، ومبدأ الكونية.

لكن هناك تيارا يتطور حاليا وينزع نحو إعادة قراءة المتن السوسيري، في تجمعات أكاديمية مثل *Text Encoding Initiative* و*Digital Resources for Humanities and Computer*، وفي مختلف التكتلات العلمية التي تدرس الوثائق والمتون الرقمية والمتعددة الوسائط (أنظر الكاتب، 2011). وتجد هذه الأبحاث في التكتلات أساسا سيميائيا لأبحاثها، وفي ثناياها وجد بعض اللسانيين في عمل سوسير توليفا لمواقف تساعد اللسانيات على تحديد موضوعها ووضعها العلمي، وتضطلع في الوقت نفسه بقياس مداه وصياغة مشروعه.

وبناء عليه، يساهم التجديد الذي يشهده الفكر السوسيري في تأكيد مبادئ اللسانيات التأسيسية التي تميزها عن المعرفة أو التواصل باعتبارها حقولا معرفية منافسة، ويتجلى التجديد على الخصوص في التخلي عن المرجع لصالح مفهوم القيمة، وتميزها عن ثنائية اللغة والفكر لصالح نظرية السيميوزيس، والابتعاد عن اليقينيات لصالح نظرية الثنائيات، وأخيرا بإمكانها الاهتداء إلى تحديد صائب للعلاقة بين اللغة، واللغات، والأنظمة العلاماتية الأخرى، وكل هذا يمهد لترسيخ برنامج علوم الثقافة.

ملحق

السيميائيات وفلسفة اللغة

نسعى من خلال هذا الملحق إلى توضيح الخلفية التاريخية والإبستيمولوجية التي كانت وراء التصورات السيميائيات التي قمنا بتطويرها في ثنايا هذا الكتاب.

1. توقعات فلسفة اللغة

التقليد المنطقي-النحوي.- كان النحو الذي سبق اللسانيات بآلاف السنين مبحثا مدرسيا بالأساس، تتمثل مهمته في تهيئ الأرضية لتطوير المنطق ثم البلاغة. وأضيفت النظرية الأنطولوجية لأقسام الخطاب والإسناد إلى التمييزات المنطقية-الأنطولوجية القائمة بين الجواهر والعوارض (فالصفة مثلا توسم عوارض الجوهر) وإلى نظرية القضايا (وهي قاعدة القياس المنطقي). وفي النحو، كانت ممارسة **التحليل المنطقي**، التي كانت تُدرّس إلى حدود الستينيات، تشهد بهذا التعاون.

وفي وقتنا الحاضر، يدرّس النحو في المرحلة الابتدائية والإعدادية، أما اللسانيات فلا تخضع لعملية التدريس إلا في المرحلة الجامعية، وبطريقة اختيارية في فرنسا. ولم يكن لها تأثير كبير على الأنحاء المدرسية. وخضع هذا التقسيم للتمديد بفعل تكوين الأساتذة بعد مباريات التوظيف؛ وهكذا، عندنا في فرنسا نظام التبريز في النحو، ولكن نفتقد لنظام مماثل في اللسانيات، بما أن التبريز قد أسس في عهد لويس الخامس عشر من أجل سد الفراغ الناتج عن طرد اليسوعيين، أي خمسين سنة قبل تكوين اللسانيات بوصفها علما.

ونظرا لأصله المدرسي والديداكتيكي، جعل النحو من التركيب مركزه المنظِم، غير أن هذا الأخير يظل ثانويا بالنسبة للسانيات، بالرغم من أهميته؛ إذ لا يعدو أن يكون مجرد مستوى تنظيمي لدرجة تعقيد وسيطة، متمثلة في الجملة. وتظل التطورات التي عرفها النحو محدودة، على كل حال، حتى في الحالة التي يجري فيها هنا وهناك إقحام مفاهيم منحدرة من فلسفة اللغة، مثل مفهوم "الفعل اللغوي" أو "التلفظ".

وبحسب سورل (2012)، قامت فلسفة اللغة على يد فريجه الذي عمل على تجديد المنطق، من خلال التركيز على منطق الطبقات بدل المحمولات، وباقتراح الصورنة المنطقية؛ غير أن إشكالية فلسفة اللغة تعود إلى الأنحاء التأملية في المرحلة السكولائية بفضل ترجمات رائعة قام بها كل من ستيوارت ميل وبورس: بحيث طورا على الخصوص فلسفة الفكر، ونظرية المعرفة (وكلمة "معرفة" تعود إلى هذه المرحلة)، كما طورا نظريات المرجع، ونظرية متطورة جدا تهم فلسفة اللغة، لأنها مرتبطة بالمقدسات.

ولا يعير النحو وفلسفة اللغة أهمية قصوى للأصوات اللغوية، إذ يكتفي النحو على أعلى تقدير بالجرد، وكان يفضل الكلمات الخطية، ووفاء لاسمه، ظل مبحثا خاصا بالحرف، ووصل به الأمر إلى رفض التأويل. وكان

يعتبر إذن "الجذور" وحدات تعبر عن الجواهر، ويصف الحالات الإعرابية والزوائد على أنها وحدات عاكسة للعوارض (اشتق مصطلح cas من كلمة casus، ويمكن ترجمته على هذا الأساس). إن الحظوة التي تتمتع بها الكلمة تؤمّن العلاقة بالأنطولوجيا، كما تتجلى في جرد أقسام الخطاب، والمنظمة بفضل التصنيف المرجعي الذي يميز منذ بريسيان بين الوحدات المقولاتية والمقولات داخل السياق ("وهنا نحيل على "كلمات الخطاب" المكتشفة من قبل ديكرو (Ducrot)، لكي يؤكد مثلا أن الأسماء تمثل الأشياء والأفعال تمثل الحركات (انظر شارودو، 1992، ص21).

ومقارنة بالتفكير النحوي والفلسفي العتيق، ابتكرت اللسانيات التي تكونت بوصفها علما في بداية القرن التاسع عشر، مفهومين معرفين بدقة كبيرة، هما **الفونيم والمورفيم** اللذان مكنا من تطوير الدراسات في اللسانيات المقارنة. وبعد قرنين، ما هي حالة برنامجها؟

تتموضع اللسانيات في الوقت الراهن بين نحو عمّر لسنين عديدة وفلسفة اللغة التي استندت لمدة طويلة إلى نظريات تأملية للفكر؛ بالفعل، لا يخاطب النحو وفلسفة اللغة الجمهور نفسه، ولكن سنرى أنهما يطرحان التصور نفسه حول اللغة، وهو التصور غير المستشكل والذي ابتعد عنه سوسير بشكل ملحوظ.

فريجه والاتقان.- إذا ما تركنا جانبا التناقضات الحاصلة بين سوسير وشومسكي، نصادف بصورة أوسع صراعا بين اللسانيات وفلسفة اللغة ذات التقليد الفريجي. إننا لا ندعي هنا سرد تاريخ هذه المعارف، لكن يتعين علينا التذكير ببعض المعالم، ففريجة يعتبر بالإجماع بأنه مؤسس فلسفة اللغة، إن لم يكن شيخ التيار الذي قاد إلى راسل وڤيتگنشتاين، ثم إلى أوستن وتلميذه سورل؛ وقاد أيضا إلى كارناب، تلميذ فريجه، مع العلم أن كارناب كان له الفضل في توجيه أبحاث شومسكي.

أسس فريجه المنطق الصوري ذي القاعدة الماصدقية والهادف إلى معالجة القضايا المنطقية، وليس الجُمل المتلفظ بها[226]؛ فالمعايير المستعملة ليس لها ركيزة لغوية، ونعلم أنه قد شكل المشروع الإيديوغرافي أو "اللغة المُشَكِّلة للفكر الخالص"[227]، أي اللغة الصورية المعروفة باسم **الإيديوغرافيا**. وتجدر الإشارة إلى أن اللغات لا تبقى كليا خارج نطاق النظرية، لأن تحليل اللغات الصورية يعود بالنفع عليها، وهذه هي الأطروحة التي ألهمت بدايات الفلسفة التحليلية، والتي احتفظت مع ذلك بنجاح قار، بدءا بشومسكي (الذي يرى أن الشكل المنطقي، وهو نوع من لغة المحمولات من الدرجة الأولى يمثل بصورة ملائمة مضمون الجُمل) وصولا إلى مونطاك (الذي قال إن **الانجليزية تعد لغة صورية**)، بل وصولا إلى كامب (Kamp) وأشير (Asher) في ما يتعلق بنظرية التمثيلات الخطابية.

ساهم فريجه في تطوير فلسفة الرياضيات، ولكن إذا اعتبرناه مؤسسا لفلسفة اللغة، فإنه يتعين علينا أن نسلك طريقه، أي افتراض أن التنظير للغة الصورية صالح بالنسبة للغات- وبالنظر إلى أبعد من ذلك، يتعين علينا افتراض أن المنطق الصوري هو *اللغة* المعالجة لكل الواقع، بما أن موضوعها هو الكون الثابت والمكون من كل ما هو موجود. وقد تعرض هذا الموقف المتشدد حاليا للنقد من قبل كُتاب مثل إنتيكا (Hintikka)، الذين يعرّفون المنطق على أنه حسابات ويرفضون الأطروحة القائلة بأنه أورغانون الهدف منه قول الحقيقة بخصوص الكون. وأعاد فريجه في مجال اللغة (بالمفهوم غير الصوري) المفارقات حول المرجع، وهي المفارقات التي تؤسس إحدى الرهانات الجامعية التقليدية المتعلقة بدروس الديداكتيك المنتسبة إلى القرون الوسطى؛ وهكذا، تمحور "لغز

[226] . مثلا، شك فريجه في أن أوليس اسم يمتلك دلالة إشارية (1971، ص108).
[227] . انظر توطئة *Begriffsschrift*، ص 3.

فريجه" الخاضع دوما للتعليق حول التماثل عند هيسبيروس (Hesperus) وفوسفوروس (Phosphorus)، من خلال مقولة "نجمة المساء ونجمة الصباح". فمن وجهة نظر لسانية، يتعلق الأمر بمشكل خاطئ، ونعلق عليه بما يلي: أ) بما أن التماثل والمبهَم غير مصادق عليهما داخل المتن الواجب وصفه، فإن المسألة تظل عبارة عن شيء مصطنع؛ ب) التعبيران مختلفان، وينتميان إلى طبقات لغوية كبرى مختلفة.

أنشئ المنطق لتخليص اللغات من العيوب، وليس من أجل أن يكون أداة عاكسة لخصوصياتها التي تبقى على كل حال غير شفافة. ومع فريجه، تحرر المنطق من العبارات اللغوية التي ظلت ماثلة في الأمثلة المرتبطة بمنطق الطبقات. وبما أنه لا يوجد نظام لغوي بدون لغات، فإن نظرية فريجه لا تختلف جذريا عن التصور الصوفي القاضي بطرح نوع لغوي يكون فوق اللغات، وإليه نلتجئ لقول الحقيقة. وبناء عليه، لا يقدم هذا التصور شيئا بشأن معرفة اللغة، ولا تعكس أطروحاتها الخاصة في هذا الموضوع، غير أن الفلسفة غير الانعكاسية تشبه كثيرا الإيديولوجيا.

وكان لهذا التصور اللغوي تاريخ طويل منذ بابل، وبتجاوزه للغة الداخلية (الخطاب الداخلي عند الرواقيين) تحيل لغة القلب بتعبير سان أوغوسطين (*De trinitate*, XV,c. 10, §19) على الكلام الإلهي الموجود بداخلنا والمستقل عن أية لغة، وهو الكلام الذي لا زال يسميه ألبير الكبير(Albert le Grand) وألكسندر دي هاليس (Alexandre de Halès)" *الكلمة التي تحيل على الشيء"* لأنه يعكس حقيقة الأشياء مباشرة. وللتذكير، فقد سماه طوماس داكاه أيضا "لغة العقل" أو "لغة الفكر"، وفي **De verbos** (كما في *Contras* VI, c. 11 *gentiles*) نراه يشير إلى التشابه الحاصل بين الفكرة والشيء، ويقترح مرجعا يجمع بين التصور والشيء، ويؤكد ما يلي : " اللغة هي الوسيط بين الخالق والكائنات المخلوقة"[228].

وستظل تيمة اللغة المتعالية حاضرة في نظريات اللغة الكونية، لغة بيكون (Bacon) ولغة ليبنتز على حد سواء. وغالبا ما تأخذ بعدا باطنيا عند كتاب مختلفي التوجه مثل جاكوب بيهم (Jacob Behme)، وجوهان جورج هامان (Johann Georg Hamann)، وصطيفان جورج (Stefan George)، ووالتر بنيامين (Walter Benjamin)؛ وستجسد- بصورة مفارقة- موضوع الفخر عند هايدگر، الذي يعتقد أن اللغة الألمانية هي "لغة الوجود".

وبعد اختفاء الوجود المتعالي، طرأ تحول على مستوى اللغة المتعالية. ومع صورنة المنطق وبلورة الصيغة الفلسفية للقضايا اللسانية (le *linguistic turn*)[229]، يعرف الفيلسوف الكيفية التي يتم بموجبها تعويض الخالق، وذلك بخلق لغة مستقلة عن اللغات وساعية إلى الإشارة الصافية للكائنات. فالمؤلفات التالية: *الإيديوغرافيا* لفريجه، و*Métalangage* لصاحبه طارسكي و*A-language* لكوري (Curry) هي أشهر هذه الأنظمة اللغوية التي استمرت إلى وقتنا الراهن.

واستنادا إلى النموذج الفريجي، كما هو مطروح في الصيغة المستمدة من صورنة المنطق، مثّل الثلاثي السيميائي المقترح سنة 1939من قبل موريس وكارناب الأساسَ لتقسيم علوم اللغة إلى ثلاثة حقول معرفية هي التركيب والدلالة والتداوليات: فالتركيب صوري (بالصورة التي طرحها شومسكي، مع الإشارة إلى أن نظرية

---

[228] Art. 1, §3., *Questions disputées sur la vérité, IV. Le verbe (de verbo),* Paris, Vrin, 1992 .

[229] . يعود مصطلح *Linguistic turn* إلى الفيلسوف الأمريكي ريشار رورتي (Richard Rorty) الذي قدم في كتابه *The Linguistic Turn. Recent Essays in philosophical Method* أطروحته الشهيرة ومفادها أنه لا يمكن التفكير في التجربة وعلاقتها بالواقع خارج التوسيط اللغوي، ونشير إلى أن هذه المقولة لا تعبر عن تيار فكري واضح الأسس والمعالم، ولا ترتبط بمدرسة قائمة الذات (المترجم).

الأنحاء التي أعاد صياغتها تجاور نظرية الإنسان الآلي الواردة ضمن نظرية اللغات الصورية)، وتستند الدلالة بالأساس إلى الماصدق بواسطة الإشارة المباشرة إلى الأشياء المعينة؛ لكن إذا كانت التداوليات قد ادعت هي الأخرى الصورنة، فإنها تستمد مقوماتها من تيار آخر ضمن فلسفة اللغة.

وفي الواقع، استطاع الباحثون إقامة مقابلة بين التيار المنطقي-الدلالي المنحدر من فلسفة اللغة، والممثل بفريجه وراسل وكارناب ، بل وحتى مونطاك وكريبك، وتوصف في بعض الأحيان على أنها "فلسفة اللغة المثالية"، والتيار التداولي الممثل على الخصوص بآخر تلامذة ڤتگنشتاين، ونقصد رايل (Ryle) وأوستين وستراوسن وگرايس وسورل، ويوصف هذا التيار على أنه يمثل"فلسفة اللغة الطبيعية".

ها نحن إذن أمام مفهومين للإحالة على اللغة، فهناك اللغة المتعالية للمعرفة واللغة المحايثة التي تحيط بنا، أي اللغة العادية المستعملة للتواصل، بحيث تجسد الصنف الأول من اللغة في النظرية المعرفية من خلال النحو الكوني، الذي يعد متعاليا، لأنه مستقل عن كل تجربة، وهو نحو مبرمج جينيا؛ أما الصنف الثاني، فإنه يرتبط بالحقول المعرفية المهتمة بالتواصل.

بعض أسرار اللغة الطبيعية.- تتمثل إشكالية التواصل أيضا، كما هي مجسّدة في التداوليات التي سلكت طرقا مغايرة لتلك التي سلكها فريجه، في اختزال اللغة لجعلها مجرد جهاز لغوي. وفي الحقيقة، كان موضوع هذه الإشكالية هو أفعال اللغة وليس تنوع اللغات (وقد قوبل مصطلح "أفعال اللغة" بالرفض والسخرية من قبل ديكرو). وتجدر الإشارة إلى أن المرجع الرئيس عند التداوليين في اللسانيات هو دجون أوستين الذي قدم سنة 1962 في الفصل الرابع من مؤلفه *Ecrits philosophiques* نموذجه الهادف إلى دراسة أفعال اللغة، موضحا بأنه ينطبق على **اللغة المبسَّطة** التي سماها "اللغة المثالية"،" بعد كل من راسل وڤتگنشتاين، لأنه يفترض أن"اللغة الواقعية لا تملك إلا القليل من المواضعات الصريحة، بل ولا تملك أيا منها، ثم إن مجالات تطبيق قواعدها غير محدّدة بدقة، ولا توجد حدود صارمة تفصل بين الدلالة والتركيب" (1994، ص35). انطلق الكاتب إذن من نموذج تبسيطي لحالات كلامية، (So) " لا تسمح إلا بتلفظات يعبر عنها بالصيغة التالية "*E est un T*" (1994، ص114)، وفيها نلاحظ استناده إلى القضية الإسنادية الأساسية التي تعود إلى منطق الطبقات الأرسطي الكلاسيكي، الذي تجاوزه فريجه. أضف إلى ذلك أن هذا التفكير التبسيطي ذي النزعة الأنطولوجية مقترن بخاصيتين هما النزعة المثالية والتبسيط.

تجسد "اللغة الطبيعية" تبسيطا معياريا للموضوع، وهذا من دون شك ما جعلها توصف بأنها متقنة: "اللغة الطبيعية متقنة" (ڤتگنشتاين، 1996، ص85)[230]. وبموازاة هذا، كتب أوستين بخصوص الدعابة والشعر ما يلي: " هناك استعمالات طفيلية في اللغة، استعمالات غير جدية، ولا تدخل في إطار الاستعمال الكلي والعادي للغة"[231]. في الواقع، تابع الكاتب حججه قائلا إن المرجع يتعرض للتعليق؛ ولا يوجد فعل إنجازي نموذجي" ولا توجد إرادة تجعلكم تقومون بإنجاز شيء ما، وعليه تتعرض نظرية الاستعمال اللغوي ونظرية الاستعمال النفعي والوظيفي الملهمة لها للدحض. وكان ستراوسن من جهته يسلم بأن الأشعار الهوميرية واهية، لأننا لا نستطيع إسناد قيمة الحقيقة لملفوظاتها، وهذا ما لاحظه فريجه قبله.

ومن الواضح أن ثنائية اللغة/الفكر حافظت على ثنائية المحسوس /المعقول؛ وعلى الرغم من أن هذه الفرضية، أو هذا الحكم المسبق، يُكوِّن الأساس للتوازي المنطقي-النحوي العتيق، فإنه لا شيء يسمح بالتأكيد على

---

[230] . يجب أن يقرأ هذا التصريح على أنه نقد ذاتي للتصور اللغوي المقدم في *Tractatus logico-philosophicus*.

[231] . يتعلق الأمرباستعمالات طفيلية للغة، "استعمالات غير جدية"، قليلة المطابقة للاستعمال الكلي العادي" (1962، ص 104).

استقلالية ووحدة الفكر، أو بالأحرى استقلالية ووحدة اللغة. ومهما يكن، حينما أصبحت هذه الموازاة إشكالية، أعادت فلسفة اللغة ذات التقليد الفريجي إلى الواجهة حرب العمالقة؛ إذ كان على الفكر أن يدافع عن نفسه ضد الإغراء الخادع للغة، وتجذر الإشارة إلى أن فريجه قد تحدث في توطئة كتابه **الإيديوغرافيا**[232] عن "هيمنة الكلمة على الفكر الإنساني"، وحتى فتگنشتاين أكد الشيء نفسه حين قال:"الفلسفة صراع ضد سحر فهمنا بواسطة موارد لغتنا" [233]. وتابع فريجه وصفه لهذا الصراع الذي يتمثل في المواجهة بين الفهم واللغة الطبيعية، الساحرة الفاتنة التي تملك غواية الشِعر، مثل المساحيق والصباغة، إذ يقول: "أسَمِّي كل شيء يُزَين مضمونَ جملة تلويناً للفكر" (1979، ص198). وبواسطة الشعر، تستخدم اللغة أدوات أخرى للإغواء: "ما نسميه النغمة، والعطر، وإضاءة الشِّعر، وهذا اللون الناتج عن الانقطاع في شطر البيت وعن الإيقاع، لا شيء من كل هذا ينتمي إلى الفكر" (فريجه، 1971، ص 177). بالفعل تنصَّلت اللغة الطبيعية من الزخارف الخادعة[234]، ولكن هل يتمكن تحليلها من الإمساك بالفكر خاليا من المساحيق؟

إن خاصية تعدد الوظائف وابتذالها قد مكَّنها من مواصلة العيش من دون أن تُعرَّف؛ وعلى الرغم من أنها تتخذ وضعية اللغة التجريبية، فإنها لا تملك تعبيرا قابلا للوصف، بحيث إذا ما استعملت في الإنجليزية، فإنها تترجم بسهولة إلى الفرنسية وإلى اللغات الأخرى التي تنشر فلسفة اللغة الطبيعية. وهذه الأخيرة لا ترى أي تناقض في معالجة اللغة عامة، ومناقشة أمثلة مختارة من لغة ما، الإنجليزية في المقام الأول، بينما تشير الأمثلة المقدمة في فلسفة اللغة إلى لغة دون روابط ثقافية قابلة للتعيين، ودون دياكرونيا ودون تاريخ، كما أنها لا تشير إلى المتن ولا إلى التناص.

ولا تشتمل اللغة الطبيعية على **العمل الفني** (المنسوب إلى لغة الأدب غير الطبيعية) ولا تحيل على **النص** (في المقالات التأسيسية، نجد جُملا بوصفها أمثلة، ولكنها تكون في غالب الأحيان غير مصادق عليها، حتى ولو رأينا في التداوليات الحوارية نَسْخا لبعض المحادثات الحقيقية)، كما أنها لا ترتبط بال**وثيقة**، وهو مفهوم غريب عن الفلسفة التحليلية[235].

لذا فاللغة الطبيعية تعيد تزيين اللغة الراجلة العتيقة بلباس جديد وبسيط، أي اللباس المفضل عند النحويين في بداية الدرس المدرسي، بما أنهم كانوا يقومون بتعليم الصغار. وقابلها أوستين بالشعر الطفيلي، مثل ما قابلها الباحثون باللغة الطائرة، التي دُرست فيما بعد في أقسام دروس البلاغة؛ وتظل اللغة الطبيعية مختزلة: لا هي مكتوبة ولا شفوية، ولا تخضع للكتابة الفونيتيكية والتطريزية، ولا تأبه للتمييز بين الخطاب، والحقول النوعية، والأنواع، والأساليب.

وإذا ما قارنا متنا من "اللغة الطبيعية" مقتطفا من مؤلفات فلسفة اللغة، سنتعرف على نفس الأمثلة البسيطة التي توجد في متن أمثلة النحو، وهذا ما عالجته سيلين بودا (Céline Poudat) في أطروحتها (2006) وخلصت إلى ما يلي: فقر معجمي، ومورفولوجي واشتقاقي، والاعتماد على طول متوسط للكلمات، وطول متوسط

---

[232] . *Begriffsschrift* بالألمانية.

[233] . أنظر

Recherches,§ 109 : « Die philosophie ist ein Kamp gegen die Verhexung unseres Verstandes durch die Mittel unserer Sprach."؛ اللغة ساحرة بحق (*Hexe*) ، كما يشير إلى ذلك مفهوم *Verhexung*.

[234] . تستخدم كلمة *färbung* للإشارة إلى صباغة الشَّعر.

[235] . للاستئناس بالمفاهيم الحديثة في مقاربة راستيي، أنظر:

Driss Ablali, Sémir Badir et Dominique Ducard (sous la direction), *Documents, textes, œuvres*, Colloque de Cerisy, Presses Universitaires de Rennes, 2017, pp. 437-449.(المترجم).

للجُمل، وتفضيل الجمل الخبرية. وتجدر الإشارة إلى أن بعض التبسيطات المعيارية الجذرية تظهر من خلال المقارنة مع المتون الشفوية، مع انفصالها عن السياق، وبنيات "قوائمها"، وتصحيحاتها الذاتية، الخ.

وتظهر اللغة الطبيعية إذن على أنها شيء مصطنع معياري من ناحية النظرية المجسِّدة لفرضياتها، على الرغم من عفويتها المفترضة. ومثل ما هو قائم في المنطق وفي النحو المدرسي العتيق، تُختزل هذه اللغة في قائمة مختصرة ومكررة من الأمثلة غير المصادق عليها بطريقة ما أو بأخرى، وهي أمثلة لا توصف لذاتها، ولكن تستعمل لضمان العلاقة الوهمية بالتجريبي. وفيما يتعلق بالملاحظة، لخص أوستين ببراعة الخاصية النرجسية لهذه العلاقة كالآتي: "لنعتبر أولا بعض الحالات، وستكون الحالات الواقعية جيدة بطبيعة الحال [...] ولكننا لا نملك الزمان ولا المكان للقيام بهذا العمل؛ وبدلا من ذلك يتعين علينا تخيل حالات (ونتخيلها بعناية فائقة، وبتفصيل وعلى الوجه الأكمل) ونحاول التوصل إلى توافق حول ما سنقوله بخصوصها. وإذا توصلنا إلى هذا التوافق، فإننا سنتوفر إذن على معطيات (وهي معطيات "تجريبية" في الواقع)، وبعد ذلك سنواصل العمل **بشرحها**" (1994، ص231-232). وتنبثق هذه "المعطيات" التي تعد نتاجا صافيا للخيال والمقدمة بصورة غريبة على أنها "شاملة"، من رفض مدهش للواقع. وكان أوستين على حق حينما دافع عن التجريبية، غير أنه ظل حبيس تناقضاته المرتبطة بالتجريبية المنطقية، وحرم نفسه عن طواعية من البحث التجريبي ليتمكن منطقه الحجاجي من الاشتغال؛ وبإقدامه على التخيل الشامل للواقع، فإن دائرة التابعين تصبح إذن بالنسبة له مصدر كل معرفة تجريبية. وعلاوة على ذلك، تمحو هذه الفلسفة المطروحة على هذا النحو كل مقاربة علمية لكي تتخيل واقعا بديلا، وذلك ما تشهد به مثلا "تجاربه الفكرية".

رهانات تبسيط اللغة.- تمثل اللغة الطبيعية التي يزعم أصحابها أنها لغة الحياة اليومية من خلال أسئلتها (مثل الجملة: هل تستطيع إعطائي الملح؟) والجمل التأكيدية (مثل "أطلق اسم الملكة إليزابيط على هذه السفينة") تصورا نفعيا للغة، لكنه عملي بصورة خاطئة، وهو التصور الذي يتجسد من خلال الهيمنة النظرية لأفعال الإنجاز(انظر أوستين في كتابه **"كيف ننجز الأشياء بالكلام")**؛ ومن هذا المنظور، من الخطأ اعتبارها لغة عملية.

إن الفلسفة النفعية والتصور الأداتي للغة يُكوّنان جزءا متماسك العناصر، إذ جرى توطيد تحالفهما عن طريق الوضعية المنطقية التي أسسها كل من موريس وكارناب، حينما قاما بتقسيم البحث اللساني إلى تركيب ودلالة وتداوليات، وهذا ما مثّل عائقا إبستيمولوجيا قوَّض منذ ثلاث أرباع قرن تَطوّر اللسانيات؛ وما زلنا نجهل الجدوى من النزعة النفعية، الكثيرة الانتشار، غير أننا أحيانا نريد معرفة الجهة المستفيدة من هذا المنحى. والملاحظ أن الفلسفة النفعية والوضعية متطابقتان كليا مع التصور التقني-العلمي للعلوم الإنسانية على الخصوص، وهو التصور المتطابق مع مصالح النظام اللبرالي في الاقتصاد. وبتفضيله للتصور الأداتي في التواصل، اكتسح البراديغم النفعي ذو التقليد الأنجلو-ساكسوني الساحة اللسانية على المستوى العالمي، سواء بواسطة تكنولوجيا علوم التواصل أو بواسطة النزعة العلمية الهادفة إلى تطبيع العلوم المعرفية[236] .

وتجدر الإشارة إلى أن رهانات كبيرة معقودة على تبسيط اللغة. لقد جسدت الإنجليزية الأساسية المنحدرة من التخمينات حول اللغات المثالية أولا مشروعا استعماريا (افتتح أول معهد أورطولوجيا بشانگاي سنة 1937). وفي رواية **1984**، وفي سياق نقده للغة الجديدة، كان أورويل يستهدف الإنجليزية الأساسية: " لم تُبن اللغة الجديدة

[236] . أفرزت العلوم المعرفية **برامج التطبيع** ويقصد بها البرامج التي تهدف إلى جعل الأبحاث في الإنسانيات تتبنى مناهج وأدوات عمل العلوم الطبيعية. وتوطد هذا البرنامج مع التيار المعرفي في النصف الأخير من القرن العشرين، مع مفكرين من أمثال شومسكي في اللسانيات، وفودور في فلسفة الذهن، وزينون بيليشين(Zenon Pylyshyn) وسبيربر(Sperber) في الأنثروبولوجيا. ونشير في هذا الصدد إلى أن المبحث المفضل في هذه البرامج هو البيولوجيا التي ألهمت علماء اللغة؛ واستنادا إلى هذه المعطيات، طرح شومسكي فرضية أن على اللسانيات أن تنصهر في علم النفس وأن تندمج في ما بعد في البيولوجيا (المترجم).

من أجل التمدد ولكن لتقليص مدى الفكر، وقد ساعد التقليص إلى الحد الأدنى في اختيار الكلمات بطريقة غير مباشرة في تحقيق هذا الهدف" (1949، ص313)[237]. وقد يوضح هذا القول يوما ما أشكال التمثيلات الدلالية، فيما يتعلق "بلغة الذهن" التي يتحدث عنها المعرفيون، خصوصا مؤلف *Language of Thought* لفودور الذي سماها **اللغة العقلية** للإحالة على أوكام؛ وجدير بالذكر أن لغة الذهن هاته تتكون عند ڤييرزبيكا من عشرين مفهوما أساسيا. وهناك أيضا "الشكل المنطقي" عند شومسكي، والذي يتخذ شكل حساب المحمولات من الدرجة الأولى؛ ولكن هناك أمر آخر، ألا وهو شكل القضية في نظرية ڤان ديك وكانتش، ونشير أخيرا إلى مفهوم "اللغة الخاصة" عند التداوليين.

في الواقع، نلاحظ أن مختلف تحولات النظام اللغوي الداخلي محرومة من اللغة، لأنها لا تملك سيميوزيس: وتعتبر في الحقيقة فاقدة للقدرة على التعبير، بينما يتم تعريف السيميوزيس بواسطة الربط بين المضمون والتعبير. وإذا كانت اللغة المثالية فقيرة للغاية، فلأنها تترجم الشروط المنطقية التي تمَكن من صورنتها وتقديمها بوصفها لغة محاكاة على مستوى الحاسوب، ويمثل الويب الدلالي (وهو جمعية دولية عملاقة) إذن جميع المعارف بواسطة لغة الإسناد الأساسية أي نموذج الوصف الصوري لموارد الويب (RDF) الذي يقوم بصورنة القضايا ذات العناصر الثنائية التعريفية، مثل تلك التي يفضلها أوستين (*E est un T*) وبمواصلة التقليد الأرسطي بخصوص الإسناد. وفي سنة 2012، تم حصر 31 مليار معلومات ثلاثية في نظام RDF[238] .

إن سيميائيات الوضعية المنطقية، المنحدرة من مقاربة فريجة والمنقحة بلوجيستيك راسل والمقدمة من قبل موريس وكارناب، لا تعد فقط متنا نظريا، إذ وجدت مجالا واسعا للتطبيق متمثلا في المعلوميات، ووجهت الأبحاث نحو المناهج التحديدية ودلالة لغات البرمجة؛ وعلاوة على ذلك، حددت إشكالية **تمثيل المعلومات** بواسطة الشبكات الدلالية التي تمت صياغتها في الستينيات وتلتها عملية صورنة العبارات الحملية في الثمانينيات (مثل الخط البياني الخاص بالمفاهيم، والذي اقتبس جزء منه من نظرية بورس). وفي الوقت الراهن، ومنذ بداية هذا القرن، فإن الويب الدلالي هو البرنامج الذي يسعى إلى تحقيق الحلم الفريجي القاضي بوضع نظام برنامجي شامل يمثل الواقع كما هو، مع تقسيمه إلى عدة لغات منطقية. وتتم الإشارة إليه تقنيا بواسطة الرابط في الأنترنت بين كل وحدة والعنوان البريدي في المورد المطابق له (مع أن بات هاي (Pat Haye)، وهو مؤلف دلالة RDF، انتفض ضد هذا التضليل الإلكتروني). وكما كان متوقعا، صاحب الإخراج التقني لهذه "الهندسة الفلسفية" (برنير- لي) نسيان البعد النقدي، بصورة مبالغ فيها، بحيث إن هدف هندسة الويب الدلالي العملاقة هو التحكم في الحركة الواقعة في الأنترنت، ومن ثم مراقبة المجتمع العالمي، مع السعي إلى فرض واقع بديل.

وعلى أية حال، يمكن لحرب العمالقة التي تدافع عن فضائل الفكر في مقابل إغراءات لغاتنا غير المثالية أن تنتهي بمعركة شبيهة بملاكمة في الظلام؛على الأقل، في إحدى كتاباته التي كتبها قبل وفاته بسنة، عبر فريجه عن توجسه من هذه المعركة قائلا: "ولكن ألا ينتمي الفكر إلى نظام اللغة؟ كيف تأتّى للفكر أن يدخل في صراع مع اللغة؟ أليست هذه معركة تكون فيها اللغة في صراع مع نفسها؟ أو لا نكون إذن أمام نهاية احتمال الفكر؟" (1979، ص267). بالنسبة لسوسير، من المحتمل ألا يُطرح هذا النوع من المشكلات، بما أن الفكر عبارة عن "كاووس" لا يدعي البتة وصفه، وكلمة **تصور** نفسها تظل غائبة في **"كتاباته"** (2002): وحده السيميوزيس، المعرَّف على أنه مطابقة بين المضمون والشكل، يعتبر موضوعا خاصا باللسانيات.

---

[237] . وهذا يذكرنا كثيرا بالتطبيع الخاص باللغة الجديدة، في الملحق الموجود في رواية **1984**: معجم أ : " وقد كان مكوَّنا من كلمات نعرفها مسبقا (...) ولكن مقارنة مع المعجم الحالي، لم نحص منه إلا عددا قليلا، ولاحظنا أن معناها كان محدودا ويتميز بالكثير من الجمود." (أورويل، 1949، ص 397).

[238] . Tim Berners-Lees, keynote,WWW2012, Lyon.

اللسانيات والبديل المقترح.- فرضت سلطة فريجة نفسها، أما أوستين الذي لم يصدر قيد حياته إلا كتابا واحدا هو ترجمة لفريجه، فقد نقل طموحاته التأسيسية إلى ميدان علوم اللغة، ورحب إذن بميلاد "المنطق الرياضي" بفضل الأعمال المشتركة بين الفلاسفة وعلماء الرياضيات؛ أليس من المحتمل أن يشهد القرن المقبل ميلاد علوم لغوية حقيقية وشاملة ومفصلة، بفضل التعاون المرتقب بين النحاة والفلاسفة وكل من يهتم بدراسة اللغة؟" (1994، ص205). وإذا ما سلمنا إذن بأن القرن الواحد والعشرين قد يشهد ميلاد علم اللغة، فماذا سيكون مآل اللسانيات التي تأسست منذ قرنين؟ إن صمت أوستين بخصوص اللسانيات غريب، فهو يشير إليها مرة واحدة في كتابه **"كيف ننجز الأشياء بالكلام"** ويقدمها ندّا لعلم النفس، ثم إنه يشير بشكل عرضي إلى النحو، ولا يستشهد بأي لساني ولا يذكر أي نحوي، وهذا ما تشهد به فهارس كتبه[239]. ونعلم بأنه ألقى درسا حول شومسكي، ومن المحتمل أنه أشار إليه حينما دعا إلى إقامة حلف بين الفلاسفة والنحاة.

ولا ينفرد أوستين بالصمت؛ إذ إن ڤتگنشتاين في مؤلفه **تحقيقات فلسفية** لا يذكر أي لساني ولا أي بحث لغوي معاصر، فاللسانيات ليست مستبعدة بصورة صريحة وإنما هي غير موجودة بكل بساطة.

ولم يكن هذا التوجه أمرا مفسِدا للبحث لو أن المعلومات اللسانية الأساسية كانت مستغلة، غير أنه لا شيء من كل هذا حصل، وهذا يثير طائفة من المشاكل الوهمية؛ مثلا، وضعت اللسانيات حدا لوجود الكلمة، وهي وحدة خطية بسيطة غير واردة في مستويات أخرى، فتم استبدالها بالمورفيم من جهة، وهو وحدة أولية، وبالوحدة المعجمية (lexie) المعتبرة مركبا جامدا. غير أن ڤتگنشتاين وراسل، ولاحقا أوستين وسورل استمروا في اعتبار الكلمة وحدة لا جدال فيها، وناقشوا مطوَّلا قضية المرجع وشروط استعماله؛ والشيء نفسه ينطبق على الوحدات الأخرى مثل الجملة، الصياغة المتأخرة عند النحاة، وقد اختزلت في القضية، واستبعدت في الواقع كلا من الجملة المعقدة والجمل المتسمة بالاتساق البلاغي.

إن هذه الاختزالات التي فرضتها هذه الإشكالية الفلسفية قد توسعت إلى مدى أبعد مما نتصور، بما أنها تتجاهل ما هو أدنى من الكلمة وأكبر من القضية، ولا شيء يذكرعن أصوات اللغة، والأنظمة الخطية، وأنظمة الترقيم (التي تمثل 20% من السلسلات الخطية في النص). كما أنه لم يذكر النص ولا الوحدات التعبيرية، ولم يعر أي اهتمام للفقرة والفصل، ولا للوحدات الدلالية، مثل التيمة والوظيفة السردية؛ ولا نجد أية إشارة إلى الخطابات، والأنواع النصية[240]، والأساليب، ولا إلى فضاء المعايير بصورة عامة، إذ تم تهميشها لصالح القواعد. ولا شيء يذكر عن الدياكرونيا، والتنوع الداخلي والخارجي للغات. أضف إلى ذلك عدم وجود إشارة إلى التمييز بين الوثائق، والنصوص، والأعمال الفنية، وقد تجاهل هذه المفاهيم الثلاث. وباختصار، تنضاف إلى غياب المفاهيم اللسانية الكبرى مفاهيم بلاغية (مثل الاتساق البلاغي، والحركة، والملاءمة أو الفصاحة، التي عوضت بمفهوم الحِجاج)، ومفاهيم هيرمينوطيقية (مثل مفهوم المتن والتناص)، ومفاهيم فيلولوجية (مثل المتغير، والوثيقة، والمجموعة الوثائقية، والمتن).

الصمت الكبير.- وفيما يتعلق باللسانيات، يبدو أن أوستين لم ينتبه إلى ما مفاده أن الصمت هو أيضا فعل من أفعال الإنجاز، ويعتبر هذا الجهل المتعمد والقطعي نكرانا لوجود مبلور نظريا، بما أنه تنبأ في القرن الواحد والعشرين

---

[239]. يذكر أحد نحاة الإسكندرية مرة واحدة، وهو دوني لوطراس (1994، ص205)، وهذه الإشارة غير موجودة في الفهرس.

[240] . يستشهد دائما بألعاب اللغة" عند ڤتگنشتاين ، ولكن غياب تعريفها وتصنيفها الاعتباطي والخالي من المبادئ اللسانية يجعل الإشارة إليها سهلا وغير عملي على حد سواء.

بتشكّل علم اللغة. ولم تكن هذه الحركة المذهلة منفردة، إذ أصدر مثلا ميلنر سنة 1989 مؤلفا فلسفيا ذي طابع صوري ومابعد-شومسكي وعنوانه [241] *Introduction à une science du langage*.

غير أنه إذا صح أن العلوم تملك فلسفة متعلقة بموضوعاتها التقليدية، فإن تكوين اللسانيات قد سلبت اللغة من فلسفتها، لكنها منحتها موضوعا جديدا وهو اللسانيات نفسها. وكان سوسير يتحدث لطلبته عن **فلسفة اللسانيات،** ولاحظ بول روكار بمناسبة تأبين الكاتب ما يلي: " إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة اللغة، والمبادئ، ومناهج **اللسانيات-** والحقائق التي يؤسسها الكل، لكي نستعمل تعبيرا كان يستعمله سوسير نفسه والذي كان يستخدم كعنوان لدروسه، **فلسفة اللسانيات-** فإنه قد تم تسليط الضوء على كل هذا بصورة جذابة [بواسطة «الدروس» التعليمية] (انظر بوكي، 1997، ص 82-83). باختصار، يتعين تأسيس فلسفة اللسانيات[242] ، **وقد عمل** مؤلفون من أمثال كاسيرر وبوهلر أو كوسيريو جاهدين على تحقيق هذا المشروع، وذلك باستحضار لسانيات زمانهم في الأعمال الكبيرة. ولكن في الوقت الذي كان فيه كاسيرر يستند في المجلد الأول من كتابه" **فلسفة الأشكال الرمزية"** إلى كل اللسانيات التاريخية والمقارنة لتأسيس نظرية مبنية على الثقافة وعلوم الثقافة، فإن الفلسفة التحليلية، حتى فيما يخص أشكالها الأكثر إثارة للجدل (مثل تلك التي نصادفها عند فتگنشتاين)،ظلت مكتفية بفضاء ضيق، ومنغمسة في البراديغم الفريجي، مثل الجانب الأساسي في فلسفة اللغة المعاصرة.

فحتى الفلاسفة غير التحليليين وكثيري النقد مثل دولوز وگاطاري (Guattari) يعيدون مع ذلك هذه الأطروحات كما لو أنها أمور حديثة ولا جدال فيها: "وتوضح أطروحات أوستين الشهيرة بأنه لا يوجد فقط بين الفعل والكلام علاقات خارجية متنوعة مثل الملفوظ الذي يصف حركة بواسطة الوجه البياني، أو إثارتها باستعمال صيغة الأمر، الخ. وهناك أيضا العلاقات الداخلية القائمة بين الكلام وبعض الحركات التي نقوم بها أثناء **التلفظ بها** (فعل الإنجاز: أقسم حينما أقول "أقسم لك") وبصفة عمومية بين الكلام وبعض الحركات التي نقوم بها حينما نتكلم (فعل كلامي: أسأل وأنا أقول "هل...؟"، وأعد فلانا قائلا " أحبك..."، وآمر حينما أستعمل صيغة الأمر...، الخ)" (1980، ص98).

لنتخيل في نهاية القرن العشرين فيلسوفا يبلور نظرية عن الطبيعة من دون أية إشارة إلى الفيزياء، ولكنه يكتفي بالدعوة إلى تأسيس علم الطبيعة، وهو الأمر الذي يثير الشفقة في نفوس الفيزيائيين والكيميائيين وزملائهم ! ومع ذلك فإن العديد من اللسانيين الذين لا يتمتعون بالصرامة وغير الواثقين من الشرعية الإبستيمولوجية لمبحثهم، استقبلوا فلسفة اللغة هاته بحفاوة، بحكم أنها جاءت في الوقت المناسب.

تجاوز سوسير واللسانيات.- لقياس المسافة التي تم قطعها، وتحديد كيف أن فلسفة اللغة تصبو إلى إنهاء صلاحية اللسانيات النبي يمثلها سوسير، سنعيد قراءة ديكرو:" من دي سوسير إلى فلسفة اللغة" (1972)[243]. وفي هذه التوطئة الخاصة بسورل، والتي توّجته على أنه سلطة في ميدان اللسانيات، وضع ديكرو مقابلة بين سورل وسوسير الذي كان من الممكن أن يرفض الأطروحة القائلة إن الكلام موضوع علمي، وقد يرفض مقابلة الواقع الاجتماعي بالكلام، وقد يطرح فرضية أنه بإمكان معنى ملفوظ ما أن يثبت بمعزل عن القيمة الممنوحة له في إطار

[241] . يتفوق الإنكار الصريح في بعض الأحيان على الصمت، عندما صرح شومسكي مثلا في إحدى حواراته مع مجلة « Baas Art » بما يلي: "لا وجود للسانيات المتن"- في الوقت الذي أقدم فيه على تجاوز قدرات اللسانيات الحاسوبية التي تنحدر من النظرية الشومسكية.

[242] . لم يفقد مؤلف أورو وديشان وكولوغلي (Auroux, Deschamps et kouloughli) (1996) شيئا من راهنيته.

[243] . انظر سورل (1972)، ص17-24.

التلفظ؛ وهذه المزاعم خاطئة، بحيث إذا كانت الأولى تستند إلى الجملة الأخيرة (المحرَّفة) في كتاب «**الدروس**»، فإن الجُمل الأخرى تظل دون قاعدة نصية.

ومع ذلك كانت الجملة الأخيرة حاسمة فيما يخص الاعتراض على السوسيرية؛ إذ باستناده على الفكرة الخاطئة القائلة بأن سوسير قد اكتفى بلسانيات اللسان" لذاتها ومن أجلها" ودون الاعتماد على ثنائية اللسان والكلام، طرحت التداوليات التي أدخلها وعرض أركانها ديكرو أفعال الكلام، واعتبرتها اكتشافا أحدث ثورة في اللسانيات، وذلك بجعل تحليل الملفوظات مرتبطا بتلفظها : "إن اكتشاف أفعال الإنجاز [...] يقدم المثل للمعايير الاجتماعية التي تحدد القيمة- ليس فقط للملفوظات- ولكن لأفعال التلفظ." (1972، ص11). ويهدد مفهوم أفعال الإنجاز هذا الوجه من اللسانيات السوسيرية: "ففي دراسة الملفوظات التي تفيد الإنجاز، نلاحظ إذن قلب العلاقة المعترف بها لدى السوسيريين والرابطة بين معنى الملفوظ وقيمة التلفظ. ولفهم هذه الملفوظات، لا بد من إعطاء الأولوية للتلفظ" (تعبير سابق، ص 14)، أي منح الأسبقية للقيمة التداولية.

أن يكون ديكرو، وهو ذو تكوين فلسفي وكانت أبحاثه الأولى تعالج الدليل الأنطولوجي لسان أنسلم القاضي بالبرهنة على وجود الله، معنيا بمشكل أفعال الإنجاز، فهذا أمر نتفهمه. وتنحدر أكبر النظريات حول أفعال الإنجاز من فكر القرون الوسطى، الذي قاده على الخصوص الفرانسيسكان في القرن الثالث عشر لمعالجة شروط المصادقة على الطقوس الدينية (انظر روزيي (Rosier)، 1994). وتطورت هذه الأفعال بواسطة رهانات من نوع آخر لتشمل التصنيف البلاغي للملفوظات المقسمة إلى أسئلة، وأوامر، ومتمنيات، الخ، مثل تلك التي صاغها بروتاغوراس.

كان أوستين وسورل من دون شك آخر وليس أول من اكتشف أفعال الإنجاز؛ غير أنه في غياب نظرية الممارسات الاجتماعية، لم يفكر أحدهما حتى في صياغة المعايير الهادفة إلى التمييز بين تلفظين قد يطابقان الفعل نفسه أو فعلين مختلفين، وقد حرمهما ابتعادهما عن العلوم الإنسانية من المعطيات الإثنولوجية واللسانية، بما فيها معطيات دراسات الخطاب، والأنواع النصية المتنوعة، بحسب الممارسات الاجتماعية، والتي تقيد تحقيق أفعال الكلام.

رأينا فيما سبق أن تقسيم اللسانيات إلى تركيب ودلالة وتداوليات يعتبر امتدادا للتقسيم التبسيطي بين مباحث الحقول الثلاثة المكونة من النحو والمنطق والبلاغة، وأعيدت هذه المباحث في التعليم عبرآلاف السنين، بحسب الترتيب التالي؛ وفي هذا السياق، اعتبر التركيب تتمة للبلاغة، والدلالة امتدادا للمنطق (الماصدقي)، واقتطفت التداوليات بعض بقايا البلاغة (انظر الكاتب، 1991).

وتظل التداوليات المنحدرة من فلسفة أوستين مرتبطة بصورة قوية بالمنطق، الذي طرح مثلا مفهوم الرابط. وأثناء تطورها، كانت التداوليات مطابقة تماما لوجهة النظر المعرفية حول اللغة، بحيث إن سورل تبناها وكتب ما يلي: " المشكل هو أن قلة من فلاسفة اللغة المتأخرين والمعاصرين يسعون لمعالجة اللغة على أنها امتداد طبيعي للقدرات البيولوجية غير اللغوية، ولا يتم تصور اللغة لا في الاستمرارية ولا بوصفها امتدادا لبقية إرثنا البيولوجي الخاص بالجنس البشري. وأعتقد أن هناك سبب عميق، تاريخي وثقافي، وراء مقولة أن اللغة لم تعالج بصورة طبيعية، إذ إن فلسفة اللغة مرتبطة أشد الارتباط بتطور المنطق الرياضي، لأن فريجه قد اكتشف فلسفة اللغة واكتشف في الوقت نفسه المنطق المعاصر (2012، ص228). والغريب أن سورل لا يشير البتة إلى آلاف السنين من فلسفة اللغة، من أرسطو إلى هومبولت، كما لو أن كل شيء بدأ مع فريجه.

لا يحال على اللسانيات باعتبارها مجال له خصوصياته، وبالمناسبة، لا يشير سورل إلى أي لساني. وبطبيعة الحال، يأخذ هنا الفيلسوف اللغة الفطرية بعين الاعتبار وليس اللغة: " لاحظوا أنني أقول " ما هي اللغة (الفطرية)؟ ولا أقول "ما هي اللغة مثل الفرنسية، والألمانية، أو الإنجليزية؟" أنا لا أهتم بما يميز لغة ما عن لغة أخرى، ولكن أميز المشترك بينهما" (2012، ص229). بيد أن هذا الفكر الكوني أظهر محدوديته بسرعة، حينما تساءل سورل قائلا : "كيف نفسر حضور البنية التركيبية م.س – م.ف (SN-SV) في اللغات الإنسانية، بغض النظر عن اختلاف تحقيقها في اللغات؟"، ويبدو أنه نسي أن العديد من اللغات، ومن ضمنها اللغة الصينية، لا تملك تقابلا بين الفعل والاسم[244].

2. تحرير السيميائيات

الاستمرارية.- كان المنطق أولا، وكما يدل عليه اسمه، تفكيرا في **اللوغوس**، وتعود نقطة تحول اللسانيات إلى المدرسة الأولى التي أسسها الرواقيون. وبالرجوع إلى الماضي، نلاحظ أن المرحلة الأولى والكبرى للانعتاق من التقليد المنطقي-النحوي والتقليد الأنطولوجي المنحدر منه كانت ممثلة في النزعة الإنسانية في فلسفة النهضة، ويعكس مؤلَّف لورينزو ڤالا[245] (Lorenzo Valla) وعنوانه (1439) *Repastinatio dialecticae et philosophiae* ، ومؤلفات لاحقة لجان-لويس ڤيڤس (Jean-Louis Vivès) (*In pseudo dialecticos*, 1519 ; *De Disciplinis*, 1539) هذا التوجه. وتلا هذا الانعتاق من البحث الكلاسيكي المشاريعَ الأولى في ميدان الأنثروبولوجيا عند كل من ڤيڤس ومونطين على الخصوص.

وسيرفض الفكر الإباحي وفلسفة الأنوار في القرون اللاحقة ما يبدو على أنه فوضى سكولائية، حاضرة دائما في الأذهان وفي الجامعات (ويتم اكتشاف علامات وفاء للمدرسة السكولائية عند نيكول من خلال كتاب *المنطق* لبول روايال.

إن تكوين اللسانيات قد أصبح ممكنا بفضل الابتعاد التدريجي لنظرية اللغة عن المنطق الذي شكَّل معالمها، ويشهد بذلك المسار الثقافي لهومبولت، الذي كان في بدايته شديد التأثر بفلسفة أرسطو، وانتهى به الأمر إلى تبني وجهة نظر إثنولوجية تبلورت على أساس تعمقه في الأبحاث حول اللغات. غير أن السيميائيات مرتبطة بالمنطق (الملاحظ أن لوك قد أعاد تسمية **السيميائيات** فاعتبرها منطقا) . وبالنسبة لبورس، فإن السيميائيات تحتوي على **منطق صاف** جرت بلورته بالإحالة على دان سكوط (Duns Scot)؛ لذا كانت السيميائيات التي دافع عنها صورية، وقادت إلى صياغة أنظمة لغوية تمثيلية مثل الخط البياني المعبر عن الوجود.

وفي الحقبة نفسها، جسّدت إيديوغرافيا فريجه أيضا السيميائيات المنطقية الصورية. وبغضّ النظر عن المظهر التقني التحديثي للصورنة، فإن استمرارية الارتباط بالمنطق السكولائي كان هو المسيطر؛ ويدل على ذلك

---

[244] . الحجج المقدمة غير واقعية: "خلافا لما يقع حينما نقوم بطهي حلوى وتتغير المواد بفعل الخلط، فإن تكوين جملة لا يغير الكلمات والمورفيمات بفعل الخلط: يمكنكم الحصول على جملة من ثمان أو اثنا عشر كلمة، ولكن لا يمكن الحصول على تسعة ونصف كلمة." (2012، ص 230). ويعتبر سورل هنا اللغة شفرة تحتوي علاماتها على معنى مسبق؛ نعلم بأن هذا الرأي غير صائب وأن الكلام يخلق باستمرار استعمالات غير متوقعة، ويظهر الارتباك بجلاء حينما نخلط بين الحياة والبيولوجيا: " ليس من الصعب تصور اللغة على أنها امتداد للقدرات البيولوجية، ولكن إذا كنا نفهم بأن كلمة "منطق" تفيد الأنظمة الصورية الشبيهة بتلك التي طرحها فريجة وتابعوه، فإن المنطق لن يكون إذن ظاهرة بيولوجية، ومع ذلك، فالبيولوجيا الإنسانية موجودة منذ عشرات الآلاف من السنين، فهي إذن موجودة قبل اكتشاف المنطق" (المرجع نفسه).

[245] . صدر المؤلف بعد وفاته، ويبدو أنه لم يترجم من اللاتينية، وفي الصيغ التحريرية الثلاث، يسعى المؤلَّف جاهدا إلى إعادة تأسيس المنطق في داخل البلاغة، ويفترض هذا المنحى نقدا لاذعا للأنطولوجيا.

المشاكل المعروفة التي تعيد السفسطة، مثل تلك المتعلقة بالتماثل المرجعي بين **نجمة المساء ونجمة الصباح** (Frege, *Über Sinn Bedeuntung*)[246]. ونصادف مشكل حقيقة القضايا التي تتحدث عن أشياء غير موجودة؛ وينضاف مشكل الوردة الغائبة في مقاربة أبيلار (Abelard)[247] إلى مشكل الجملة الشهيرة "ملك فرنسا الحالي أصلع"[248]، ونجد حتى عند ريكنتي (Ricanati) مشكلا يعود إلى القرون الوسطى وهو مشكل ما يمكن قوله ووصفه، إذ كيف نقوم بتقييم تناسب عدد الأحكام مع عدد القضايا؟ لا يهم هنا معرفة ما إذا كان عدد الأحكام والقضايا غير معطى وغير قابل للحساب.

لم تكن استمرارية ارتباط السيميائيات بالمنطق من قبيل الصُّدَف، بما أن التيارات المهيمنة على فلسفة اللغة الأنگلوساكسونية ظلت على هامش التطور الذي عرفته اللسانيات. مثلا، اقترض ستوار ميل نظرية الدلالة الإيحائية من گيوم دوكام (Guillaume d'Occam)، أما بورس فقد استند بصورة صريحة إلى كُتاب من مختلف الأنحاء الصورية، وإلى دان سكوت في المقام الأول. وإلى عهد قريب، اقتبس أوستين التقابل بين الأفعال الدالة والأفعال المؤثرة من روبير كيلواردبي (Robert Kilwardby) ثم روجي بيكون[249] (Roger Bacon) الذي طرح تقابلا بين المدلول (موضوع علم الدلالة) والقصدية (موضوع التداوليات)؛وفي هذا السياق أعاد ديكرو من جانبه نظرية بيكون حول المقولات داخل السياق، ذلك أن هذا الأخير ذهب إلى أن العلامات غير المرجعية توسم أحاسيس الروح، في حين يرى ديكرو بطريقة مماثلة في "كلمات الخِطاب" تعابير القصدية التداولية.

ولا يعدّ هذا التقارب سخرية، وبدأ البحث والكشف عن الاستمرار من قبل مؤرخي فكر القرون الوسطى، من إيرين روزيي إلى كلود باناسيو[250] (Claude Panaccio) وألان دو ليبيرا (Alain de Libéra). وقد قاد هذا الأخير مثلا مشروعا حول السفسطائيين، الهدف منه "المساهمة في الانفتاح على جزء أساسي من فكر القرون الوسطى، وذلك بتوضيح الاستمرارية الفلسفية والثقافية التي تربطه بالتطورات اللاحقة في تاريخ الفلسفة[251].

وتجدر الإشارة إلى أن السيميائيات المعاصرة ترتكز بالأساس إلى فلسفة اللغة (أنظر على وجه الخصوص أيكو،**السيميائية وفلسفة اللغة**)، وقد قام إيكو بقراءة طومية جديدة لبورس (وهو أوغوسطيني يتبع المذهب الأسقفي البروتستاني)، مثل ما قام طوماس داكان في زمانه بإضفاء النزعة الأرسطية على أعمال سان أوغوسطين. في الواقع، يهيمن السيميائيون البورسيون على الساحة الدولية، ولم تجد السيميائيات مكانتها داخل

---

[246] . نوقش هذا الموضوع بإسهاب من قبل كيث دونلان (Keith Donnellan) ودافيد كابلان (David Kaplan) وصول كريبك (Saule Kripke) وروث باركان (Ruth Barcan) وماركوس وهلاري بوتنام (Marcus et Hilary Putnam).

[247] . انظر *Logica « ingredientibus* », 365, 31 ; 370, 22. وهذه الوردة هي التي أوحت إلى أمبرطو إيكو بالعنوان في رواية "اسم الوردة".

[248] . الجملة الأصلية هي: "الملك الحالي أصلع"، راسل، (1905) *On Denoting*. وقد انتقدها ستراوسون في مؤلفه *On Referring* (1950) وناقشها أوستين (1962، ص 20). فإذا كان الكاتب يحيل على شارل الأصلع، فإن هذا الأخير كان يحلق الجمجمة في إطار الحماس الصوفي، وهذا ما يُعقّد إسناد قيمة الحقيقة لهذه القضية.

[249] . انظر *Summulae Dialectices* (1987, I, p.254)

[250]. انظر على الخصوص كتابه :

Les mots, les concepts et les choses. La sémantique de Guillaume d'Occam et le nominalisme d'aujourd'hui, Paris, Vrin, 1992

[251]. http://www.unige.ch/lettres/philo/sophismata/accueil_fr.html (consulté le 10.08.14).

في إحدى المؤلفات المخصصة لفلسفة اللغة، قسم فرديريك نيف (Frederic Nef) تاريخ الدلالة إلى ثلاث حقب كبرى: الدلالة القديمة، وتبتدئ مع السقراطيين الأوائل وصولا إلى أوكام، والدلالة الحديثة، التي تقترن بأوكام وتمتد إلى فريجه، ثم الدلالة المعاصرة، وفيها "تنفصل نظريات العلامة عن الركيزة اللغوية" (1993، ص6)؛ لكنه لاحظ أن " أغلب المشاكل التي نوقشت في إطار فلسفة اللغة المعاصرة هي في الواقع صياغات معادة للمشاكل القديمة، ومعظم المشاكل المطروحة في القرون الوسطى هي مشاكل تعالج من قبل المعاصرين مثل كوندياك (Condillac) على سبيل المثال" (ص6).

العلوم الإنسانية، بحيث أصبحت تقترب من العلوم المعرفية (إيكو، فيولي) و/ أو علوم التواصل (إيكو، فابري، فونطانيل).

ومجمل القول، فقد عرفت السيميائيات منذ بدايتها إلى يومنا هذا تصورين، وهما التصور الأرسطي والتصور الأوغوسطيني. فالتصور الأول تمثيلي وساكن على العموم، ويركز على القدرات الرامية إلى تمثيل العلامة (تمثل العلامة الصوتية تصورا والتصور يمثل شيئا (بواسطة التشابه[252])؛ وهذا التصور مطابق للواقعية والتجريبية، ويفضل الإشارة (عند فريجه) ويبرر التصورات الوجودية في الدلالة. أما التصور الثاني، فهو ديناميكي وذو نزعة تصورية، وقد جعل من حركة الفكر مصدرا للدلالة اللفظية، كما أنه يتميز بكونه مطابق للمثالية، وقد احتفظ بالفعل سان أوغوسطين بمظاهر الأفلاطونية الجديدة التي كان يقدرها قبل تحوله على مستوى العقيدة. ويفضل هذا التصور الدلالة اللفظية بالمعنى التصوري للكلمة (*المعنى* بحسب فريجه، إذ يفيد التصور فهم ما تشير إليه الكلمة، في مقابل الماصدق). وهذا التوجه مستمر إلى وقتنا الحاضر في نظريات القصدية.

إن التوليف الذي صاحب المناظرات الكبرى في أواخر القرن الثاني عشر والثالث عشرقد سمح بافتراض أن العلامة هي علامة مرتبطة بشيء ما (علاقة مفعول) لأجل شخص ما (علاقة الفاعل): وهنا نجد الصيغة التي اقترحها ريشار فيشاكر (Richard Fishacre) والتي اقتبسها كل من روبير كيلواردي وروجي بيكون[253]؛ وهي الصيغة التي تجاوزت الصيغة القديمة ("*شيء ما يحُل محَل شيء آخرٌ*") الملُخِّصة للتوافق الأرسطي من طوماس داكان إلى أمبرطو إيكو

(1975) [254] لأنها تُدخل التأويل في قلب السيميوزيس. وأكد روجي بيكون على أسبقية علاقة الممنوح في مقابل علاقة المفعول، وهذا ما سمح للمؤوِّل بإعادة تعريف العلامة، بحيث يعالج المسألة من ناحية التغير السياقي[255] .

وتفتح هذه القضايا مسألة النجاعة والقدرة على الإنجاز؛ مثلا عندما نقوم بقداس التسمية، فإن الطفل لا يفهم العلامة، ولكن سان بوناڤونتير (Saint Bonaventure) يسلم بأن القداس موجه للبالغين الحاضرين، ويسلم الجدليون القدامى عموما بالثنائية القائمة بين الفعل المدلول والفعل المفروض من جهة، وبين التمثيل والتأويل[256]، من جهة ثانية. وتفضل الإشكالية المنطقية والنحوية العلاقة "المفعولية" للعلامة وليس الشيء المشار إليه؛ في حين تفضل الإشكالية البلاغية والهيرمينوطيقية علاقة "الممنوح" القائمة بين العلامة والشخص المرسل إليه، أي المؤوِّل[257].

---

[252] . يغطي الكاتب المقابل لمصطلح التشابه بالإغريقية (*homoioma*) وباللاتينية (*similitudo*).

[253] . بالإمكان دراسة التقليد الجامعي من باب التجريب، وفيشاكر هو أول دومينيكي حاز على دبلوم في علم الديانات من جامعة أوكسفورد؛ ثم جاء بعده كيلواردي، وهو منظر الكلام باعتباره فعلا، وهذا الأخير تابع دراسته في أوكسفورد ثم درَّس فيها، مثل أوستين، ورايل وستراوسن وگرايس وويسدوم (Wisdom). فالجامعة التي ينتسبون إليها أوغوسطينية، وقد حافظت مظهريا على تخصصها في قضايا أفعال اللغة.

[254] . اعتبر أيكو هذه الصيغة اللاتينية تعريفا للعلامة، وهذا التعريف يهم الافتراض (أو الإشارة) ولكنه لا يتعلق بالدلالة.

[255] .أنظر تقديم مؤلف *De signis* لروزيي، 1994، ص310-320.

[256] . فتح نقاش حول نظرية القضايا؛ مثلا حينما نقول "**أنا أختنق**" فهذا فعل ذو دلالة، بينما كلمة التعجب "**أفّ**" تؤول على أنها فعل مفروض.

[257] . صغنا في الأعمال السابقة مقترحات توليفية وميزنا بين **فحوى** العلامة (المحددة بواسطة السيميوزيس الذي يربط الدال بالمدلول، والذي يعوض العلاقة المفعولية" التي تهم الرابط القائم بين العلامة والشيء المشار إليه) و**مداها**، وهي العلاقة الموطدة بين وجهة النظر والضمان- الذي يؤول شكلي العلاقة الخاصة ب"الممنوح"، أي المرسل إليه والعنوان، بالإضافة إلى الحكم الاجتماعي الصادر عن التواصل). وقد سمح هذا التحليل ببلورة نموذج علاماتي رباعي يضع الفحوى تحت حكم المدى (الكاتب، 2011، الفصل الثاني؛ 2013، الفصل الرابع).

إن التمييز بين الإشكاليتين قد أعيد تمفصله عند موريس ثم كارناب حينما ميزا بين الدلالة، باعتبارها دراسة ماصدقية للعلاقات القائمة بين العلامات وما تشير إليها، والتداوليات، بوصفها علم العلاقات الرابطة بين العلامات والمؤول. وما زال هذان المبحثان المتعارضان والمتكاملان في الآن نفسه يبحثان عن التوافق. ويمكن ملاحظة التطور الذي يفيد التراجع عن الأفكار عند فتگنشتاين في مؤلفيه *Tractatus* و *Recherches*، ويُقرأ هذا التطور على أنه انتقال من مؤلَّف إلى آخر، وقد سمح بذلك التواطؤ السري بينهما.

غير أن بورس وهو أوغوسطيني متشدد قد أحدث طفرة في السيميائيات، حين قام بإدخال مفهوم المؤوِّل، أي المدلول الناتج عن عملية التأويل من قبل المؤول، الذي يموضع مساهمته في العلامة نفسها، بينما تحذف وجهة النظر الوضعية في مقاربة موريس وكارناب المدلولَ الذي أزاحه تصورهما الشكلاني للعلامة، وقد جرى تعويضه بالمؤول، ومن ثم أمكن الرجوع إلى النموذج القريب من المقاربة السكولائية العادية.

وإذا كان سوسير قد أظهر نوعا من التشدد في الحل الذي قدمه بورس، فإنه لا ينخرط مع ذلك في أي من التقاليد المتناحرة. في الواقع، حرر سوسير، من جهة، العلامة (واللسانيات) من مشكل المرجع، وهذه حركة تنم عن العقوق بالنسبة للتقليد الميتافيزيقي. ومن جهة أخرى، لم يمنح صبغة الفردية للمؤوِّل، بحيث يظهر الفاعل في كل مكان، لأن اللغة تعتبر بالفعل أمرا ذهنيا.غير أن اللسانيات ليست علم النفس.

والملاحظ أن الدال والمدلول ليسا أمرا معطى، إذ يتكونان من خلال نشاط الكلام ويتم التعرف عليهما بواسطة التأويل، فهما يحددان السيميوزيس ويتمتعان بخصائص نابعة من داخله، وهذا ما سمح بالتأكيد، بعد لودويك جيگور، على أن سوسير قد طرح تصورا هيرمينوطيقيا للغة؛ ويتعلق الأمر هنا بالهيرمينوطيقا المادية ذات التقليد الفيلولوجي وليس الفلسفي، وهي الهيرمينوطيقا التي تبناها شليرماخير وبلورها فيما بعد بيتر زوندي (Peter Szondi) وبولاك (Bollack).

الأسس المتناقضة للسيميائيات الفلسفية والسيميائيات اللغوية.- إن اللسانيات بأكملها وليس فقط سوسير من أضحى متجاوزا بسبب الهيمنة التي فرضتها فلسفة اللغة؛ وهكذا لخص يورگين ترابان الحل التوافقي بنكهة تنم عن السخرية كما يلي: "ما هو موضوع اللسانيات"؟ لم يعد هذا السؤال محط نقاش، ويبدو أنه قد تم حل المشكل نهائيا، إذ إن موضوع اللسانيات هو من دون شك "اللغة". هل الموضوع هو اللغة والكلام؟ لم يعد هناك موضوع غير ذي صلة باللسانيات الراهنة": لم تعد اللغات محور اللسانيات، وقلّ وصفها "لذاتها ومن أجل ذاتها" باعتبارها أنظمة سيميائية فردية من وجهة نظر تاريخية، بينما كانت تدرس في الماضي على أنها مظاهر سطحية **للغة الفطرية**؛ غير أن الكلام لا يمت بأية صلة باللسانيات: فـ**الكلام** تجل عرضي **للغة الفطرية**. " وما زالت العلامة اللغوية- العلامة الاعتباطية عند سوسير- تُذكر من حين لآخر، أو لنقل تقض مضجع الخطاب اللساني، مثل شبح الأزمنة القديمة، فقط من أجل القول بأن الدال لا يقلد المدلول (وهو في غالب الأحيان مقترن بالشيء المشار إليه): "مزاوجة توافقية كاملة بين الصوت والمعنى" (بينكر، 1994، ص83). لكن نواة التفكير السيميائي عند سوسير ومفادها الوحدة القائمة بين الدال والمدلول وما ينتج عنها لا توجد في صلب اهتمام اللسانيات الحالية. وعوض "الجوهر المزدوج" (وهو تعبير نصادفه في التدوينات التي عثر عليها إنگلر ونشرها في مؤلف بعنوان *Ecrits de linguistique générale*[258]، الذي يعتبر في نهاية المطاف "التمفصل الثاني" للبنيوية، فإن "التكرارية" هي الخاصية التي تُكون الآن جوهر اللغة أو بالأحرى جوهر **اللغة الفطرية**. وما بال السيميولوجيا؟ أن تكون اللسانيات جزءا من علم العلامات الأكثر اتساعا، فهذا أمر لم يعد يهم أحدا." (2005، ص 113).

[258] . لا بد من توضيح حول موقف ترابان: لم يعثر إنگلر على "وثائق" 1996، لقد تم إيداعها من قبل عائلة سوسير في مكتبة جنيف، وهناك قام إنگلر بجردها وتصنيفها.

وهكذا قدم ترابان ببراعة فائقة إيديولوجيا قطعية بصورة مزدوجة، تشتغل من خلال الصيغ التأكيدية وتصرح بانتهاء الصلاحية لكل الصيغ السابقة[259]. وتظل إعادة التأسيس ضرورية، حتى وإن أحدث هذا بلبلة تخدش صدق اللسانيين، في حالة ما أخدنا بعين الاعتبار مقولة سوسير: "الخطير في الأمر أن عِلمنا [...] لا يأبه بالشعور العام الذي يفيد أن هناك شيء ما خاطئ في القاعدة؛ ولا يبدي أي قلق اتجاه التصورات الأكثر انحرافا والتي يقبلها كل يوم، وينتاب علمنا إحساس بأنه متمكن من موضوعه، إلى درجة أنه لا يشعر بأية صعوبة من وقت لآخر في استخراج أفكار ونظريات لسانية (مقدمة في أبهى صورة) من هذه الفوضى."[260]

وإذا كان كاهن قد نظَّر للثورات العلمية، فإنه مع الأسف أهمل الحديث عن الثورات المضادة. وماذا يحدث عندما يقوم براديغم ما بالإجهاز على تاريخ المبحث، وذلك بالتشطيب على أجزاء كاملة من مجال التخصص؟ إننا سنفقد سمة التعقيد، وسنتوصل إلى نهج مفرط في التبسيط الباعث على الطمأنينة، ولكنه لا يملك أدنى تبسيط، ويتميز بالتقنية المفرطة. وباجتناب المشكلات الحقيقية، يمكننا الاشتغال في جو أكثر ضمانا للطمأنينة من الوضع الذي نشتغل فيه بالمشكلات المطروحة بشكل سيء وفاقد للحلول.

لماذا أبدى بعض اللسانيين حماسا كبيرا لهذا النوع من فلسفة اللغة إلى حد اعتبار المشروع التأسيسي للسانيات التاريخية والمقارنة منتهي الصلاحية ؟ بدت التداوليات، بسبب الاختزال الهام لموضوع البحث اللساني في ميدان التركيب والدلالة الصوريين، كانفتاح مرحب به، إذ تبدو أنها تعالج ما كان غائبا، أي حياة اللغة، ونالت استحسان الكُتاب المنشغلين بقضايا السياق والممارسات اللغوية الحقيقية؛ ولكنها تترجم في الواقع باختزال ليس بأقل حدة من المباحث السالفة، فقد ظهرت على الرغم من كل هذا على أنها تبسيط توضيحي.

إن الحديث عن اللغة أسهل من الحديث عن اللغات لأننا نصادف القليل من المعارضة بفعل الملاحظات الأمبريقية، فالعموميات تنفي في الحقيقة التعقيد الذي يطال الموضوع والطموح الذي يكتنف مشروع اللسانيات؛ بحيث إن العموميات سهلة الفهم والتدريس، وتؤمّن نوعا من الاستقرار في التقليد الأكاديمي. ومن جهة أخرى، قاد منح الاستقلالية للحقول النظرية واعتبارها مباحث معرفية مستقلة، من المورفولوجيا إلى تحليل الخطاب، إلى تشتيت "علوم اللغة" التي تعتبر ظاهريا مولدة ذاتيا، ومستقلة وخاضعة للتقييم الذاتي، ذلك أن اختزال الموضوع واختيار النماذج الجزئية يمَكن من تفادي التعقيد، وتجنب النقاش العميق، ويضمن نوعا من الراحة الأكاديمية. وفي هذا السياق، يجسد كل فريق نكرانه لما يدور في المباحث الأخرى بواسطة الحدود الفاصلة بينها[261].

تفرض محاولة التوحيد الأولى نفسها، والهدف هو توحيد مختلف تخصصات "علوم اللغة" داخل اللسانيات، وإذا ما اعترفنا حاليا باستحالة البحث في التركيب من دون الدلالة، فإن العلاقات بين التداوليات والدلالة تصبح غامضة، وعلى الخصوص بين "المعنى التداولي" والمعنى اللفظي المعتبر مرجعا؛ وهنا تكمن الصعوبة الكبرى في توحيد مباحث علوم اللغة.

وتوضح الإخفاقات المتكررة للبحث في التركيب الصوري أن التركيب لا ينفصل عن أورغانون الدلالة، ومن الصعب إذن التمييز بين الدلالة والتداوليات في حالة ما إذا تمت بلورتهما بشكل جيد. وأصبحت الدلالة، بوصفها توسيطا أساسيا بين التركيب والدلالة المتعرضين للتجديد، فضاء التقاء هام بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية؛ وهذا علاوة على أن التقسيم بين المبحثين السالفين يبرز من جهة أخرى الانفصال الجذري

---

[259]. تشبه هذه الإستراتيجية الأكاديمية الراسخة عمليات وسم العلامة التجارية المستخدم في الإشهار المقارن.

[260]. EC (N), p. 27 ; Saussure, 1997, p. 296

[261]. انظر مثلا روبان، ر. (1986) « L'analyse du discours entre linguistique et sciences humaines : l'éternel malentendu », *Langages*, 81, pp.121-128 [postface].

وغير المبرر بين الوقائع (الدلالية) والقيم (التداولية)، على الرغم من أن الاعتراف بتوحيدهما يعتبر محددا بالنسبة لعلوم الثقافة.

وحينما نقوم بالربط بين الملحوظات الداخلية والملحوظات الخارجية في الدراسة المقارنة للنصوص، فإن الإشكالية النيو-سوسيرية تبدو قادرة على دعم الوحدة بين مظهرين للوصف اللغوي، وآخذة بعين الاعتبار كل الأبعاد الثقافية للنصوص.

ومن جهة أخرى، تتكون المادة الخام للدلالة من المعتقدات-أو بتعبير آخر- من التمثلات الجماعية، وعندما نضع اللسانيات الخارجية جانبا، يصبح المعنى صعب المنال، والشيء نفسه بالنسبة للتأويل الذي يسمح ببلورته، وذلك بوضع الأشكال اللغوية (بوصفها ركائز للمعنى) في السياق. ولهذا السبب يمكن القول إن المعنى غير محايث للنص، ولكنه متعلق بحالة (أي بالضرورة الحالة الاجتماعية) التأويل.

وفي المقابل، يوسم الفصل بين النص والخطاب التمييزَ بين اللسانيات الداخلية (النص) واللسانيات الخارجية (الخطاب)، إذ حينما يكون الخطاب موضوعَ الدراسة فهذا يعني الانتقال من اللسانيات الداخلية إلى اللسانيات الخارجية، ولكن من دون الرجوع إلى نقطة البداية، وغالبا ما تكتفي بالتفسيرات السوسيولوجية. وانتهى الأمر بالتداوليات ذات التوجه التفاعلي، المهيمن حاليا، إلى أن أصبحت مجرد سوسيولوجيا مصغَّرة، لا تمثل فيها الوقائع اللغوية أية قيمة سوى كونها عبارة عن أمثلة. واستنادا إلى ما سبق، يقود الفصل بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية إلى محو الجانب الثقافي في اللغات[262]، ويصبح الموضوع الوحيد للسانيات الداخلية هو ملكة اللغة- وما يصاحبها من قضايا التطبيع.

غير أن أخذ الثنائية القائمة بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية بعين الاعتبار يسمح بمعالجة المقاربة الثقافية والصورية للغة. وبتعبير سوسير الذي عرَّف السيميولوجيا على أنها علم العلامات داخل المجتمع، يلاحظ أن المظهرين غير منفصلين، ذلك أن العلامات غير مفهومة من دون ربطها بالحياة الاجتماعية، على اعتبار أن العلامات تمثل جزأها البارز.

لقد منح التقسيم الثلاثي عند موريس وكارناب الأساسَ السيميائي للتقسيم الجاري به العمل في علوم الثقافة والذي يفصل بين المعرفة والتواصل؛ بحيث إن التركيب والدلالة المعرفية يرتبطان بعلوم المعرفة، أما التداوليات والدلالة المعجمية والخطابية، فقد التحقتا بعلوم التواصل.

وسمحت التيمة الداخلية للتيار المعرفي بتقليص اللسانيات الداخلية لتصبح مجرد علم نفس ثم بيولوجيا، بينما قلص التيار الخارجي في براديغم التواصل حقل اللسانيات الخارجية لتصبح مجرد تعليق على الخطابات الاجتماعية؛ ومن ثم يصبح مجال اللسانيات غير قابل للتصور، وشبيها بالبرنامج المقارناتي والتاريخي، بل وحتى برنامج الوحدة بين" علوم الإنسان" و"علوم المجتمع". فالملاحظ أن مجتمعاتنا منشغلة في الواقع بخطاباتها الخاصة (وليس باللغات وتاريخها) وظلت القطيعة بين الفرد والمجتمع أساس اللبرالية المفرطة في الاقتصاد والسياسة. وأضحى الفصل بين اللغة والكلام وبصورة عامة بين الأنظمة والإنجازات أمرا مستهلكا، في حين يتطلب فهم الوقائع الثقافية وضعَها في إطار العلاقات النسقية. وستستمر من دون شك فلسفة اللغة ذات التقليد التحليلي في التجوال، ذلك أنها تتحكم في خطابها ومناهجها التخمينية، وتوجد على هامش الاكتشافات اللسانية لكي تظل بمنئ عن المراجعات أو التشكيك.

---

[262]. لا تفصل الفيلولوجيا بين دراسة اللغة ودراسة النصوص، خصوصا النصوص الأدبية، ولم يكن النحو منذ دوني لوطراس سوى مبحث مساعد على القراءة النقدية للمتون، وهي في زمانه المؤلفات الكلاسيكية الإغريقية، وهوميروس في المقام الأول.

غير أن اللسانيات برهنت على قدرتها على التطور فيما يتعلق بقدرتها الوصفية واحتفاظها بموارد إبستيمولوجية هامة. مثلا، استطاعت بعض تيارات التداوليات أن تتطور حتى وصلت إلى مرحلة التشكيك في التقسيم الثلاثي المؤسس لمجال بحثها. وهكذا أصدرت مجموعة فريبور بقيادة ألان بيراندوني (Alain Berrendonner) مؤلفا قيِّما بعنوان *Grammaire de la période* ، أعاد توحيد الدلالة والتداوليات، بهدف تجديد الماكرو-تركيب.

ومن جهة أخرى، سمح التطور الحاصل في لسانيات المتن بتسليط الضوء على مجموعة كبيرة من الوحدات الجديدة القابلة للملاحظة (انظرالكاتب،2011، الفصل الأول)، وعلى الخصوص بواسطة المناهج الاحتمالية- المضادة للمنهج المنطقي السائد في فلسفة اللغة المفتقرة إلى الموارد المفاهيمية لكي تأخذ بعين الاعتبار هذه الوقائع. لقد وطدت اللسانيات علاقتها مع الفيلولوجيا من أجل تشفير النصوص، ومع البلاغة من أجل فهم التباينات الكيفية، كما ارتبطت بالهيرمينوطيقا بهدف تأويل نتائجها؛ وكل هذا ينبئ بتوحيد مرحب به.

وإذا نظرنا إلى أبعد من اللسانيات، فإن وضع ووحدة العلوم الاجتماعية تظل محط نقاش، بينما نجد أن وظائفها النقدية تزعج أصحاب القرار الذين يزعمون أنها قليلة النفع بالنسبة للتطور الاقتصادي؛ ومن ثم فهي مكلفة، وتلزمهم، من خلال الأجهزة الأكاديمية، بالانقسام إلى فريقين، هما فريق علوم المعرفة وفريق علوم التواصل. وفي مجال العلوم المعرفية، أصبحت العلوم الاجتماعية حقولا تكميلية أو قوات الدعم بالنسبة لشرعنة المناهج الاختزالية- وقد كان هذا مطمح الشومسكية ثم اللسانيات المعرفية عند مؤلفين مشهورين من أمثال ستيفن بينكر. وبموازاة ذلك، نلاحظ أنها تنتج في ميدان علوم التواصل خطابا مصاحبا لصناعات **الترفيه**.

فنحن إذن أمام حالة راهنة تفرض توحيد حقول علوم الثقافة، ويفترض هذا المشروع من جهة تجنب التفكير الكوني القاضي بتنحية مظاهر التنوع، وهو التفكير الذي يتجسد في برامج التطبيع[263] وفي النسبية المطلقة، كما هي ظاهرة في النزعة الثقافية الهوياتية التي تدعو إليها **الدراسات الثقافية**[264]، من جهة أخرى . ولتحقيق هذا

---

[263] . شكل التفكير الحاسوبي إحدى أطروحات اللسانيات الصورية بزعامة شومسكي، فقد حاولت لسانياته تهميش المعنى لأنه يحيل على المرجع(le référent) الذي يستحضر بدوره العالم والبيئة والثقافة. وهكذا، تبنت المعرفية الأرثودوكسية هذا التوجه الذي سعى إلى تطبيع المعنى ونفي صفة الخصوصية عن علوم الثقافة[263]؛ وفي هذا الصدد، فقد أدى التركيز على الكوني والتقني-العلمي إلى تهميش الدراسات التي تتوخى الخصوصيات الإنسانية. وعلى النقيض من ذلك، يلاحظ أن مفهوم الثقافة يقترن بمسألة المحيط والبيئة الاجتماعية المؤثرتين في الإدراك والمعرفة، ويعتبر هذا التصور الركيزة الأساسية في أطروحات التيار التكويني (عند بياجي) والتيار الترابطي.

إن سبب رفض التوجه التطبيعي من قبل المدرسة الفرنسية يعود بالأساس إلى تجاهل جل تخصصات علوم الثقافة، عوض دمجها في البحث المعرفي. وسيتبنى مريدو التطبيع فرضية التوازي بين الظواهر الطبيعية والظواهر الثقافية؛ وقد سمحت هذه الأطروحة بظهور نظرية المماثلات (les mèmes) التي تسلم بأن التمثيلات الذهنية والفيروسات تنتشر بالكيفية نفسها، وبأن كون المعلومات (l'infosphère) والكون البيولوجي (la biosphère) يخضعان للقواعد نفسها. ونتيجة لذلك، تم الدفع بمثل هذه الأبحاث في الأوساط الأكاديمية، على حساب العلوم الإنسانية، واتضح أن البحث المعرفي عموما وفرضية التطبيع خاصة يتحاشى التأويل وينزعج، استنادا إلى وحدة العلم والعولمة، من التنوع الثقافي. وعلى العموم، فكل شيء أصبح يفسر بالطبيعة (الفطرة)، ولم يعد أي دور للمجتمع والمحيط الإنساني في إنتاج الثقافة (المترجم).

[264] . ظهرت الدراسات الثقافية سنة 1964 في جامعة برمينگهام في بريطانيا، على يد ثلاثة أساتذة هم ريتشارد هوگارت (R. Hoggart) (1918-2014) ورايمون ويليامز (R. Williams) (1923-1988) إدوارد طومسون (E.Thomson) (1924-1993). وقد تمحورت أعمالهم حول الثقافة الشعبية، وعلاقة الثقافة بالمجتمع والسلطة، واهتمت أيضا بوضعية الفئات المهمشة قافة أوروبا، مثل مجموعات الروك والبانك والفئات المهاجرة التي استقرت في بريطانيا. كما وضع هؤلاُء الكتاب وسائل الإعلام فات محك النقد والتحليل؛ وفي هذا السياق، استعان هوگارت بالنقد الأدبي فنقل آلياته إلى الفضاء الواسع المتمثل في إبداعات الث ائل الجماهيرية. وللوصول إلى النجاعة العلمية، استعمل الباحثون منهجية الاستجواب فاستخدموا ثوابت الإثنوغرافيا وتقنية الأرشيف والتاريخ الاجتماعي لتعميق البحث. ونشير هنا إلى أن أعمال هؤلاء الكتاب تميزت بالتنقيب عن النسق الذي يتحكم في وسـ

الهدف، يتعين تثمين المظهرين الأساسيين في منهجية اللسانيات التاريخية والمقارنة، وهي المنهجية المشتركة مع الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم الأديان والأدب والإيكونولوجيا، الخ. وبفضل المنهج المقارن، يمكن إضفاء النسبية على النسبية المطلقة والبرهنة على أن التوجه الثقافي الهوياتي يفتقد للأسس، فكل السمات الثقافية واللغوية هي قضايا قابلة للانتشار، وحتى مفهوم "هوية" ثقافة ما أو لغة ما ليس له أية مصداقية علمية. فالسمات التعريفية الوحيدة التي تلاحظ في لحظة معينة هي **الخصوصيات** التي ترتبط بصورة واسعة بمتن المقارنة.

ومن جهة أخرى، يبدد التوقع التاريخي الأوهام الأنطولوجية التي تنحدر من النزعة الأنطولوجية التطبيعية، ومن النزعة الثقافية الهوياتية. وتنتج التساؤلات المزعجة حول الأصل عن المعرفة الباحثة عن الجوهر، وخصوصا التكهنات الداروينية الجديدة التي قدمت أبحاثا تهم أصل اللغة، والجدور الجينية للعضو الإنساني الخاص باللغة. وعلاوة على ذلك، فالتطورات الحاصلة على مستوى اللغات والثقافات ماثلة أمامنا لتذكّرنا بذلك.

لقد تخلت علوم الثقافة عن المجال التخميني المرتبط بالنزعة الكونية لكي تتبنى التوجه التعميمي الذي تنتسب إليه منهجية المقارنة، وبموازاة ذلك، فهي لا تطرح الأسئلة حول الفرد (الذي أصبح بسرعة مشكلا هوياتيا)، ولكنها تدرس السمات الفريدة والخصوصيات التي تعمل إشكالياتها الاختلافية على تحديدها.

الإعلام كالتلفزة، مستعينين في ذلك بالنظرية الماركسية ومفهوم الهيمنة (للمزيد من التفاصيل، انظر الخطاب، 2017، ص19-24) (المترجم).

البيبليوغرافيا

1. مصادر ومراجع المؤلف

Corpus saussurien

[*CLG*] : *Cours de linguistique générale* (1972), Paris, Payot.

[*CLG/E1*] : *Cours de linguistique générale* (1968), édition critique par R. Engler, tome I, Wiesbaden, Harrassowitz.

[*CLG/E2*] : *Cours de linguistique générale* (1974), édition critique par R. Engler, tome II (Appendice), Wiesbaden, Harrassowitz.

[*ELG*] : *Écrits de linguistique générale* (2002), Paris, Gallimard. Édition par S. Bouquet et R. Engler.

[*LLG*] *: Leçons de linguistique générale* (à paraître), Paris, Gallimard. Édition par Simon Bouquet et Antoinette Weil.

[*Cours I, Riedlinger, B*] : Komatsu, E. & Wolf, G. (1996) *Premier cours de linguistique générale (1907) d'après les cahiers d'Albert Riedlinger*, Oxford/Tokyo, Pergamon.

[*Cours III,Constantin, C*] : Constantin, E. (2005) Linguistique générale. Cours de M. le professeur F. de Saussure, *Cahiers Ferdinand de Saussure, 58*, pp. 71-289.

[*SM*] : Godel, Robert (1959) *Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure*, Genève, Droz.

Amacker, René, éd. (2011) Saussure, F. de, *Science du langage. De la double essence du langage et autres documents du ms BGE Arch. de Saussure 372.Édition partielle mais raisonnée et augmentée des Écrits de linguistique générale*., Genève, Droz, Publications du Cercle Ferdinand de Saussure VII.

Bally, Charles & Gautier, L. (éd.) (1922) *Recueil des publications scientifiques de Ferdinand de Saussure*, Genève, Sonor.

Komatsu, E. (éd.) (1993) *Cours de linguistique générale. Premier et troisième cours d'après les notes de Riedlinger et Constantin*, Tokyo, Université Gakushuin.

Parret, Herman (éd.) Les manuscrits saussuriens de Harvard, *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 1993 [1994], 47, pp. 179-234.

Saussure (de), F. (1986) *Le leggende germaniche*, A cura di A. Marinetti & M. Meli, Este, Libreria editrice Zielo.

Saussure (de), F. (2013) *Anagrammes homériques*, Limoges, Lambert-Lucas. Edition et présentation par Pierre-Yves Testenoire.

Autres références

Agamben, Giorgio (1998²) *Stanze*, Payot, Paris.

Althusser, Louis (1994) *Ecrits philosophiques et politiques*, I, pp. 548-549 [éd. F. Matheron], Paris, Stock.

Anscombre, Jean-Claude et Ducrot, Oswald (1976) L'argumentation dans la langue, *Langages*, 42, pp. 5-27.

Aristote (1965) *De l'interprétation*, in *Organon*, Tricot, J. (éd.), Paris, Vrin.

Aristote (1981) De l'expression [Peri hermeneias], 16 a, trad. F. Desbordes, *in* Baratin, M. & Desbordes, F., *L'analyse linguistique dans l'Antiquité classique*, Paris, Klincksieck.

Arnauld, Antoine, Nicole, Pierre (1970 [1683]) *La logique ou l'art de penser*, Paris : Flammarion.

Arnim, Johannes von, (éd.) (1964) *Stoicorum veterum fragmenta*, Stuttgart, Teubner, 4 vol.

Auroux, Sylvain, Deschamps, Jacques et Kouloughli, Djamel (1996) *La philosophie du langage*, Presses universitaires de France.

Auroux, Sylvain (1987) The first Uses of the French Word *Linguistique*, in Aarsleff et *al.* (éds), *Papers in the History of linguistics*, Amsterdam-Philadelphie, Benjamins, pp. 447-459.

Austin, John (1962) *How to do things with words*, Oxford, Oxford University Press.

Austin, John (1970) *Quand dire, c'est faire*, Paris, Seuil.

Austin, John (1994) *Écrits philosophiques*, Paris, Seuil.

Avalle, D'arco Silvio (1973) *L'ontologia del segno in Saussure*, Turin, Giannichelli.

Bader, Françoise (1989) *La langue des dieux, ou l'hermétisme des poètes indo-européens*, Pise, Giardini.

Bacon, Roger (1987-1988 [*circa* 1240]) « Summulae dialectices », I et II, *Archives d'histoire littéraire et doctrinale du Moyen Âge*, LIII, pp. 139-290. III, *Archives d'histoire littéraire et doctrinale du Moyen Âge,* LIV, pp. 171-278. Édition par Alain de Libéra.

Beaudouin, Valérie (2002) *Mètre et rythmes de l'alexandrin classique : Corneille et Racine*, Paris, Champion, coll. Lettres numériques.

Benveniste, Émile (1966 et 1974) *Problèmes de linguistique générale,* Gallimard, Paris, 2 tomes.

Benveniste, Émile, éd. (1964) Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet, *CFS*, 21, pp. 91-125.

Bouquet, Simon (1997) *Introduction à la lecture de Saussure*, Paris, Payot.

Bouquet, Simon (1999) D'une théorie de la référence à une linguistique du texte : Saussure contre Saussure ?, *CFS*, 52, pp. 37-42.

Bouquet, Simon éd. (2003) *Saussure*, Paris, L'Herne.

Bouquet, Simon (2006) art. Ferdinand de Saussure, in Sylvie Mesure et Patrick Savidan, *Le dictionnaire des sciences humaines*, Paris, PUF, pp. 1042-1044.

Bouquet, Simon (éd.) (à paraître) *Leçons de linguistique générale*, Paris, Gallimard.

Bronckart, Jean-Paul, et coll. (éds) *Le projet de Ferdinand de Saussure*, Genève-Paris, Droz.

Bucher, Gérard *et al.* (1974) Les deux Saussure, *Recherches,* 16.

Calvet, Louis-Jean (1975) *Pour et contre Saussure, pour une linguistique sociale*, Paris, Payot.

Calvet, Louis-Jean (1985) Lire Saussure aujourd'hui, postface au *CLG*, Paris, Payot.

Caputo, Cosimo (1992) La filosofia del linguaggio di Hjelmslev, in Cimino, G. et al. (éd.) *Il nucleo filosofico delle scienze*, Bari, Galatina.

Cassirer, Ernst (1972) *Philosophie des formes symboliques*, Paris, Minuit, 3 tomes.

Charaudeau, Patrick (1992) *Grammaire du sens et de l'expression*, Paris, Hachette.

Chiss, Jean-Louis et Puech, Christian (1987) *Fondations de la linguistique. Études d'histoire et d'épistémologie*, Bruxelles, De Boeck.

Choi, Yong-Ho (2002) *Le problème du temps chez Ferdinand de Saussure*, Paris, L'Harmattan.

Chomsky, Noam (1984) La connaissance du langage, *Communications*, 41, pp. 7-24.

Collins, A. M., Loftus, E. (1975) A Spreading-Activation Theory of Semantic Processing, *Psychological Review*, 82, 6, pp. 407-428.

Coseriu, Eugenio (1958) *Sincronía, diacronía e historia*, Montevideo.

Coseriu, Eugenio (1962) *Teoria del lenguaje y lingüistica general*, Madrid, Gredos.

Coseriu, Eugenio (1981) *Textlinguistik — Eine Einführung*, Tübingen, Narr.

Culioli, Antoine (1990-1999) *Pour une linguistique de l'énonciation : opérations et représentations*, Paris, Ophrys (tome I, 1990 ; tomes II et III, 1999).

Deleuze, Gilles et Guattari, Fernand (1980) *Mille Plateaux*, Paris, Minuit.

De Mauro, Tullio (1972) Notes biographiques et critiques sur F. de Saussure. In F. de Saussure, *Cours de linguistique générale* (pp. 319-477), Paris, Payot.

De Mauro, Tullio, éd. (2005) Ferdinand de Saussure, *Scritti inediti di linguistica generale*, Bari, Laterza.

Depecker, Loïc (2011) *Comprendre Saussure — d'après les manuscrits*, Paris, Armand Colin.

Depecker, Loïc, éd. (2012) L'apport des manuscrits de Ferdinand de Saussure, *Langages*, 185.

Dignâga (1968) *On perception, Pramanasamuccya*, tr. Masaaki Hattori, Cambridge (Mass.), Harvard University Press.

D'Ottavi, Giuseppe (2010) *L'apoha et les entités négatives du langage*, in Bronckart, Jean-Paul, et coll. (éds), *Le projet de Ferdinand de Saussure*, Genève-Paris, Droz, pp. 169-191.

D'Ottavi, Giuseppe (2013) Pānini et le *Mémoire*, *Arena Romanistica*, 12, pp. 164-193.

Ducrot, Oswald (1972) De Saussure à la philosophie du langage, *in* J. R. Searle, *Les actes de langage*, Paris, Hermann, pp. 17-24.

Eco, Umberto (1975) *Trattato di semiotica generale*, Milan, Bompiani.

Eco, Umberto (1992) *Le signe*, Paris, Gallimard.

Eco, Umberto (1994) *Les limites de l'interprétation*, Paris, Gallimard.

Engler, Rudolf (1980) Sémiologies saussuriennes, 2. Le canevas, *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 34, pp.3-16.

Engler, Rudolf (1987) Die Verfasser des C[ours de] L[inguistique] G [énérale], in Schmitter, Peter (ed.), *Geschichte der Sprachtheorie 1. Zur Theorie und Methode der*

Geschichtsschreibung der Linguistik, Tübingen, Narr, pp. 141-161.

Engler, Rudolf, éd. (1968) *Cours de linguistique générale*, édition critique, t. I, Wiesbaden, Harrassowitz.

Engler, Rudolf, éd. (1974) *Cours de linguistique générale*, édition critique, t. II, appendice : *Notes de F. de Saussure sur la linguistique générale*, Wiesbaden, Harrassowitz.

Fehr, Johannes (2000) *Saussure entre linguistique et sémiologie*, Paris, PUF.

Frege, Gottlob (1971) *Écrits logiques et philosophiques*, Paris, Seuil (traduction et introduction de Cl. Imbert).

Frege, Gottlob (1979) *Posthumous Writings*, Chicago, University of Chicago Press. [edited by Hans Hermes, et al., translated by Peter Long, et al.].

Fuchs, Catherine et Le Goffic, Pierre (1992) *Les linguistiques contemporaines — Repères théoriques*, Paris, Hachette.

Gill, Harjeet Singh (2001) *Signification in Buddhist and French Tradition*, New Delhi, Harman.

Godel, Robert (1960) Inventaire des manuscrits de F. de Saussure, *CFS*, 17, p. 5-11.

Greimas, Algirdas Julien (1966) *Sémantique structurale*, Paris, Larousse.

Greimas, Algirdas Julien, & Courtés, Joseph (1979) *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Paris, Hachette.

Greimas, Algirdas Julien (1957) L' actualité du saussurisme, *Le français moderne*, 24, p. 191-.;

23Grice, H. P. (1979) Logique et conversation, in *Communications*, 30, p. 57-72.

Groupe de Fribourg (2013) *Grammaire de la période*, Berne, Lang.

Hayes, Richard P. (1988) *Dignâga on the Interpretation of Signs*, Londres, Kluwer.

Hjelmslev, Louis (1966) *Le langage*, Paris, Minuit.

Hjelmslev, Louis (1968-1971a) *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Minuit.

Hjelmslev, Louis (1971b) *Essais linguistiques,* Paris, Minuit.

Hjelmslev, Louis (1972 [1935-1937]) *La catégorie des cas*, Munich, Fink.

Hjelmslev, Louis (1973) *Essais linguistiques II*, Copenhague, Nordisk Sprog- og Kulturforlag.

Hjelmslev, Louis (1975) *Résumé of a Theory of Language*, Copenhague, Nordisk Sprog- og Kulturforlag.

Hjelmslev, Louis (1985) *Nouveaux essais,* Paris, PUF.

Hjelmslev, Louis (1993 [1943]) *Omkring Sprogteoriens Grundlæggelse*, Copenhague, Travaux du Cercle Linguistique de Copenhague, Munksgaard.

Houdé, Olivier (1995) *Rationalité, développement et inhibition*, Paris, PUF.

Jäger, Ludwig (1976) Ferdinand de Saussures historische-hermeneutische Idee der Sprache. Ein Plädoyer für die Rekonstruktion des Saussureschen Denken in seiner authentischen Gestalt, *Linguistik und Didaktik*, 7/27, pp. 210-244.

Kleiber, Georges (1994) *Nominales*, Paris, Armand Colin.

Kripke, Saul (1982) *La logique des noms propres*, Paris, Minuit.

Köhler, Wolfgang (1929) *Gestalt Psychology*, New York, Liveright [tr. fr. *Psychologie de la forme*, Paris, Gallimard, 1964].

La Fauci, Nunzio (2013) *Ferdinand de Saussure, il linguista senza qualità*, Pise, Edizioni ETS.

Libet, Benjamin (1992) The neural time-factor in cognition, perception, and free-will, *Revue de métaphysique et de morale*, 2, pp. 255-272.

Lotringer, Sylvère (1974) Le « complexe » de Saussure, *Recherches*, 16, p. 91-112.

Matsuzawa, Kazuhiro (2003) Notes pour un livre sur la linguistique générale — présentation et édition, in Bouquet, éd., pp. 319-322.

Matsuzawa, Kazuhiro (2012) Puissance de l'écriture fragmentaire et « cercle vicieux » — Les manuscrits de *De l'essence double du langage* de Ferdinand de Saussure, *Genesis*, 35, pp. 41-57.

Meillet, Antoine (1913) Ferdinand de Saussure, *Bulletin de la Société de Linguistique de Paris*, 18, 61, pp. 69-85.

Mesure, Sylvie, et Savidan, Patrick, éd. (2006) *Dictionnaire des sciences humaines*, Paris, PUF.

Milner, Jean-Claude (1995) *Pour une science du langage*, Paris, Seuil.

Montague, Richard (1974) *Formal Philosophy*, New Haven, Yale University Press.

Morris, Charles (1971) *Writings on the General Theory of Signs*, La Haye, Mouton.

Nef, Frédéric (1993) *Le langage*, Paris, Bordas.

Normand, Claudine (2000) *Saussure*, Paris, Les Belles Lettres.

Orwell, George (1949) *1984*, Paris, Gallimard.

Peirce, Charles S. (1960) *Collected Papers*, Cambridge (Mass.), Harvard University Press.

Pinker, Steven (1994) *The Language Instinct*, New York, Harper.

Pinker, Steven (1999) *Words and Rules. The Ingredients of Language*, New York, Harper.

Piotrowski, David (1997) *Structures et dynamiques en langue*, Paris, Editions du CNRS.

Poudat, Céline (2006) *Étude contrastive de l'article scientifique de revue linguistique dans une perspective d'analyse des genres*, Thèse de doctorat, Université d'Orléans.

Rastier, François (1971) *Idéologie et théorie des signes*, La Haye, Mouton.

Rastier, François (1972) Systématique des isotopies, in Greimas, A.-J., éd. *Essais de sémiotique poétique*, Paris, Larousse, pp. 80-115.

Rastier, François (1982) Paradigmes et isotopies, *Bulletin du G.R.S.L.*, V, 24, pp. 8-16.

Rastier, François (1987) *Sémantique interprétative*, Paris, PUF.

Rastier, François (1989) *Sens et textualité*, Paris, Hachette.

Rastier, François (1991) *Sémantique et recherches cognitives*, Paris, PUF.

Rastier, François (1993) La sémantique cognitive — Eléments d'histoire et d'épistémologie, in Brigitte Nehrlich, éd. "Histoire de la sémantique, 1890-1990", *Histoire, Epistémologie, Langage*, XV, 1, pp. 153-187.

Rastier, François (1995) Communication et transmission, *Césure*, 8, pp. 151-195.

Rastier, François (1996a) Problématiques du signe et du texte, *Intellectica*, 23, pp. 11-53.

Rastier, François (1996b) Représentation ou interprétation ? — Une perspective herméneutique sur la médiation sémiotique, in V. Rialle et D. Fisette (dir.), *Penser l'esprit : des sciences de la cognition à une philosophie de l'esprit*, Grenoble, Presses Universitaires de Grenoble, pp. 219-239.

Rastier, François (1997) Herméneutique matérielle et sémantique des textes, in Salanskis, J.-M. et al. éds. *Herméneutique : textes, sciences,* Paris, PUF, pp. 119-148.

Rastier, François (1998a) Le problème épistémologique du contexte et le problème de l'interprétation dans les sciences du langage, *Langages*, 129, pp. 97-111.

Rastier, François (1998b) Cognitive Semantics and Diachrony, in Andreas Blank / Peter Koch, éds., *Historical Semantics and Cognition*, Mouton de Gruyter, Berlin (Cognitive Linguistics Research), pp. 109-144.

Rastier, François (1999) Action et récit, *Raisons pratiques*, 10, pp. 173-198.

Rastier, François (2000) L'Être naquit dans le langage, *Methodos*, I, 1.

Rastier, François (2001a) L'action et le sens, *Journal des anthropologues*, 85-86, pp. 183-219.

Rastier, François (2001b) *Arts et sciences du texte*, Paris, PUF.

Rastier, François (2002) Valeur saussurienne et valeur monétaire, *L'information grammaticale*, 95, pp. 46-49.

Rastier, François (2003) Le silence de Saussure ou l'ontologie refusée, in Bouquet, éd., pp. 23-51.

Rastier, François (2005) Enjeux épistémologiques de la linguistique de corpus**,** in Geoffrey Williams, éd.*, La linguistique de corpus*, Presses universitaires de Rennes, pp. 31-46 ; aussi :*Texto !*, http://www.revue-texto.net

Rastier, François (2006a) Saussure au futur. Écrits retrouvés et nouvelles réceptions, *La linguistique*, 42, 1, pp. 3-18.

Rastier, François (2006b) Formes sémantiques et textualité, *Langages*, 163, pp. 99-114.

Rastier, François (2010) Saussure et la science des textes, in Jean-Paul Bronckart, Ecaterina Bulea, Cristian Bota, éds., *Le projet de Ferdinand de Saussure*, Genève-Paris, Droz, pp. 315-336.

Rastier, François (2011) *La mesure et le grain – Sémantique de corpus*, Paris, Champion.

Rastier, François (2012) Lire les textes de Saussure, *Langages,* 185, pp. 7-20.

Rastier, François, éd. (2013) *De l'essence double du langage* et le renouveau du saussurisme, *Arena Romanistica*, 13 (numéro spécial).

Rastier, François et Ballabriga, Michel, éds. (2007) *Corpus en lettres et sciences humaines — Du document numérique à l'interprétation.* [En ligne : www.texto-revue.net].

Rastier, François et Pincemin, Bénédicte (2000) Des genres à l'intertexte, *Cahiers de praxématique*, 33, pp. 99-111.

Rastier, François, Cavazza Marc et Abeillé, Anne (1994) *Sémantique pour l'analyse*, Paris, Masson.

Redard, Georges (1978) Deux Saussure ?, *CFS*, 32, pp. 25-41.

Reichler-Béguelin, Marie-José (2010) Le statut épistémologique des « identités diachroniques » dans la théorie saussurienne. Une critique anticipée du concept de grammaticalisation, in Bronckart et coll. (éds), *Le projet de Ferdinand de Saussure*, Paris-Genève, Droz, pp. 239-269.

Reichler-Béguelin, Marie-José (2013) « Opérer en dehors de toute étymologie ». La diachronie dans l'*Essence double* de Ferdinand de Saussure, *Arena Romanistica*, 12, pp. 138-162.

Rey, Alain (1973-1976) *Théories du signe et de la signification*, Paris, Klincksieck, 2 tomes.

Ricœur, Paul (1986) *Du texte à l'action. Essais d'herméneutique II*, Paris, Seuil.

Ricœur, Paul (1990) Sémiotique et herméneutique, *Actes sémiotiques*, 7.

Rosier, Irène (1982) La théorie médiévale des modes de signifier, *Langages*, 65, pp 117-128.

Rosier, Irène (1984) Grammaire, logique, sémantique. Deux positions opposées au XIIIe siècle : Roger Bacon et les modistes, *H.E.L.*, VI, I : 21-34.

Rosier, Irène (1995) *La parole comme acte*, Paris, Vrin.

Rouibah, Aïcha (1994) *Traitement phonologique et traitement sémantique : Modularité ou cascade?* Thèse de doctorat, Université Pierre Mendès-France, Grenoble.

Sanders, Carol, éd. (2006) *The Cambridge Companion to Saussure*, Cambridge, Cambridge University Press.

Saussure, Ferdinand de (1964) Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet, publiées par Emile Benveniste, *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 21, pp. 93-125.

Saussure, Ferdinand de (1972) *Cours de linguistique générale*, d'après Charles Bally et Louis Sechehaye, éd. Tullio de Mauro, Paris, Payot.

Saussure, Ferdinand de (1989) Note sur le discours, *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 43, pp. 93-94.

Saussure, Ferdinand de (1993) Les manuscrits saussuriens de Harvard, *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 47, pp. 179-234. Ed. Herman Parret.

Saussure, Ferdinand de (2002) *Écrits de linguistique générale*, Paris, Gallimard [éd. Simon Bouquet et Rudolf Engler].

Saussure, Louis de (2006) art. Benveniste, in Sylvie Mesure et Patrick Savidan, *Le dictionnaire des sciences humaines*, Paris, PUF, pp. 1042-1044.

Saussure, Louis de (2006) Valeur, signification, contexte : linguistique de la parole et pragmatique cognitive, in Saussure, L. éd. *Nouveaux regards sur Saussure*, Genève, Droz, pp. 171-208.

Schleiermacher, Friedrich (1987) *Herméneutique*, Genève, Labor et Fides.

Searle, John (1982 [1979]) *Sens et expression. Étude de théorie des actes de langage*, Paris,

Minuit.

Searle, John (1995) *The Construction of Social Reality*, trad. Claudine Tiercelin (1998), *La construction de la réalité sociale,* Paris, Gallimard.

Searle, John (2007) What is language: Some preliminary remarks, in *Explorations in Pragmatics: Linguistic, Cognitive, and Intercultural Aspects*, Istvan Kecskes & Laurence Horn (eds), Berlin-New York, Mouton de Gruyter, pp. 7-38.

Searle, John (2010) *Making the Social World. The Structure of Human Civilization*, Oxford, Oxford University Press.

Searle, John (2012) Qu'est-ce que le langage ? *Pratiques*, 155-156, pp. 228-250.

Sharma, Direndhra (1969) *The Differentiation Theory of Meaning in Indian Logic*, La Haye, Mouton.

Starobinski, Jean (1964) Les anagrammes de Ferdinand de Saussure, *Mercure de France*, 350, pp. 243-262.

Starobinski, Jean (1971) *Les mots sous les mots. Les Anagrammes de Ferdinand de Saussure*, Paris, Gallimard.

Stcherbatsky, Theodor (1962 [1930-1932]) *Buddhist Logic*, New York, Dover, II vol. [réed. Delhi, 1996].

Testenoire, Pierre-Yves (2013) *Ferdinand de Saussure à la recherche des anagrammes*, Limoges, Lambert-Lucas.

Trabant, Jürgen (2005) Faut-il défendre Saussure contre ses amateurs ? Notes item sur l'étymologie saussurienne, *Langages*, pp. 111-128.

Turpin, Béatrice, éd. (2003) La légende de Sigfrid et l'histoire burgonde, in Bouquet, éd., p. 351-429.

Utaker, Arild (2002) *La philosophie du langage. Une archéologie saussurienne*, Paris, PUF.

Valla, Lorenzo (1982) *Laurentii Valle repastinatio dialectice et philosophie*, Gianni Zippel éd., 2 vol., Padoue, Antenore.

Wierzbicka, Anna (1980) *Lingua mentalis*, Sydney, Academic Press.

Wittgenstein, Ludwig (1996) *Le Cahier bleu et le Cahier brun*. Trad. de l'anglais par Marc Goldberg et Jérôme Sackur. Préface de Claude Imbert, Paris, Gallimard.

Wittgenstein, Ludwig (2004) *Recherches philosophiques*, Paris, Gallimard.

Wunderli, Peter (1972) *Ferdinand de Saussure und die Anagramme. Linguistik und Literatur*, Tübingen, Niemeyer.

Wunderli, Peter (2005) Saussure's anagrams and the analysis of literary texts, in Sanders, Carol, éd. *The Cambridge Companion to Saussure*, Cambridge, Cambridge University Press, pp. 174-185.

Zilberberg, Claude (1987) *Raison et poétique du sens*, Paris, PUF.

Zimmermann, Francis (1990) La tradition indienne : les théories de la signification, in Auroux, S., éd. *Histoire des idées linguistiques*, Bruxelles, Mardaga, vol. I, pp. 401-416.

2. مصادر ومراجع المترجم

1.2 بالعربية

-أيكو، أمبرطو، (2005)، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة محمد الصمعي، المنظمة العربي للترجمة، بيروت.

- فرديناند دي سوسير، (2016)، **محاضرات في علم اللسان**، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

-فتگنشتاين، لودفيك (2009) ، **تحقيقات فلسفية**، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

- راستيي، فرانسوا ،(2010)، **فنون النص وعلومه**، ترجمة ادريس الخطاب، دار توبقال، الدار البيضاء.

- الخطاب، ادريس، (2017)، **علوم الثقافة**، دار توبقال، الدار البيضاء.

- حمداوي، (جميل)، "السيميوطيقا والعنونة"، **عالم الفكر**، العدد 3 المجلد 25، يناير-مارس، 1997.

- دولودال، (جيرار)، "بيرس أو سوسير"، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، **العرب والفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988.

- ريكور (بول)، " النص والتأويل"، ترجمة منصف عبد الحق، **العرب والفكر العالمي**، العدد الثالث، 1988.

- فاخوري، (عادل)، "حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)"، **عالم الفكر**، العدد 3 المجلد 24، يناير-مارس، 2006

-نفادي، (سيد)، "السيميوطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب"، **عالم الفكر**، العدد 1 المجلد 31، 2002.

2.2 بالفرنسية

Amaker, R., (2011), Saussure, F. de, *Sciences du langage. De la double essence du langage et autres documents du ms BGE Arch. De Saussure 372. Edition partielle mai raisonnée et augmentée des Ecrits de linguistique générale*, Genève, Droz, Publications du Cercle Ferdinand de Saussure VII.

Arrivé, Michel, (2007), *A la recherche de Ferdinand de Saussure*, Paris, PUF.

Beguelin, M.J., (2012), « La place de la grammaire comparée », *Langages*, 20/2/1, nº 185 , pp.75-90.

Bergounioux, G., «Saussure et l'histoire de la linguistique : l'apport des sources manuscrites », *Langages* 20/2/1, nº 185, pp.51-63.

Bouquet, S., (2012), « Principes d'une linguistique de l'interprétation : une épistémologie néosaussurienne », *Langages* 20/2/1, nº 185, pp.21-33.

Bouquet, S., (1989), « Le cours de linguistique générale de Saussure et la philosophie » in *Histoire, Epistémologie, Langages*, 1989, /11-II/, pp.103-119.

Coseriu, E., (1999), « Dix thèses à propos de l'essence du langage et du signifié », [en ligne], *revue texto.net*, Vol VI, nº2, disponible sur www.texto.net/inédits/, consulté le 2/09/2019.

Depcker, L., (2012), « Les manuscrits de Saussure : une révolution philologique », *Langages*, 1989, /11-II/, pp.3-6.

Depcker, L., (2012), « L'élaboration du concept de « valeur » dans les manuscrits saussuriens» *Langages*, 1989, /11-II/, pp.109-124.

Estanislao, S., (2012), « Quelques problèmes philologiques posés par l'œuvre de Ferdinand de Saussure », *Langages*, 1989, /11-II/, pp.35-50.

Jackendoff, R., (1983), *Semantics and Cognition*, Cambridge, Massachusetts: MIT Press.

Kurts, L., (2016), « Saussure, les néo-saussurismes et la philosophie », revue texto.net [en ligne], *revue texto.net*, Vol XXI, nº3-4, disponible sur www.texto.net/index.ph/, consulté le 2/09/2019.

Marchese, M.P., (2012), « Linguistique indo-européenne et linguistique générale chez Saussure : un parcours de continuité à travers les manuscrits », *Langages*, 1989, /11-II/, pp.65-73.

Matsuzawa, k., (2012), « Puissance de l'écriture fragmentaire et « cercle vicieux »-Les manuscrits de *De l'essence double du langage* de Ferdinand de Saussure, *Genesis*, 35, pp. 41-57.

Rastier, F., (1973 éd.), *Sémiotique narrative et textuelle*, Larousse.

Rastier, F. (1987), *Sémantique interprétative*, PUF.

Rastier, F. (1989), *Sens et textualité*, Hachette.

Rastier, F., (1991), *Sémantique et recherches cognitives*, PUF.

Rastier, F., (1996 éd.), *Textes et sens*, Paris, Didier Erudition.

Rastier, F.,(2002) et Bouquet, S. (éds.), *Une introduction aux sciences de la culture*, PUF.

Rastier, F., (2005), *Ulysse à Auschwitz, Primo Lévi, le survivant*, Paris, Cerf.

Rastier, F.,(2013), *Apprendre à transmettre, l'éducation contre l'idéologie managériale*, PUF.

Rastier, F., (2014), « Documents, textes, œuvres », in *Perspectives sémiotiques*, sous la direction de Driss Ablali, Sémir Badir et Dominique Ducard, Colloque Cerisy, Presses Universitaires de Rennes, PUR., pp.13-39.

Rastier, F., (2016), *Créer : image, langage, virtuel*, Casimiro.

Saussure, Ferdinand de, (1916) [(1980]), *Cours de linguistique générale*, Payot.

Thénaut, C.B., (2015), « D'un essai de jeunesse au cours de linguistique générale », [en ligne], *revue texto.net*, Vol XX, , nº4, (2015), Format PDF, disponible sur www.texto.net, consulté le 15/09/ 2019.

Vaxelaine, J.L., (2007), « Ontologie et dé-ontologie en linguistique : le cas des noms propres », [en ligne], *revue texto.net*, Vol XII, nº2, (2015), disponible sur www.texto.net, consulté le 13/09/2019.

3.2 المعاجم والقواميس

بدوي، أحمد زكي،(1978)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، مكتبة لبنان، بيروت.

الخولي، محمد علي،(1986)، **معجم علم اللغة التطبيقي**، إنجليزي-عربي، مكتبة لبنان.

الخولي، محمد علي،(1982)، **معجم علم اللغة النظري**، إنجليزي-عربي، مكتبة لبنان.

الفاسي الفهري، عبد القادر،(2009)، **معجم المصطلحات اللسانية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

كرم، سمير،(2006)، **الموسوعة الفلسفية**، دار الطليعة، بيروت.

المسدي، عبد السلام،(1984)، **قاموس اللسانيات**، الدار العربية للكتاب، تونس.

طرابيشي، جورج،(2006)، **معجم الفلاسفة**، دار الطليعة، بيروت.

فهرس المصطلحات (المترجم)

Accidents.....عوارض

Actantielle (structure) .....(بنيات) فاعلية

Acte.....فعل

Action .....حركة

Allotopie.....انقطاع التشاكل

Amorçage.....تحفيز

Anagrammes.....قلب الحروف

Allitération.....جناس

Apoha.....طلاق، فصل

Argument.....موضوع

Associatif.....اقتراني

Assonance.....تجانس صوتي

Binarisme.....مثنوية

Catégorématique.....(وحدات) مقولاتية

Commutation.....تبديل

Concept.....تصور

Concordance.....مطابقة

Corrélation.....تعالق

Cours d'action.....سلسلة من الحركات المتسقة

Déictiques.....روابط

Dénotation.....إشارة

Diatopique (langue).....لغة جهوية

Diaphasique (langue) .....لغة متميزة من حيث الأسلوب

Diffusion.....بث، نشر

Discret.....مفصول

Dualisme.....فكر ثنائي

Dualité.....ثنائية

Energeia.....نشاط، قدرة

Enoncé.....ملفوظ

Enonciation.....تلفّظ

Ergon.....عمل مُنجز

Etiqueté.....موسوم

Etiqueteur automatique.....موسم آلي

Extrait.....قطعة

Entité.....ذات

Extension.....ما صدق

Fonctifs.....واظفات

Fond sémantique.....خلفية دلالية

Fragment .....مقتطف

Garantie.....ضمان

Hétéroplanes.....متباينة المستوى

Homoplanes.....متماثلة المستوى

Hypertextuels.....نصوص مترابطة

Indexicaux.....أدوات إشارية

Inférence.....استدلال

Insertions.....مدمجات

Intension.....مفهوم

Intelligible.....معقول

Interprétant.....مؤوِل

Isonomie.....مساواة

Isophonie.....تماثل صوتي

Lexie.....وحدة معجمية

Modalités.....موجّهات

Monade.....موناد، جوهر فرد

Monème.....مونيم

Métamorphoses.....ميتامورفوزات

Métatopie.....تحوّل

Morphème.....مورفيم

Morphosémantique.....مورفودلالة

Nominalisme.....مذهب اسمي

Notes……..……تدوينات

Objectivation…….....موضعة، تعيين الشيء موضوعا للبحث

Occurrence…….....ورود

Onomasiologique…….....مسمياتي

Orthonymie…….....إفصاح

Palier (du texte)…….....درجة (النص)

Palindrome…….....سياق متناظر (حالة جملة تقرأ من اليمين ومن اليسار)

Paradigme…….....جدول

Paragrammes…….....إبدال

Paronymes…….....أسماء مجانسة

Passage…….....مقطع

Période…… ..... الاتساق البلاغي

Phème…….....عنصر في التعبير

Phonê……صوت

Phonème…….....فونيم

Phore…….....صوت

Point de vue…….. ..... وجهة نظر

Polysémiotiques…….....متعدد المظاهر السيميائية

Ponctème…….....وحدة ترقيمية

Portée…….....مدى

Prédicat…….....محمول

Priming…… تنشيط الجانب الإدراكي

Présupposition…….....تضمن

Procès…….....حدث، فعل حدثي

Propagation…….....انتشار

Proposition……. .....قضية

Rection…….....تعدي

Représentation ……..……تمثيل

Schéma……خطاطة

Segment…….....قطعة صوتية

Sèmes…….....سمات دلالية

Sèmes génériques……..سمات نوعية
Sèmes afférents……..سمات ثقافية
Séquence……..متتالية
Sémiosis……..سيميوزيس
Signe…….. .....علامة
Signifiant …….…….....دال
Signification…….....دلالة لفظية
Signifié…….....مدلول
Signal…….....إشارة
Sommation…….....تجميع
Substance…….....جوهر
Syncatégorématiques …….....مقولات داخل السّياق
Syntagmatique…….....مستوى مركَّبي
Teneur…….....فحوى
Transcodage …….....تحويل الشفرة

محتويات الكتاب

ملخص.....2

توطئة.....3

مقدمة المترجم.....4

تمهيد..... 13…

مقدمة: مؤسس غامض.....14

القسم الأول: العثور على سوسير.....19

لفصل الأول: كتابات سوسير: المشاكل الفيلولوجية 20

الفصل الثاني: تأويل سوسير: المشاكل الهيرمينوطيقية.....72

القسم الثاني: العلامات وخاصية النفي.....37

الفصل الثالث: هل توجد علامة سوسيرية ؟.....38

الفصل الرابع: الثنائيات في مقابل الفكر الثنائي.....62

الفصل الخامس: القطيعة مع الأنطولوجيا.....67

القسم الثالث: مستقبل السيميائيات.....83

الفصل السادس: سوسير ومسألة النصوص.....84

الفصل السابع: اللسانيات السوسيرية وفلسفة اللغة.....98

خاتمة: محددات في مشروع علوم الثقافة..... 108

ملحق: السيميائيات وفلسفة اللغة.....116

البيليوغرافيا..... 134

فهرس المصطلحات.....148

محتويات الكتاب.....152